فـوّاز حـدّاد

الضغينة والهوى

روايـة

طبعة جديدة



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

الضغينة والهوى

فـواز حــداد

الضغينة والهوى

رواية



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

HATRED AN LOVE

Fawwaz Haddad

Second edition in January 2010

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21 - 449 - 2

طبعة ثانية: كانون الثاني (يناير) ٢٠١٠

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

إليكِ كتابي، لولاكِ، لما كان.
وأعترف، أو أطمح إلى أن يكون كتابنا معاً،
فلا تنكريه، إن لكِ نصيباً فيه.
تمنيتُ عندما حلّت ساعةُ الحقيقة،
أن تشاطريني إياها،
لكنكِ اخترتِ الرحيل بمصيركِ بعيداً عني.

تزعم بعض الكتب أنها غير مدينة لأحد، هذا الكتاب شاء أن يكون مديناً للآخرين، وربما بفضلهم جاء بهذه القسوة والتجرد والجحود. كدت أن أكتبه منذ زمن بعيد، أي في وقتـه (ذلك الوقت الذي مضى، وبدا لي سهواً أو كرهاً أنه لم يمض) لأن الظروف كانت حالكة، ومواتية (أو كنت أظن أنها مواتية) لم أتقاعس، لكنني لم أفعل.

إذن على شفا الحقيقة والموت،
خضتُ غمار الضغينة والهوى،
ومن أجلكِ تخطيتُ تخوم الجريمة.

ثمة الكثير مما حدث في كواليس الحكومات والسفارات والفنادق والحفريات.. والتاريخ أيضاً، وكان ما أعرفه عنها أقل من القليل. كما أنني اعتقدتُ، بداعي الإنصاف لا الحذلقة، أن ما تلمحته

بقوة ونفاذ وإن كان مخايلاً إلى حد ما، وغير واضح بشكلٍ ما، ينبغي قبل تسجيله على الورق؛ أن يظهر دونما لبس، وبجلاء أكيد، فانتظرته. وربما كان لانتظاري أن يكون أخف وطأة وأقل عناء، لو أن قدراً من الوهم الكاذب خالط أملي الضعيف.

وفي انتظاركِ أيضاً؛
رزحتُ تحت وطأة بلا أوهام، و كانت
الأشد عناء.

أحداثٌ، خمّنتُ بعضاً من خفاياها، وما استعصى كان أبلغ من أعتى تصوراتي تحيزاً، وما جهلته كان في سبيله إلى النسيان والمزيد من العبث، والأشخاص الذين بقوا على قيد الحياة؛ تبعثروا.

لن يخُلني أحدٌ منكِ، ولن يأخذ أحدٌ مكاني،
ويوفر عليَّ رسالة طويلة، أصبحت كتاباً،
سواء امتنع عني أو امتنعت عنه، فلأن الحياة
أمست بلا رجاء ولا آفاق.

كنتُ أراوغ حياة طالت وضقت ذرعاً بها، وأحسست في ليالي قنوطي، أنني لم أكن أترقب سوى الموت، وهو الأولى بإخفاء غموض عابر بغموض مقيم.

ألم تخلفيني وراءكِ أكابدُ وحدي؟!
بعدكِ، بات كل شيء إلى غياب.

ولولا أن حالفني الحظ بعد أن حالفني اليأس، لما قُيِّضَ لكتابي هذا، أن يُكتب. كان، بدلاً من أن يرى النور، سيتردد همساً مريراً وكفيفاً، يمزقني وحبيس صدري.

ها انتظم في ثنايا كتاب.

وإذا واتتني رياح الحظ ثانية، فسوف
يقع هذا الكتاب بين يديكِ.
لا ترميه جانباً.
سعاد، لقد كتبته لكِ.

كان هذا فيما بعد. قبل ذلك، كانت المصادفة:

القسم الأول

دمشق ـ بيروت

في مطار هيثرو، عثرت في كشك يبيع الصحف والمجلات على كتاب صادر حديثاً بعنوان «مهمات في الشرق الأوسط» أثار اهتمامي الشديد فور وقوع بصري على اسم مؤلفه «وليم أوستن» المسؤول السابق في وكالة المخابرات الأميركية في لبنان. في الكتاب، كانت سورية إحدى مهماته، وفي أحد فصوله يتعرض للأحداث التي وقعت بين دمشق وبيروت أوائل الخمسينيات.

بمساعدة من دار النشر الأميركية، اتصلت بوليم أوستن وطلبت منه بعض المعلومات عن مبعوث شركة التنقيب عن البترول «جاك ساندرز» الرجل الثاني المشارك في تلك الأحداث. لم يفدني أوستن عنه بأكثر مما أورده في كتابه، لكنه زودني بعنوانه الجديد في جنوب شرق آسيا، حيث يعمل مستشاراً لمجموعة شركات متعددة الجنسيات.

تبادلت مع ساندرز رسائل عديدة، مطولة من جانبه، فاضت باستطرادات بدت شخصية لا تهمني بقدر ما تهمه. كان على الرغم من رغبته في تصحيح ما أورده أوستن عنه، يرغب بشكل أكبر وبانفعال عارم في نفي اتهامات أثارها أوستن حول قس بروتستانتي، أميركي الجنسية، يدعى «كارل بيردي» وخوري أرثوذكسي عربي، سوري الجنسية، يدعى «بطرس البحصاوي»؛ وجدتها، بعد حين، قصة ليست على الهامش، حثثته على متابعتها. وبهذا، لم أُلحق بيردي والبحصاوي بكتابي، بالعكس أصبحا في صلبه، وكانا مجرد شخصين عابرين ومحيرين، لم أولهما انتباهي، لأنهما ترددا عَرَضاً في كتاب أوستن.

ثم وفرت لي رحلتي لأوروبا فرصة مقصودة للالتقاء بـ «أونوريه دولمونت» في باريس، السكرتير الأول في السفارة الفرنسية في لبنان آنئذٍ، ولاحقاً أحد المسؤولين في الخارجية عن المصالح الفرنسية في البلاد العربية، والمتقاعد حالياً. استجاب دولمونت لفضولي، وأسرّ لي بأكثر مما سألته، ولم يتجنب إثارة خواطر وتساؤلات لم تجد إجابات شافية في وقتها. وكان، غالباً، متحرراً أكثر منه متخففاً من أعباء دبلوماسية، عفا عليها الزمن، وأعفى نفسه من التقيد بهـا.

كشف لي كتاب أوستن ومراسلاتي مع ساندرز وحواراتي مع دولمونت، ثُغَراً لم أستطع ردمها طوال سنوات، وكأنما حان الوقت لصورة أخرى كانت غائبة عني، وباتت واضحة لي، نَسَّقتُها مراعياً قدراً لا بأس به من التزامن والتسلسل، دونما أي تحرٍّ للدقة في تفاصيلها، أدرجتها كما هي، بلا مراعاة، إلى جوار الصورة التي عرفتها.

أنا الراوي، وفي سياق من كتابي على وجه التحديد. هذا التوضيح يتناولني بالذات، كي لا يشتط البعض ويرى في شخصي مدعاة لاهتمام لم أسع إليه. لقد شاركت في جانب من تلك الأحداث، وكنت على أطرافها. أما في السياق المحاذي ـ الصورة الأخرى ـ فقد أسهمت بنصيب ضئيل، بتجميع ما جرى من خلالهم، وأرجو أن يكون ما اقتطعته منهم، معبّراً عنهم، لا شفيعاً لي في وجهة نظر غير مسوغة لهم. كما ـ وألفت انتباهكم ـ لا ينبغي إغفال أنه في بعض الأحيان أو غالبها، لا يعوّل على ما كتب، أو قيل بعدئذٍ، وإنما على ما حدث حينئذٍ.

ما توخيته، ألّا أحجب بآرائي وتخميناتي، أحداثاً وأشخاصاً: أحداثاً، كتبت عنها ولم يتح لي التأثير فيها. وأشخاصاً، اكتفيت بذكر ألقابهم الوظيفية الرسمية، بطلب أو من دون طلب منهم. وآخرين، بأسمائهم الحقيقية، لأنهم أعلنوا عنها صراحة، وبالتالي، لن يظهروا كما تراءوا لي إبانها فقط، بل وكما اعتادوا الظهور والتخفي أيضاً.

1

في اليوم الأخير من مهمتي في بيروت كممثل عن الجانب السوري في المفاوضات التي دارت مع الجانب اللبناني حول بعض القضايا الجمركية العالقة بين بلدينا، وعقب اختتام المباحثات، دعاني مفاوضي اللبناني إلى مطعم الشواء في فندق السان جورج، مقترحاً أن نمضي وقتاً في البار قبل العشاء.

قبلتُ الدعوة، كانت سمعة البار المثيرة مغرية جداً، مكانٌ مثالي مفتوح لتبادل الآراء وتداول المعلومات وترويج الإشاعات، ومرصد استثنائي لتسقط الأخبار وصناعتها وتلفيقها. بالإضافة إلى مكانته المرموقة كمركز استماع وتلصص على الشرق الأوسط؛ منه تتدفق أخبار البلدان المجاورة إلى العالم؛ وفيه تعقد صفقات وعمولات تقدر بملايين الدولارات، رواده سياسيون لبنانيون معروفون، وسياسيون عرب يستجمون أو منفيون، ومراسلون لأهم الصحف

والمجلات ووكالات الأنباء العالمية، وكبار رجال المال والأعمال العرب والأجانب والأثرياء المحدثون.

أوحى لي منظر البار بمشهد هادئ وخامل على وشك التثاؤب، الضوء الخفيف، غمامات الدخان، الظلال المتداعية على الجدران المكسوة بالخشب، الطاولات المستديرة القليلة، المقاعد الجلدية، الكراسي الدوارة. أناقة دون إسراف ودون سمعة البار. بينما توزع الزبائن حلقات يتكلمون بأصوات منخفضة ترافقها إشارات كسولة عكست أجواء سياسية فاترة. النادل بسترته البيضاء وبنطاله الأسود يتنقّل من طاولة إلى أخرى بخفة واقتدار، راسماً على وجهه غضون ابتسامة لم تفارقه، يحمل صحون الزيتون الأسود والأخضر وشرائح الليمون والفستق ورقائق البطاطا والفستق الحلبي والسوداني، يتبادل الكلام مع الزبائن بالفرنسية والإنكليزية وبعض الكلمات العربية.

أشار مضيفي إلى الساقي ممتدحاً براعته في استخدام البهارات في تحضير كوكتيلات خاصة يراعي فيها أذواق الزبائن المختلفة. طلبتُ زجاجة ماء بيريه، فيما طلب مضيفي كأس دراي تونيك. تلهيتُ ناظراً إلى سيدة أميركية شقراء تدخن بعصبية وشراهة.

«تتناسون أننا في لبنان نتجنب الانحياز إلى أي طرف في المنازعات السياسية».

كنت شارداً عن مضيفي الذي تابع مؤكداً:

«غالبا لديكم طلبات غير معقولة».

تبادرت إلى ذهني مفاوضاتنا المرهقة. تساءلت:

«ألم نتوصل إلى اتفاق معقول لكلينا؟!».

«أقصد مذكرة حكومتكم البارحة».

كان يعني المذكرة السورية التي تطالب الحكومة اللبنانية بتسليمها اللاجئين السوريين. قلت:

«لقد علمتُ بها اليوم».

«حكومتنا تعتزم الرد بالاعتذار».

«لكنها لم تنظر فيها بعد!!».

دنا برأسه مني.

«نتمنى على رئيس وزرائكم ألا يلعب دور رياض الصلح، لأنكم لن تجدوا لدينا من يقبل بلعب دور حسني الزعيم، ألم يدفع مارشالكم حياته ثمناً لذلك الخطأ الفظيع؟!» وأكمل هامساً «سيشعر رئيس حكومتنا بالامتنان في حال أحس أنكم لن تبخلوا بدعمه في أزمة مستعصية، وبوسع رئيس وزرائكم أن يكون مطمئناً إلى أننا سنرحب به ضيفاً مكرماً في يوم عصيب».

لم يرق لي همسه، كان على الرغم من تبسيطه للأمور، منذراً بانقلاب واغتيالات وإعدامات صباحية بلا محاكمة. قلت:

«هذا الأمر عندما يحِلُّ قد يكون خارجاً عن إرادتيهما».

«إن علاقة الجوار الحسنة، حماية للجميع» واسترسل مازحاً «اللاجئون السوريون لا يُخشى منهم، نشاطهم لا يتعدى المقاهي

والكتابة بأسماء مستعارة في الصحف الممنوعة من دخول سوريـة».

انقطع حديثه وهو يشيّع الداخلين والخارجين بنظراته وتعليقاته، مراسل «الأوبزرفر» جاسوس بريطاني، مصرفي أنيق يتشمم أخباراً عن حركة ودائع البلدان النفطية، رجل علاقات عامة يتصيد معارف وعمولات؛ مراسل «النيويورك تايمز» يبيع معلوماته للمخابرات الأميركية؛ تاجر فراء قصير القامة وبدين عميل روسي؛ حتى النادل والساقي على صلة بالأمن اللبناني. أما الشقراء الملفوفة بالدخان؛ الجالسة مع ثلاثة رجال، فهي زوجة الدبلوماسي البلجيكي النحيل والثرثار، وعشيقة المراسل الإنكليزي الصامت الذي يشرب بإفراط.

لم ألحظ الرجلين اللذين تركا مكانيهما في أقصى البار إلا حينما أومأ مضيفي إلى الرجل الذي يمشي في المقدمة قائلاً:

«وليم أوستن، المسؤول عن جهاز المخابرات الأميركية في لبنان، علناً دون أية صفة أخرى».

كانا قد أصبحا على مقربة منا. نهض مضيفي وصافحهما، كان أوستن طويل القامة ممتلئ الجسم وشائب الشعر. لم أتمكن من تفحص ملامح الرجل الآخر الذي بات محاذياً لي، وأوستن يقدمه إلى مضيفي.

«جاك ساندرز، مندوب شركة نفط أميركية».

أرسلتُ بصري بعيداً عنهم، سمعتُ الرجل يجيب على استفسار مضيفي، بأن الشركة أرسلته لدراسة إمكانية فتح مكتب لها في

بيروت. لم يسترع اسمه ولا عمله انتباهي، لم يخطر لي على الإطلاق، أنه وفي اليوم التالي سوف يستأثر بكل اهتمامي.

انتقلنا إلى مطعم الشواء. خلال العشاء، طرق مضيفي ثانية موضوع المذكرة السورية. خمّنتُ أن دعوته للعشاء لم تكن مجاملة رسمية بريئة، وإنما لإبلاغي برسالة شفوية حمّلني إياها لأنقلها إلى رئيس الوزراء.

أوصلني إلى فندق رويال. حينما دخلتُ، أشار موظف الاستعلامات إلى رجل جالس في البهو، عرفته وهو يسارع نحوي، كان سائق رئيس الوزراء. أبلغني بأنني سأغادر برفقته إلى دمشق لأن دولته سيستقبلني غداً في مكتبه صباحاً بخصوص أمر عاجل. بدا لي وكأن الرسالة يجب أن تتلى على مسامعه دون تأخير.

لم تكن علاقتي برئيس الوزراء وثيقة، كانت في حدود العمل جيدة وجافة، انتدبني من وزارة الخارجية بعد تقلده لمنصبه السنة الفائتة. لم أكن قد التقيت به إلا لماماً، حينما وضعني تحت تصرفه وشملني برعايته، موكلاً إليّ مهام دقيقة، عملتُ عليها تحت إشرافه، لولاه لما حظيت بها. كان أسلوبه في العمل يعزز مكانته كسياسي مستقل، مشجعاً الشبان الواعدين، محاولاً دعم المستقلين منهم في جهاز دولة ــ كان حسب رأيه ــ لا مكان للأكفياء فيه، الأحزاب لن ترشحهم ولا الوجاهات لمناصب هم أهل لها؛ وكنت واحداً منهم.

لم يكن خلف طاولته، كان مسترخياً بجذعه فوق الكنبة العريضة،

ممدداً ساقه اليسرى فوق طراحتين. كنت أعرف أنه مريض بالسكري، يتبع حمية دائمة، ويشكو من ارتفاع الضغط. مد يده نحوي دون أن ينهض وصافحني معتذراً بأن ركبته المتورمة تؤلمه، كزّ على أسنانه.

«كأن هناك مخرزاً يحفر فيها!».

لم يخفف وجعه تهيبٌ كان يتملكني إزاءه، بل خالطه التعاطف والخشية عليه، كان الروماتيزم قد أضاف إلى مشاكله الصحية المزمنة آلاماً دورية لا تطاق. وتريثت في نقل الرسالة الشفوية.

كعادته، كان ممسكاً بين أصابعه قلماً مذهباً يخطُّ به على صفحة دفتر صغير، أسنده إلى حافة الكنبة. أثنى على جهودي في بيروت وخلص إلى أن العلاقات مع لبنان أصبحت أكثر وضوحاً وستشهد تحسناً ملحوظاً خلال الفترة المقبلة. عندئذٍ، أبلغته بمضمون الرسالة اللبنانية، ووصفتُ العلاقات التي ستصفو بأنها ستتكدر. رَسَمَ بسرعة خاطفة على دفتره دائرتين متداخلتين وضرب عليهما بقلمه شاطباً إياهما بخفة.

«لم يكن هناك مفر من المذكرة، أنا لن أصر عليها، لقد مرَّرتُها لإسكات الأحزاب والجيش. اللبنانيون يعرفون ما أتعرض له ويخمنون أن ذيول رفضهم لن تتعدى المناوشات في الصحف».

قَلَبَ صفحة من دفتره الصغير، وباليد الأخرى مسّد ركبته، خربش قليلاً، ثم رفع رأسه، وكلفني بقضية النفط.

«النفط!!» هتفتُ مستفهماً، اعتقدتُ أنها قضية عالقة في مكان ما «إنني أجهلها».

«وأنا أيضاً».

كانت معلوماته عنها ضئيلة بالفعل، استقاها من السفير الأميركي خلال لقائهما أول أمس، وهي أن العالم الفرنسي «ميشيل غوبلان» رئيس بعثة التنقيب عن الآثار، العاملة في منطقة تقع شرقي حمص على مقربة من قرية قرعبة، الواقعة على مشارف البادية، قد اكتشف مكامن للنفط، وبسبب هذا الاكتشاف التمس السفير من رئيس الوزراء تحديد موعد قريب لمقابلة ممثل شركة نفطية أميركية يدعى جاك ساندرز سيصل قريباً إلى دمشق.

«لقد وصل إلي بيروت ورأيته البارحة في بار السان جورج».

«هل تعرَّفت عليه؟».

«لا».

«ستتعرف عليه وتتكلم معه بعد أيام، طلب السفير الموعد غداً، لكنني أجلته أسبوعاً».

كان منزعجاً لأن السفير لم يحدد مواقع حقول النفط المكتشفة، وهي على التأكيد لا تقع ضمن المنطقة التي باشر غوبلان فيها حفرياته منذ ما يزيد على سنتين، ويبدو أن عمله أثناءها لم يكن سوى تمويه على تنقيبه عن النفط. تساءلتُ:

«أليس مما يثير الاستغراب ألا يبيع غوبلان الفرنسي اكتشافه للفرنسيين؟!».

«الأميركيون يدفعون بسخاء».

حزرتُ أن رئيس الوزراء أجَّلَ اجتماعه بساندرز ليكسب بعض الوقت، ومهمتي هي الاتصال بغوبلان. حزري لم يُصب. كان رئيس الوزراء قد طلب من السفارة الفرنسية إبلاغ غوبلان بأنه شخص غير مرغوب فيه وإنذاره بمغادرة الأراضي السورية في غضون مدة أقصاها عشرة أيام.

«لن أسمح لبعثة تنقيب عن البترول التخفي بهيئة علماء آثار».

«ستكون إشارة غير مُرضية للأميركيين».

«الأميركيون لا يهمهم إرضاء أحد، ولا يتورعون عن إزعاج الجميع».

والتفت صوبي، موجهاً إصبعه إليّ:

«ما مدى درايتك بامتيازات النفط؟».

«أنا لا أعرف عنها شيئاً». اعترفتُ من غير تردد.

«ستعرف عنها الكثير خلال رحلتك».

كانت مهمتي السفر إلى السعودية والكويت لإعداد ملف نفطي عن الاتفاقيات البترولية المعقودة معهما. لم يتأخر سفري، كان كل شيء جاهزاً، جواز السفر والتأشيرات اللازمة مع قائمة بأسماء الشخصيات التي سأقابلها في رحلة لن تطول سوى بضعة أيام ولدى عودتي سأحضر اجتماع رئيس الوزراء مع جاك ساندرز.

لم أر من المدن التي حللت فيها إلا الطرق الواصلة من المطار إلى الفندق والشوارع المؤدية إلى عناوين الأشخاص، معارف

رئيس الوزراء من مسؤولي النفط، وقاعات الاستقبال والاجتماعات. سهرتُ الليالي، أكتب ملخصات عن محادثاتي، سَوَّدتُ فيها مئات الصفحات، وعندما حزمتُ حقائبي، كانت قد انتفخت بملفات إضافية احتوت على صور للاتفاقيات البترولية السابقة والحالية المعقودة بين الأميركان والسعوديين والكويتيين، مع فكرة وافية عن العراق وإيران، جعلتني ـ كما قلت لرئيس الوزراء ـ مؤهلاً بأفكار لا بأس بها عن التشابكات والتعقيدات النفطية في الشرق الأوسط.

بيد أن الأحداث التي جرت بين دمشق وبيروت أثناء غيابي سرّعت بصراع انكشف قبل أوانه، وطفا على السطح بشكل متوتر ومكتوم، فجرته نهاية غوبلان المأساوية.

2

امتنع السفير الفرنسي في دمشق عن مقابلة غوبلان، وأوعز إلى الملحق الثقافي إبلاغه بأن بقاء البعثة أو عدم بقائها أمرٌ يتعلق بالشؤون السورية الداخلية، السفارة لن تتدخل، وعليه الامتثال لأوامر السلطات السورية.

اتخذ غوبلان وجهته نحو بيروت للاتصال بصديقه أونوريه دولمونت، السكرتير الأول للسفارة الفرنسية في لبنان. عند الحدود، واجهته عقبة مع رجال الحدود السورية، أنه في حال مغادرته لن يسمحوا له بالعودة وسوف يعتبر خروجه نهائياً، ومع هذا تابع إلى بيروت واجتمع بصديقه دولمونت وطلب منه إطلاع السفير على مشكلته مصراً على أن ترحيله من سورية كان بلا أسباب موجبة، عسى أن يجد له حلاً سريعاً بواسطة الخارجية الفرنسية. وعده دولمونت بإقناع السفير بالبحث عن وسيلة تجعل الحكومة السورية تعيد النظر بقرارها.

دولمونت ــــــ /

: لم يدعني السفير أكمل عرض مشكلة غوبلان، كانت لديه معلومات وافية عنها، وعلَّل عدم تدخله فيها، بأن الخارجية مصرة على معالجة ترحيله بصمت، عدا أنها تُلحُّ على إنهاء أعمال التنقيب الفرنسية في سورية دونما إحداث ضجة، وعلى غوبلان من غير نقاش أو اعتراض، الانصياع التام للإرادة السورية؛ كان ثمة نفاق مفضوح في الإصرار على احترام القرار السوري. متى كانت الخارجية تُعنى بما سمته الإرادة السورية؟! لم ينفع احتجاجي بأن السكوت على طرده البشع وغير اللائق، يوحي بتهمة لن تكون غير التجسس، وينذر بتطاول سوري لن يقف عند حد. كان مستقبل غوبلان العلمي مهدداً في أي مكان سيقصده، عدا أنه سيقضي قضاء مبرماً على سمعته في باريس. حسم السفير الأمر بأن الدفاع عنه سيدمر علاقتنا الهشة مع السوريين. لم أكن أجهل أن الاتجاه الحالي في الخارجية هو السعي لاستعادة نفوذنا في سورية، والتعليمات الأخيرة كانت الابتعاد عن أي عمل أو تصريح قد يثير المشاعر المعادية ضدنا، حتى أن الخارجية غضت النظر عن انتقادات الرئيس السوري لسياساتنا في شمال أفريقيا.

: في قرارة نفسي، أدركت وبغموض أنهم استعملوا غوبلان واستغنوا عنه، كانت تقديراتي أن السفارة في دمشق استمزجت رأي الخارجية التي رفضت رفضاً قاطعاً مساعدة غوبلان واحتاطت للأمر أيضاً في بيروت. لم أحاول أن أكون واضحاً وأنا أشرح لغوبلان أن للخارجية حساباتها المعقدة والوضع السياسي لا يسمح لها بالتدخل لصالحه. لم يُخفَ عليه أن الخارجية تستعجل التخلص منه وصارحني بالسبب الحقيقي لطرده، عزاه إلى ما قدمه للسفير في دمشق من معلومات عن وجود نفط في سورية، كان

يظن أن عميلاً للسوريين مدسوساً في السفارة أبلغ السلطات بما سمعه والتي فسرته على محمل سيئ. كان مصدوماً، لقد قدم خدمة كوفئ عليها بالتخلي عنه، ورغم ذلك تقبل الأمر الواقع وأسقط أي أمل ارتجاه مني، وتواضع في طلبه المستجد، إنه عالق في بيروت، ورجاني التماس السماح له بالعودة ليكون على رأس البعثة لإنهاء أعمالها ضمن المهلة المحددة. كان الوقت بعد الظهر. وعدني السفير بإجراء اتصالاته غداً صباحاً. دعوت غوبلان إلى قضاء اليوم معي في مصيف بحمدون القريب ليروح عن نفسه، لكن شيئاً لم يكن ليرفه عنه، وترك لي رقم غرفته في فندق النورماندي. /

في طريقه من نيويورك إلى بيروت، تبلَّغ جاك ساندرز، الذي توقف في لندن، من مدير فرع الشركة فيها خبراً من دمشق: أخفق السفير الأميركي في تحديد موعد قريب، الموعد حُدد بعد أسبوع. نصحه مدير الفرع بالبقاء في لندن ريثما يقترب موعده: ما الذي ستفعله في بيروت؟! لن يأخذ منك التعرف إلى أوستن والتشاور معه سوى بضع ساعات، بعدها، لن تحتمل جوهرة الشرق الأوسط أكثر من يومين!! لكن ساندرز اختار متابعة رحلته لأسباب عاطفية، ثمة ذكريات تلوح يعود عهدها إلى ما قبل ثلاثين سنة، عندما كان طفلاً.

ساندرز ــــ / في الخامسة من عمري أو أكثر، أبي يحملني بين ذراعيه ويقذف بي إلى الماء، أمي تحتضنني، أبي يشدني من يدي، أمي تلحق بنا، نسرح تحت سماء رمادية محاذاة شاطئ تعالــت أمواجه لينة، في الأفق تراءت منارة خلفها جبل مجلل

برداء أبيض، على سفوحه وحتى قمته تبعثرت قرى صغيرة؛ وعلى مقربة، حطام وبقايا مراكب وأشرعة ودخان أسود؛ وبمرمى النظر كنيسة ارتفع فوقها ناقوس وصليب، ناقوس يجلجل وصليب فتح ذراعيه. من حولنا، فضاء انشطر إلى مطر ومظلات ملونة، وشمس سكبت أشعتها الوردية على ثلج أبيض، فيما انثلم قمر يغوص في بحر شديد الزرقة.

ترى، هل في بيروت شاطئ مثل هذا الشاطئ الذي في ذاكرتي، يتعرج بي إلى أزقة تتلوى داخل منظر يتقلب بين الخريف والصيف، المطر والحر، وجليد اتصل بالبحر، وطريق يتمزق إلى دروب ضيقة على جنباتها بيوت أسطحها من قرميد، تحيط بها هالات من الحشيش الندي الأخضر، وإلى الخلف يباس وهشيم، وعلى المرتفعات تناثرت أشجار الأرز والصنوبر والكافور؟! كنت راجعاً إلى المدينة التي ولدت فيها. /

بينما تبلغ وليم أوستن برقية لاحقة وعاجلة من وكالة المخابرات: موعد دمشق ما زال مؤجلاً. ساندرز سيصل في الوقت المحدد. لم يطرأ جديد على التعليمات السابقة. سنوافيك بتعليمات إضافية قريباً جداً.

التعليمات الإضافية التي تبلغها بعد ساعات قليلة، كانت معلومات عن جاك ساندرز.

أوستن ـــ / غالباً ما كان القادمون إلى لبنان لأعمال تجارية من نمط واحد؛ عمليون وتواقون لجني مكاسب سريعة من المنطقة، ليسوا هم بالذات، بل من أرسلهم، وقد يحصلون عليها بالسرعة

المخطط لها، أو أسرع قليلاً. كنا نُسَهِّل لهم أعمالهم، لم تكن الأمور معهم بسيطة ولا معقدة، عموماً كانت مشكلاتهم معقولة، والتعامل معهم لم يكن مثيراً؛ نادراً ما كان أحد منهم يخالف هذا النمط المواظب على القدوم. غير أن جاك ساندرز، ومن برقية أوصافه، بدا من نموذج الأشخاص النادرين، ولم يكن إصرار الوكالة على سيرته العائلية إلّا تنبيهاً لي على ضبط تحركاته بعدم السماح له بالعمل منفرداً. أدركت، قبل أن أراه، أنني لن أنسجم معه وأننا سنواجه صعوبات جمة في التفاهم والتعاون معاً.

المعلومات لم توح لي بالتفاؤل؛ كانت تحتوي على قدر غير معقول من المأساة المتدينة والمضحية: أبوه إرنست ساندرز، خريج جامعة ويليامز ومعهد أندوفر اللاهوتي، من رعيل المبشرين المتأخرين الذين سعوا لنشر كلمة الله وحلموا بتحويل المنطقة إلى الإنجيلية. حطَّ في بيروت إبان النذر المدلهمة للحرب العالمية الأولى، تزوج شارلوت سميث، الفتاة المتطوعة في الصليب الأحمر، وكان ميثاق زواجهما في تلك السنوات العصيبة من الحرب وتفشي المجاعات والأوبئة، تفانيهما في مد يد العون للمنكوبين والمحتاجين والمرضى. بعد انتهاء الحرب ودخول القوات الفرنسية إلى لبنان، قضى إرنست ساندرز نحبه من جراء سرطان في الحنجرة، لم يمهله أكثر من أسابيع.

كذلك، لا تخلو المعلومات من مقدار غير مشجع من الأخلاقية الزائفة، في تلك السمات اللصيقة بمديري وموظفي شركات النفط، سواء في تحيزهم المطلق لمصالحهم، تحت زعم أنهم يدافعون عن مصالح المستهلك الأميركي، أو في استعرابهم

المفرط في الرياء والدهاء، مدّعين الطهرانية السياسية.

لم أتوقع من جاك ساندرز سليل التبشير والمهمات الإنسانية أن يكون في نهاية المطاف إلا نسخة طبق الأصل عن الشبان الذين يتميزون ـ بحكم نشأتهم الورعة المتخمة بالتعاليم والإرشادات المتزمتة ـ بعقلية رفيعة وبليدة وخصال مهذبة ومتصلبة. /

تعرَّف جاك ساندرز إلى وليم أوستن في بار السان جورج أثناء لقاء حُدد موعده مسبقاً في نيويورك.

ساندرز ــــ / رُتب لقاؤنا على أنه سيبدو مصادفة في البار، مع لمسة بوليسية ركيكة: أتخذ طاولة في مؤخرة البار، أطلب كأس جن تونيك بصوت عال، يتميز أوستن لكنتي الأميركية، فنتبادل بعض الكلمات، ينتقل إلى طاولتي، ويدور بيننا حديث ظاهره تعارف ودعوة إلى كأس سكوتش، يعقبه آخر.

أوستن أزاح أية مسحة من تظاهر متكلف، توجه من فوره نحوي وقدم نفسه قائلاً بأنه تأكد من شخصيتي من سجلات الفندق؛ وعلق على عدم احتراسه: لا داعي للتمويه، يكفي أن ألقي عليك التحية حتى يتكهن الجميع أننا ندبر شيئاً، الأجدى أن نقوم بتغطية بسيطة نبدو فيها كصديقين قديمين جمعهما البار كما يجمع أغلب الأجانب، أفضل من الظهور كمعارف مصادفة متصنعة لن تجوز على أحد، وسوف نحسن عملاً إذا لم نتبادل في أحاديثنا أمور النفط على مسمع من الآخرين، ولن يعرفوا حقيقة مهمتك إلا بعد أن تكون قد أنهيتها.

كانت مهمتي المكشوفة والحالية، فتح مكتب للشركة في بيروت. /

أوستن ـــــ / أحبطساندرز توقعاتي عنه منذ اللقاء الأول بانطباع لافت ومعتبر وهو يقدم نفسه وبأسلوب فائق العناية، ليس كابن راعي أبرشية نموذجي، وإنما كنسخة معدلة حسب آخر طراز سينمائي لابن مبشر أمضى حياته بين اللصوص والعاهرات والمدمنين والقتلة؛ فاجأني رغم تصلبه العميق باهتمامات نوعية ودقيقة لا تغفل التفاصيل التافهة للمؤامرات الصغيرة، والمصالح المسماة مادية، سبب أسباب خطايا البشر الأحياء، مع حيوية لا تنكر في اصطياد الفرص، ووصفات مثالية وجاهزة للنجاح، وروح لا صلة لها بأرواح الشهداء القديسين، أو بتلك الأرواح التي لا ترى. كانت روحه مرئية، عارمة، وتواقة للمنافسة، وإذا كان الجشع واحدة من الخطايا الممتازة والمرغوبة في مهنته، فإن سيئاته كانت مرموقة، التعجل والضجر، أقرب ما يكون إلى السائحين الأوروبيين الذين يأتون إلى لبنان لقضاء أسبوع مشمس يمضونه في التزلج على الماء والجليد والتسكع بين البارات، يلتقطون الصور التذكارية في سوق سرسق وبين أعمدة بعلبك وتحت شجرة أرز، ثم يتبرمون من الحر ولا يخفون سأمهم من التاريخ العريق، الطويل والممل، والأسواق القديمة، والقمار والاستعراضات، ومن متع مألوفة، بالأساس غربية؛ وفي الساعات الأخيرة، يظفرون بتذكار خارق.

ساندرز، مثلهم، لن يعود بلا دليل باهر، سيقبل أسوة بهم، وعن طيب خاطر، أن يخدعه بائع عربي خبيث، بتحفة شرقية مقلدة بشكل سيئ، يشتريها مطعّمة بقصة رهيبة، يعرف أنها كاذبة، وفي

الوطن يتباهى، من خلال القصة الرهيبة ذاتها، بهذه التحفة النادرة؛ يزعم أنها أصلية، كلفه الحصول عليها مغامرة شائقة مفعمة بالإثارة.

ساندرز لن يشذ عنهم، مثلهم كان، يبحث عن مغامرة براقة وزائفة. /

ساندرز ـــ / إقامتي في فندق السان جورج كانت محطة مثمرة، من البار استطلعت أجواء العاصمة السورية. أدهشني أوستن بسعة اطلاعه على الأوضاع السياسية في المنطقة: خلافات العائلات المالكة في السعودية والأردن، تبذل الملك فاروق وبطانته في مصر، الخفايا الداخلية لأمراء الخليج المولعين بالخيول والصقور، الحكومات الجمهورية الفتية وشعوبها الهرمة التي ما زالت تحن إلى أزمنة الإمبراطوريات الإسلامية الغابرة. وركّز على السوريين، مناورات سياسييهم المتشبثين بالحكم ومؤامرات رجالاتهم القابعين في الظل، مع تفاصيل عن تقلباتهم وطرائف عن أهوائهم.

بعد جلاء المسرح السياسي، باتت خطتي الواضحة في نيويورك، مشوشة في بيروت، ولها محاذيرها، أثبتتها تجارب أوستن القليلة والمحدودة مع السوريين. وإذا كان قد وصفهم بأنهم ذوو مزاج يميل للسير في الاتجاهات الخطرة، فقد وصف إدارة الشركة بالجهل لاختيارها رئيس الوزراء السوري طرفاً أكيداً. /

أوستن ـــ / رئيس الوزراء السوري رجل دولة مخضرم، وأيضاً رجل قانون، حرصه مبالغ فيه وحساباته مشغولة بالمستقبل وحذرة؛ هي في الوقت الحاضر، مزايا تقيده وتعرقله، وفي

حال أراد الإقدام على خطوة جريئة، فلن ينجح، إنه كرئيس مستقل مرتكز على توازن دقيق، يستند إلى وزارة باهتة وأقلية برلمانية لا ملامح لها، وغالباً متلونة، وإذا تمكنت الشركة من التوصل معه إلى اتفاقية، فلن يستطيع تقديمها إلى البرلمان في فترة معقولة، بل سينتظر فرصة مواتية ستتأخر كثيراً، وقد لا تأتي، الأحزاب لا تدعمه وتترصده على هفوة، وستكون هذه هفوته، إنه جاهز للحرق في أية لحظة، وسوف يحترق معه مشروع أية اتفاقية. /

ساندرز ـــــ / رَجَّحتُ، كبداية، الحصول على اتفاقية تعرض على البرلمان وتتولى الشركة الباقي. كان رأي أوستن أننا سنتحمل وبالكامل مهمة تذليل معارضة النواب. والمشكلة ليست في أن ندفع، وإنما لمن سندفع، لهـذا، أم لـذاك، أم...؟! كنت أعرف أن المعارضة سواء في البرلمان أو الصحافة عقبة فعلية، لكنها لن تكلف الشركة أكثر مما كلفت آرامكو التي دفعت لرجال الحاشية السعودية، أو حتى الشركة الإنكليزية التي اشترت رجال البلاط الإيراني، بل أقل. أما لمن سندفع فلن تكون هناك أحجية. /

أوستن ـــــ / في اليوم التالي وردتني تعليمات الوكالة، مختصرة ومحددة: الفرنسيون سيتعاونون معك. عدم الربط بين مصالح الشركة والحكومة الأميركية. إتمام المهمة بأقصى سرعة قبل أن تبدأ الخارجية تحركها السياسي في الشرق الأوسط. ألّا يؤثر تدخل الوكالة سلباً على النفط. تعاونْ مع الإنكليز إذا اضطررت وبحذر. الحكومة السورية غير مؤهلة لعقد اتفاقية مضمونة لأن الجيش سيناوئها.

وجدتها متناقضة، إذا كانت السرعة هي المطلوبة فلا بديل عن الحكومة القائمة، وإذا كان المطلوب اتفاقية ملزمة فلا بديل عن الجيش. ولنفترض أن الحكومة تمكنت من تمرير الاتفاقية في البرلمان، عندئذ من سيضمن الجيش؟! على الأغلب، لن يكتفي بالوقوف متفرجاً بل سيسقطها. الجيش أشد تطرفاً من أية حكومة مغالية، إنه سيد اللعبة في سورية، لا أحد يستطيع تنحيته جانباً، أو تحييده.

كان عبء العمل بالكامل قد وقع على عاتقنا، والأوضاع السياسية لم تكن ملائمة. الفرنسيون كانوا مرفوضين من السوريين لأنهم لم يزودوهم إلا بكمية تافهة من البنادق والمدافع الرشاشة، في حين باعوا الإسرائيليين طائرات الميستير الحربية، والإنكليز مكروهون لتدخلهم في الشؤون السورية الداخلية بواسطة السياسيين العراقيين. /

ساندرز ـــ / اقترح أوستن القيام بفتح قنوات مع الجيش. رفضتُ الاقتراح متعللاً بأنه لا يدخل في خطتنا الحالية. في الحقيقة لم يكن هذا العمل المبكر جداً على قائمة أولوياتي، كان سابقاً لأوانه، ليس بوضع الجيش بالحسبان وإنما بتنويع مهمتي بإجراء اتصالات مع ضباطه. كنت مرتاحاً للقرار الذي تبنته الشركة، الدخول في مفاوضات مع الحكومة السورية وتأمين اتفاقية رسمية ملزمة، هي في المستقبل أرسخ وأقوى من أخرى تبرم سراً مع الجيش، إن سريتها ستضعفها. كانت مشكلتي الآنية كسب الوقت للحصول بأقل زمن ممكن على امتياز للتنقيب، بتقديم عرض جيد، يفاجئ المستثمرين الآخرين، ويفقدهم ـ في حال انتشار الخبر ـ القدرة على المنافسة. كنت في وضع لا أحسد

عليه، ففيما كان عليَّ ألا أُضيِّع ساعة واحدة طوح بي رئيس الوزراء أسبوعاً كاملاً.

كي لا أبدد الوقت سدى، طلبت من أوستن أن يدبر لي لقاء مع غوبلان، هذا اللقاء كنت أنوي السعي إليه حين وصولي إلى دمشق لأسأله بعض المعلومات. كان ميشيل غوبلان الشخص الوحيد الذي استدل على وجود النفط السوري، دليله؛ القار المتسرب من باطن الأرض، وهو دليل متداول وموثوق به جزئياً، على غرار ما يكتب عن اكتشاف النفط في الصحارى، حيث البدو الرحل يستعملون القار في طلاء خيامهم منعاً لنفاذ المطر، ويستطيع أي كان اللغو به. من رأى هذا غيره؟! وهل مستنداته التي لم يطلع عيها أحد كافية؟! كان ذلك النزر الضئيل من الأدلة الذي اعترض عليه جيولوجيو الشركة، مقبولاً من الإدارة بحجة أن غوبلان احتفظ بمعلوماته سراً ليساوم عليها، بعد أن قدمها لسفارته التي نقلتها إلى سلطات بلده، وقدرت تكاليف عمليات التنقيب بأكبر من إمكاناتها. قَدَّمَ الفرنسيون معلومات غوبلان إلى الشركة على أساس المشاركة الجزئية في التكاليف مع تعاونهم الكامل من غير الظهور على الواجهة، وبشرط إعطائهم حصة من النفط السوري، لم توافق الشركة على العملية إلا بعد استشارتها للحكومة الأميركية التي وعدت بالضغط على الإنكليز بعدم القيام بأي تحرك مضاد، على أن يشركوهم بشيء فيما بعد. /

أوستن ـــ / لم يتفقوا معنا للتخفي وراءنا أو لتقاسم التكاليف والحصص فحسب بل لأسباب أخرى، لولاها، من المستحيل أن تتورط ثلاث دول لمجرد دليل مقبول أو معقول. كانت العملية كبيرة جداً، لم أكن متأكداً سوى من شيء واحد، أنه في هذه

المرحلة، الجميع متفقون على ألا يكون النفط محل تنازع سافر. /

ساندرز ـــــ / كيف أبدأ مفاوضات عملية بناء على نفط لم تتوفر له إثباتات مادية، وإنما معلومات لم تخضع للفحص، سوى أن الفرنسيين متأكدون، حتى أنهم لم يتوخوا تعزيزها بوثائق؟! وهذه الوثائق يتحفظ عليها شخص واحد، إذا اختفى فسوف تكون بحكم العدم!!

كان لا مهرب من لقاء غوبلان. /

أوستن ـــــ / لم يتفهم ساندرز وهو ينتظر موعده في دمشق، أنه في سبيله إلى التعامل مع بلد يجهله ويظن أنه يعرفه، وسوف تعوزه المرونة الكافية لتبديل وسائله تبعاً لمستجدات، غالباً ليست بالحسبان. اعتقد ساندرز وكأن ثمة تطابقاً بين مهمته هذه وما شارك به من مباحثات مع السعوديين حول الأسعار والضرائب، نصحته ألا يعير اهتماماً كبيراً لخطط مسبقة وضعت في نيويورك والتكيف بسرعة مع أوضاع جديدة ومغايرة، لكنه أساء الفهم، ظن أنني مكلف بتسهيل تنقلاته واتصالاته معتبراً نصائحي آراء مجانية، يأخذ بها أو يرميها خلف ظهره. كانت مهمتي تتعدى نصحه إلى توجيهه للعمل على نحو فعال بإطلاعه على القوة الحقيقية في سورية./

ساندرز ـــــ / تَوَقَّعَ أوستن مجيء غوبلان في غضون يومين، وربما بدا لي التجول في أسواق بيروت القديمة متعة لا تفوت،

لكنني لم أسارع مبكراً إلى بيروت لأتسلى. استعنت بموظف الاستقبال في الفندق وسألته عن عنوان المقبرة الإنجيلية، أجرى عدة اتصالات ثم طلب سيارة أجرة أعطاه العنوان، في طريقي توقفت عند بائع ورود واشتريت أربع زنابق بيضاء.

في المقبرة، لم أبحث عن قبر قدر ما بحثت عن رجل شاحب الملامح بعينين كسيرتين وشعر رمادي اللون، تخيلته دائماً قابعاً في انتظاري بين خطاة ومظلومين وأرامل ومعلولين، عثرت عليه دونما صعوبة تذكر بين الأموات، مسجى تحت رخامة مصقولة، محفور عليها: إرنستساندرز ١٨٨٥ ـ ١٩٢١.

أُغرِمَ أبي إرنست ساندرز، بالفتاة ملاك الرحمة ذات الرداء الأبيض، وربما لبياضها أغرم بالزنبق الأبيض. قَدَّمَ أبي للفتاة المهمومة بالمآسي، زنبقة بيضاء في أول موعد عاطفي. تتذكر أمي، والتي كانت الفتاة شارلوت، أن رائحة الزنبقة أدارت لها رأسها وأسقطتها بين ذراعيه. وتتذكر، أنه قبل أيام، لم يكن هذا الذي فاتحها بحبه سوى شاب ببذلة سوداء وياقة بيضاء، في حوالي الثلاثين من عمره، غضاً عفيفاً ومتديناً، ذا عبق سماوي. شارلوت التي نذرت روحها ودموعها للمرضى والمعوقين، منحت حياتها للشاب قوي البنية وسليم الجسم.

وضعتُ زنبقة على الرخامة «هذه من شارلوت» فالثانية «هذه مني، أنا جاك» الشمس حادة وخانقة «شارلوت لم تنسك» استعدتُ ملامحه من صورة فوتوغرافية التقطها مصور أرمني في صيف ناعس ودبق، كانت البهجة البريئة بادية على وجهه.

توقعتُ أن أجد على مقربةٍ قبر «كارل بيردي». كان بيردي بعد

موت أبي قد اعتقد أن الموت سيسارع إليه، فأوصى في ذلك الوقت بدفنه إلى جوار صديقه. لم أعثر على رخامة تحمل اسمه، التربة إلى الجانبين فارغة وملساء.

لم تنقطع رسائل بيردي ولسنوات طويلة عن شارلوت، قبل ثلاث سنوات، كتب في رسالته الأخيرة: باتت آلام العيش تفوق آلام النزع، سأشد الرحال إلى مكان أرقد فيه رقدتي الأخيرة. ولم يصل إلى مضجعه بعد!!

وَسَّدتُ الزنبقتين فوق قبر أبي «هاتان من بيردي». /

3

أصرَّ ساندرز على لقاء غوبلان بأقرب وقت وبأية وسيلة. تحت إلحاحه، طلب أوستن من السفارة الأميركية بدمشق إبلاغ غوبلان بالقدوم إلى بيروت. أبرقت السفارة: السلطات السورية أنذرت البعثة بمغادرة سورية. السفارة الفرنسية امتنعت عن التدخل. انتظرْ. سنرتِّبُ لك موعداً عاجلاً مع غوبلان.

أوستن ـــ / كان قرار رئيس الوزراء عقاباً لغوبلان، لأنه لم يبلغهم بمعلوماته، ومؤشراً إلى أنه سيتشدد في المفاوضات. لم يعد يرجى من رئيس الوزراء تجاوب بعد أن أبدى نواياه بمماطلة سفيرنا في دمشق وإيقاف عمل البعثة. قلتُ لساندرز تأيدت مخاوفنا، عليك أن تختار بدقة ومن غير تراجع الفريق الذي ستتعامل معه. /

ساندرز ـــــ / غاظني الفرنسيون، بالغوا في التستر وتنكروا لرجلهم، متناسين أنهم سيحامون عن منقب آثار وعالم معروف وليس عن جاسوس. كذلك، رئيس الوزراء السوري لم يكن أقل قسوة ولا تعنتاً، لم يكترث بالنفط، وأبدى انزعاجه منا، نحن الأميركيين، تصرفنا إزاءه بثقة مفرطة، أعلمناه بالنفط من دون تكتم مصادرنا، أردنا أن نبدو قادرين وما نخفيه أعظم، وكأن زمام النفط بأيدينا، كانت عجرفة مست كبرياءه، فرد علينا بعجرفة مقابلة، مؤكداً أن زمام النفط بأيديهم وبأراضيهم. /

في الصباح التالي، تسلم أوستن خبراً طازجاً من السفارة بدمشق: لم نتمكن من الاتصال بغوبلان. السفارة الفرنسية لا تعلم عنه شيئاً. مصدر في البعثة أكد أنه في بيروت. السفارة الفرنسية في بيروت أكدت الخبر، وحددت مكان إقامة غوبلان.. في فندق النورماندي.

أوستن ـــــ / سألتُ السكرتير دولمونت أن يجمعنا بغوبلان، اعتذر بأن السفير لا يرغب في أن يكون صلة وصل بيننا وبينه، وعلينا الاتصال به مباشرة. كان واضحاً أن السفارة سلمتنا غوبلان لإرضائه بشيء ما، كيّ لا يغادر من دون الحصول على مقابل لأتعابه، وفي الوقت نفسه، يتظاهرون أمام السوريين بأنه لا علاقة لهم به ولا بارتباطاته. /

دولمونت ـــــ /

: صارحني السفير بأن الأميركان وفَّروا علينا حرج إبلاغ غوبلان

بالحقيقة، الخطوة التالية هي اختفاؤه برحيله إلى فرنسا بعد أن يفضي بمعلوماته إلى ساندرز، وهكذا تركنا الساحة للأميركان./

ساندرز ـــ / أوحى لي أوستن بأن غوبلان رجل الفرنسيين وعميلهم السري في سورية، وأن سفارته أفهمته بعد انفضاح أمره بنقل ولائه إلينا وعلى المكشوف. عندما اتصلنا بغوبلان في فندق النورماندي، حدد لنا موعداً في غرفته من غير أن يستفسر عن هويتنا. حين اجتمعنا به بالغ أوستن في احتياطاته، قدمني إليه بصفة رجل أعمال أميركي وقدَّم نفسه على أنه مساعدي. بادرنا غوبلان بالحديث وبثنا همومه عن البعثة المتوقفة أعمالها، كان فاقداً الأمل بإصلاح أموره مع السوريين، ومؤجلاً كل شيء إلى حين الموافقة على بقائه في سورية. هدأته بفرنسية سيئة، ويبدو أنها كانت ملتبسة. /

كاد الحديث أن يمضي على هذا المنوال، غوبلان يشكو وساندرز يواسيه، مع سوء تفاهم أخذ يتفاقم. غوبلان ظن ساندرز رجلاً ثرياً من هواة جمع التحف والآثار، علاقاته قوية بالصحافة، ويرغب في الاطلاع على نتائج حفرياته. وظن ساندرز أن غوبلان يُنفِّس عن ضيقه بالشكوى من العراقيل السورية.

أخطأ ساندرز؛ كان غوبلان يُهدد السفارة الفرنسية بفضح أساليبها الملتوية في التخلص منه ويطلب مساعدة الثري الأميركي الذي وافقه على ما قاله.

عندئذٍ تدخل أوستن مترجماً بينهما، مصححاً المسار، ومفاجئاً غوبلان بأن السفارة الفرنسية أرسلتهما بديلاً عنها. فاجأهما

غوبلان بدوره بأنه لا يعرف بأمرهما، ومع هذا استرسل في تبيان متاعبه. بدا لأوستن أن غوبلان لم يثق بهما ويخادعهما صارفاً أنظارهما عن النفط إلى الآثار والحفريات. وريثما يثق بهما، لا غنى عن هذا اللغو المتعب.

بيد أن غوبلان وهو يلهج بمشاكله دون تركيز، ضاع، لم تعد حالته المشتتة بحاجة إلى ترجمة، لاح شبه منهار، وسيفقد عما قريب جزءاً آخر من عقله، عندما يعلم أن سفارته قد أغفلت إبلاغه بأنهم نفضوا أيديهم منه.

أدركه أوستن وبفرنسية واضحة:

«لدى المستر ساندرز المقدرة والوسائل على إقناع الحكومة السورية بالتراجع عن قرارها».

صفا وجه غوبلان، فيما أكمل أوستن:

«لكن بعد إحراز تقدُّمٍ في المفاوضات».

«أية مفاوضات؟» تساءل غوبلان.

لم يُفوّت أوستن جواباً ربما وفر عليه عدة أسئلة.

«المستر ساندرز يعمل في مجال النفط».

«النفط؟!!».

تابع أوستن قبل أن يَضِيعَ غوبلان ثانية:

«لا تأبه بشيء سيعوضك عما أصابك، حالياً اعتبر تكاليف إقامتك

في النورماندي مهما طالت، مع المصاريف الأخرى، مدفوعة».

«هل ستطول؟!».

«حوالي شهر.»

وقبل أن يطلب غوبلان تفسيراً، اشترط أوستن عليه أن تقتصر علاقته من الآن فصاعداً على المستر ساندرز، وأن تنقطع علاقته المقطوعة أصلاً مع سفارات بلده. لم تتأخر إجابة غوبلان:

«مهما كان كنه علاقتي ببلدي فلن..».

«لا تتعجل، قد أسحب عرضي».

تابع غوبلان بإصرار:

«لن أستبدل بها أي علاقة مع أي بلد في العالم».

«أعطه مهلة يفكر فيها حتى الغد».

ترجمها أوستن لغوبلان، وأضاف إليها:

«ويسألك المستر ساندرز التأكد من سفارتك».

كان لا بد من مساهمة الفرنسيين بشيء قبل أن ينسحبوا نهائياً.

دولمونت ـــــ /

: عاد غوبلان في اليوم التالي واستفسر عن رجعته إلى سورية. قلت له، لم نتسلم رداً بخصوصك بعد. نصحته بعدم العودة

وارتأيت عليه الاتصال بمعاونه جان كرو كي يتولى الإشراف على ترحيل البعثة بالنيابة عنه. رفض وعاتبني بحدة، وكان محقاً، البارحة توقع مجيئي إلى الفندق لا أن أرسل إليه رجلين أميركيين، أحدهما يدعى ساندرز قدم نفسه بواسطة مساعده على أنه رئيسه الجديد وساومه على عودته إلى سورية.

انزعجت من فجاجة ساندرز، ولم أكذب ما سمعه منه، بل ونفيت أن يكون في تعاونه معهم عمالة لهم. أصابه الذهول، بدا نقَّاباً حقيقياً، طالعاً لتوه من حفرة عميقة ومظلمة، جهد في تسلقها وأعشت الشمس عينيه. أتذكر أن كلماتي أرتجت عليه، أرخى رأسه ولبث مطرقاً إلى الأرض. سألني، ما الصواب؟! هتفتُ غاضباً، لا تسألني عن الصواب. ثم تمالكتُ أعصابي: الأمر أيسر مما تظن، قدمت لنا بعض المعلومات، حسناً، الخارجية تطلب تقديمها كاملة إلى ساندرز. وبدلاً من أن يتقرَّى موقعه الجديد، تشبث بموقفه وجابهني بأنه لا يعرف شيئاً عن النفط، ولم يكن مقنعاً البتة. عاودتُ: إنه عمل يجب أن ننتهي منه كيفما اتفق، الخارجية تصر على مساعدتهم كما لو كنت تساعدنا. أجابني بمرارة، إن الفكرة التي خامرته وندم عليها هي، لم لا تكون الأسبقية لفرنسا؟! قلت له، الندم لا معنى له، ما سيقدمه لهم سيكون وكأنه يقدم لنا. دمدم بصوت خافت، لقد أخطأتُ خطأ شنيعاً. ولم يعد راغباً في النقاش. شرحت له: لنقل إن هناك تفاهماً حول النفط السوري، وهذا النفط لن يستثمره بلد واحد بل بَلَدَان أو أكثر، سوف نتقاسمه، نحن نتوقع تنافساً حوله ونريد التحكم به مع شركاء أقوياء. رَدَّ كأمر منته: أنا أعمل في مجال الآثار. قلت له، لكنهم طردوك. أجاب حانقاً، أنت تعرف السبب. ولم يتزحزح عن موقفه. كان عناده مقيتاً، جعلنـي أخرج عن طوري.

: أتذكرُ أنني قلت له، غوبلان، اسمع، نحن الذين ننقب لهم عن الآثار وننقذها من الفناء، ونستخرج لهم البترول، وندفع لهم الأموال، أموالاً ضائعة، يبذرونها على النساء والقمار والويسكي والرفاهية المقززة، وكل ما تحظره عليهم شريعتهم الإسلامية. أشكّ في أنه سمعني، لم يكن بحالة طبيعية تسمح له باستيعاب ما أقوله. أخذ يجمجم غاضباً، تارة يدافع عن نفسه ويلومها، وتارة أخرى ناقماً على الأميركيين وفرنسا والخارجية، خجلاً من عمر قضاه في الحفريات. مشيراً باستياء مرير إلى صحبتنا القديمة. سألني، وأدركت من ملامحه، أن جوابي سيحدد مستقبل صداقتنا: هل أنت موافق على ما يطلبونه مني؟ كان في سذاجة سؤاله حقيقة لم أرغب في التفكير فيها، وامتحان عقيم لنوايا لم تكن نواياي، كنت في مأزق ومرغماً عليه، وهو في مأزق أوقع نفسه فيه، ويستطيع الخروج منه سليماً بلا خسائر، دون أن يدري أن الأمر بات يتعداه ويتعداني. نبهته مشفقاً: ساندرز هو الوحيد القادر على معالجة مشكلتك. نهض كالملسوع: سأعرض موقفي على السوريين.

: للأسف، اتخذ السفير قراره بالتضحية بغوبلان، وقمتُ بإبلاغ أوستن بأن لا جدوى من العمل على إعادة غوبلان إلى سورية، إلا إذا أراد أن يعقد أموره هناك./

ساندرز ـــ / بعد أخبار دولمونت السيئة، توقعتُ أن مقابلتي مع غوبلان ستكون قصيرة وصاخبة إن لم تكن خاطفة وعاصفة. كان لا مفر من محاولة جديدة وعرض مغرٍ، تداولت مع أوستن واتفقنا على أن نكون البادئين بالكلام حين اجتماعنا بغوبلان، لئلا يتسرع مفسداً عرضنا قبل سماعه./

طالعهما غوبلان جالساً في بهو النورماندي، نظر إليهما بسكينة، احتلّا مكانين إلى جانبيه. رد على تحيتهما. لم يكن متوتراً. تفاءل أوستن.

«يقول المستر ساندرز، إنه خلال عمله في منطقة الشرق الأوسط، التقى برجال مهمين ومتنفذين في بلدانهم، من بينهم مستشارون أمناء في حكومات ملكية، شكلت انتقاداتهم لاتفاقيات النفط قلقاً للشركات العاملة على أراضيهم، وكادت أن تؤدي إلى خلافات ومضاعفات تكلفهم خسائر ضخمة. إنهم عندما يخسرون فإن خسائرهم تحصى بمئات الملايين، لكن تسنى لهم بعد جهود يسيرة شراء صمتهم إن لم نقل تأييدهم بملايين قليلة. إن المستر ساندرز يترك لك تحديد المبلغ الذي تراه مناسباً، ويجلب نظرك إلى أن تعاونك معهم لن يقل ثمنه عن صمتهم، وكي تضمن تعهده لك، فإن سفارتينا ستكفلان اتفاقكما».

أيقن ساندرز أنهما زجا بغوبلان في حالة تفكير متأججة، وإذا لم تمنعه الملايين من الرفض فسوف تشوش له تفكيره. لكن غوبلان لم يفكر. قال:

«مشكلتي مع حكومتي، لم تتفهم ما قدمته لها ولماذا؟ لم تحاول، لقد خدعتُ. قل للمستر ساندرز، إنني يائس».

«يقول المستر ساندرز، إن اليأس مبرر ممتاز كي تفكر في عرضه بروية، لا تعطه جوابك فوراً، بوسعه الانتظار يوماً ويومين..».

«أجهل إلى أين سيقودني يأسي».

«لقد دفعوك إلينا، دعنا نتولى أمرك».

بدا مستسلماً لخواطر ينوء بها، تتلامح متقلصة على وجهه. ماذا تكون تلك الخواطر؟! بادر أوستن مرجحاً طرفاً منها.

«نحن نتكلم عن مكسب متعارف عليه، مكسب نظيف».

نهض غوبلان محتقن الملامح، فارقهما دون كلمة. زمجر أوستن، يا إلهي ما أحمقه!! لحق به وأدركه عند المصعد.

«مسيو غوبلان، يتمنى المستر ساندرز، لو أنك تغير رأيك وتتخذ قراراً صائباً، إذا حدث، فبإمكانك الاتصال به في فندق السان جورج».

حينما عاد إلى ساندرز قال له:

«في انتظارك مساومة مضنية، التذرع بالنزاهة ثمنه باهظ جداً».

ساندرز ـــ /ترفَّع عن عرضنا ببلادة غير معقولة، تهيأ لي أن لديه عرضاً من الروس أو من شركة إيطالية، إذا أفسحنا له المجال للمفاضلة بيننا وبينهم، فسوف يُتعبنا رغم أنهم لن يصمدوا أمامنا./

أوستن ـــ / الروس آخر من يعلم، وآخر من يتحرك، رجَّحتُ

الإيطاليين، إن كانوا هم فعلاً، فعلى التأكيد لم يكن تردد غوبلان على سفارته سوى تعمية ذكية. لم أتركه، كلفت عميلاً محلياً يعمل سائق سيارة أجرة بمراقبته./

لم يغادر غوبلان الفندق مساء. غادره في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي. اتخذ وجهته صوب ساحة البرج، ومنها إلى سوق الخضرة، مرّ بجوار سينما كريستال، وتوقف قبالة سينما الغران تياتر في رأس شارع المعرض. تمشى حتى السوق العمومي، كان ساهماً، تنبه إلى امرأة أطلت من مدخل أحد الأبنية بروب النوم، على خديها وشفتيها آثار أصبغة، دعته للدخول، حزر موقعه، هرول مبتعداً صوب طريق الكورنيش، جلس على مقعد حجري محملقاً في البحر والزوارق الصغيرة. عاد إلى الفندق، لم يدخله، لبث أمامه يذرع الرصيف، ثم تابع باتجاه باب ادريس، وأكمل إلى محطة جراهام فشارع بلس. انتظر الترام مقابل مخفر حبيش، غيّر رأيه وأخذ يتفرج على واجهات المحلات، ألبسة وحلاقين وباعة جرائد. تناول طعامه في مطعم الأنكل سام. استأنف فرجته على واجهات المحلات، استلفتت نظره صحون القشدة بالحليب مع الفريز في مطعم فيصل، اشترى واحداً، تذوقه ولم يعجبه. ركب الترام من موقف الجامعة إلى آخر الخط. سار في طريق المنارة. استراح في مقهى الدولشي فيتا، احتسى فنجان قهوة. انطلق إلى صخرة الروشة، أطل متأملاً شاطئ الرملة البيضاء. لبث طويلاً، ثم تذكر شيئاً، استقل سيارة أجرة إلى مبنى البريد، كتب رسالة، ضم إليها أوراقاً أخرجها من جيبه الداخلي، وضعها في مغلف واحد، أرسله مسجلاً، رجع إلى الفندق حوالي التاسعة مساء.

دولمونت ـــــ /

: أعلمني أوستن بتنقلات غوبلان، وهي برمتها تفصيلات أمينة وتافهة لرجل يتسكع على غير هدى. أوستن كان على يقين بأن غوبلان على موعد مع شخص، على الأغلب ممثل شركة نفط إيطالية، حدد له عدة أماكن للقائه، انتظره غوبلان أمام سينما الغران تياتر وعلى رصيف الكورنيش ومحطة الترام في شارع بلس ومقهى الدولشي فيتا. الشخص لم يأت أو أتى ولاحظ أن غوبلان مُراقب فلم يقترب منه. وإلا هل يتمشى طوال النهار دونما هدف؟! عقبتُ مازحاً: نسيتَ صخرة الروشة، لقد أطال وقوفه هناك. ردّ ساخراً بأن مخبره أحس بالهلع، خاله سيرمي نفسه في البحر. جاريته ضاحكاً بأن غوبلان لن ينازع اللبنانيين على تقاليدهم.

: لم يخطر لي شيء من هذا القبيل على الإطلاق، خطر لي أنه اغتنم فرصة قدومه إلى بيروت وقضى نهاره متجولاً فيها، أتصور أنها جذبته بطابعها المودرن وأجوائها الخفيفة وشوارعها النظيفة، فنادقها الأنيقة ومقاهيها وكباريهاتها، وتسمياتها الفرنسية والإنكليزية: ويغان، الكيت كات، جان دارك، جراهام، الليدو.. ولاسيما أسواقها، سوق الخضرة والسوق العمومي أشبه بسوق الهال وحي بيجال. بيروت لا تعدو إلا تصغيراً لطيفاً لمعالم غربية، حتى بيوتها الجميلة مبنية على الطراز الإيطالي، بينما ملامحها العربية تتبدى كلمسات حاذقة وخاطفة في المطاعم والمقاهي المحلية والأسواق الضيقة المسقوفة، والريفيين القادمين من القرى والجبال بأزيائهم المنتفخة ولهجاتهم الممطوطة وشواربهم المفتولة. /

طلب أوستن من المخبر البقاء في النورماندي حتى منتصف الليل، والعودة صباحاً ليتابع المراقبة. كان تقديره أن غوبلان لم يتقدم خطوة واحدة على الطرف الآخر، وربما دفعه إخفاقه اليوم إلى الارتداد إليهم صاغراً. أكد على ساندرز أن يلزم غرفته.. غوبلان قد يتصل بك الليلة.

صباحاً، رن الهاتف، رفع السماعة متثاقلاً ومتفائلاً، حسب أن ساندرز تلقى مكالمة من غوبلان ليلاً ولم يشأ إيقاظه منتظراً الصباح ليعلمه. سمع صوتاً لم يكن صوت ساندرز.

«مستر أوستن.. مستر أوستن»

تَميَّزَ صوت المخبر ملهوجاً، ظنه الخبر الذي سيزعجه: الإيطاليون في بيروت وراء النفط. حبس أنفاسه، وخرج صوته أجش:

«أوستن يتكلم».

«انتحر غوبلان».

ظن ثانية أن المخبر قال شيئاً مختلفاً، أو أنه أخطأ الكلمات العربية اللعينة التي قيلت متعثرة ومندغمة، أو ربما بسبب صخرة الروشة المشؤومة، كأنه هجس بها في أحلامه. همهم بحذر، مفسحاً لنفسه فاصلاً وللمخبر مجالاً ليعيد ما قاله بروية.

«هل تسمعني؟! انتحر غوبلان».

تلقفها كما نُطقت واضحة جداً دونما إبهام.

«مستحيل» رد مستنكراً.

«ما المستحيل؟!».

«يجب ألا ينتحر». انزعج، لأنه، وبغباء، نفى ما حدث، لمجرد أنه لم يدرجـه في قائمة مخاوفه.

«لقد رأيته قبل دقائق ميتاً».

كانت الفكرة التي سخر منها البارحة، قد غافلته وارتدّت تسخر منه اليوم، بمفاجأة، تفوق مفاجأة المخبر الذي استغرب رؤية عمال الفندق يتراكضون نحو المصعد، والنزلاء القلائل يتخاطبون هامسين في البهو. التقط من الهرج المرتبك الذي ساد على حين غرة، أن النزيل الفرنسي في حالة خطيرة. اندفع صاعداً الدرج إلى غرفة غوبلان، تسلل بين المتزاحمين أمام الباب، ورأى الفرنسي الذي تعقبه طوال اليوم الفائت، طريحاً على الأرض، فاغراً فمه وعينيه، ومراقاً دمه، ورجلاً منحنياً فوقه يرتفع عنه ويعلن وفاته منتحراً بقطع شرايين يده.

دهمت ساندرز الكآبة ولم يتفوه بحرف لحظة سماعه الخبر فيما كان أوستن على الطرف الثاني يرمي غوبلان بالجنون، ويرغي ويزبد متشدقاً بحدسه الذي لم يخنه، ثم يضرب له موعداً بعد نصف ساعة في بار السان جورج. أغلق ساندرز السماعة، شرد وزاغ بصره، تبين بصعوبة غوبلان خلال لقائهما الأخير، مثله، شارداً وزائغ البصر. يتفحصه الآن واجفاً وبقلق، ويتميزه فاقد الأمل فعلاً ويائساً تماماً، بشكل لا يدع مجالاً للخطأ؛ ها هو، في النورماندي، طريح يسبح في دمه، يبرهن بموته على يأسه، بشكل لا يدع مجالاً لأي أمل.

ساندرز ـــ / ما كنه تلك الأقدار الغامضة التي ترسل امرأً إلى الموت، منتحراً في فندق، أو مريضاً بمرض لا شفاء منه في مستشفى، فوق أرض مهما كان شغفه بها، لن تكون وهو يلفظ أنفاسه سوى أرض غريبة، موحشة ومتوحشة، تودعه وداعاً شحيحاً بالغ البرودة على كرم كان بلا حساب ومفرط السخاء؟!

ما النداء الذي سمعه غوبلان وقاده إلى حتفه؟!

لا، ليس هو النداء نفسه، الذي سمعه إرنست ساندرز وكارل بيردي، عشية ذلك اليوم الطويل، في باحة معهد أندوفر، بعد أن أنهيا دروسهما وأنجزا صلواتهما. تمشيا يستعيدان شروحات لوثر على سفر المزامير، ويترنمان بتسابيح صلوات الاستغاثة والحمد [يا ربِّ، أعلمني أجلي وما طُول أيامي، فأعرف ما أشد زوالي] إذ هدر الصوت كقصف الرعد، قادماً من وراء البحار، يحمله الموج عالياً، وتقذفه العاصفة فوقهما وبينهما، مشتتاً شملهما. يتناديان قانطين [ما الإنسان القائم إلّا هباء، ما الإنسان السائر إلا ظل، وما الخيرات التي يكدسها إلا هباء] يلتصقان ببعضهما، ويبتهلان للرب [أرسلْ نورك وحقك فهما يهديانى، إلى جبل قدسك وإلى مساكنك يوصلاني] وجواب، كنصل الخنجر يلمع؛ الله يناديهما، الخوف والفرح أسال دموعهما، الله يفيض بنعمته على المختارين. يركعان ويسجدان حمداً للرب، الله اختارهما وباركهما بنوره. تفتحت عيونهما، أبصرا النور بنور الله: ربِّ اجعلنا خليقين بدعوتك إلى الأراضي المقدسة.

أو، ربما، كانت الدعوة صدى لحوار دار في دخيلتيهما، اعتلجت

به أفكارهما البريئة، وفاض به عبير المساء بصوت مدوٍّ، يهيب بهما، تخليص أرض الإنجيل من المسلمين المتخلفين.

لم يعلما أنهما نذرا نفسيهما لدرب الآلام والخيبات.

أبحرا من ميناء بوسطن، ووصلا في يوم شهدا ولادته على الأرصفة والمستودعات، يتسلل على السطوح وجملونات القرميد، فوق المراكب والبواخر والأشرعة، يتخلل سديم الفضاء إلى أديم الماء، ساطعاً بالألق والسلام. وشهدا ولادة روحيهما ثانية على شاطئ، كانت بيروت على كتفه غافية، تتململ بحركة رتيبة، أخاذة وواهنة، الأحلام تهدهدها والنسيم يرنق على صفحتها. ثم، لا شيء، مجرد لا شيء يمتد جنوباً، إلى أراض تمتلئ عظمة ومجداً قديماً، الريح تحمل رحيق فردوسها عبر فيافي خالية، هائلة المساحة، مقفرة، إلّا من مسٍّ القداسة.

وأسبغا على اللا شيء نقاء ضميريهما وصفاء سريرتيهما.

توقفا في الميناء الذي هبطا إليه، ولم يتابعا سفرتهما المرسومة في أندوفر، كان الله قد رسم لهما بيروت محطة أخيرة لأحدهما، ومؤقتة للآخر. في اليوم نفسه الذي وطأا فيه رصيف الميناء، وركبا عربة الخيل إلى الإرسالية، لم يجدا ثمة غرابة في الحديث الدائر على مسمع منهما، الحرب المندلعة في أوروبا وأخبارها التي رافقتهما من بوسطن إلى جميع الموانئ التي حلّوا فيها، وآخر أخبارها، كانت على حالها؛ قبل يومين في الإسكندرية. أما الآن، فالجديد، أن حرب أوروبا، باتت مسلطة على المنطقة برمتها، تركيا لم تعد على الحياد، السلطان أعلن الجهاد المقدس وانضم إلى الألمان، التحضيرات تتسابق استعداداً لحرب؛ كانت بعيداً على

قدم وساق، وصارت على الأبواب، وتنذر بالويلات.

دعا قساوسة الإرسالية وأساتذة الكلية الإنجيلية، صفوة المجتمع من السادة المتعلمين وأكابر الأغنياء، والسيدات الفاضلات والآنسات المهذبات، إلى التطوع للعمل في المستشفيات والمستوصفات والمدارس التابعة للإرسالية بمهمة إنسانية لا تفرق بين الأديان والأعراق، ضاربين على الوتر الحساس، الرحمة والشفقة والضمير. استنكف إرنست ساندرز وكارل بيردي عن الانخراط في أي عمل إنساني وأعلنا العصيان: لدينا مهمة دينية وحيدة لا بديل لها، الإرسالية ليست هي الله، لن نرضخ إلا لنداء من العيار نفسه.

نزلا في فندق غاسمان في باب السنطية، وبالكاد عثرا على غرفة خالية في الفندق الذي عجّ بالمهاجرين إلى مصر والأميركتين، هرباً من التجنيد أو خوفاً من الحرب. من الشرفة، لاح البحر على امتداد رصيف فندق غاسمان، وأمواجه تضرب جدران المرفأ، دعوة تضرب الفؤاد؛ منه سيأخذان مركباً إلى يافا أو حيفا، وريثما يحل موعد الإقلاع، ترددا على الكليـة يتسقطان الأخبار، وعَرَضَاً سيسمعان عن القس بيرج!! من يكون بيرج هذا؟! أهو القس دافيد بيرج الميت منذ ما يربو على عشر سنوات، والمدفون في بقعة ما بين القفار الجرداء الموحشة والسهوب الإسلامية الشاسعة؟! أم بيرج آخر تصادف وجوده في بيروت؟!

ليس هناك، أو بالأحرى، لا أحد يشبه القس دافيد بيرج، ومهما كان أو حصل، فقد نجا من الموت وظهر قبل أشهر في الكنيسة الإنجيلية، عكف على التأمل، وانكب على دراسة الكتب المقدسة، كأنه لم يشبعها من قبل ولسنوات عديدة، درساً وتبشيراً.

بعد هذا الزمن الطويل من الموت، هل يمكن تفسير بقائه حياً إلّا على أنه معجزة؟!

كان بيرج من الموجات المتأخرة للمبشرين الرواد، وكانت مآثره تروى وتستعاد في معاهد اللاهوت، أمثولات في التقوى والقدرة على التحمل والتضحية والاستشهاد. اخترق الشرق من إزمير، وجاب الأناضول طولاً وعرضاً، إلى أن هبط في حلب، ومنها تابع إلى تبريز، وأضاعوه فيها، وقبل أن ترِدهم أخباره من تبليسي كان قد عبر جبال القفقاس، ليفقدوه في كازاخستان. بعد سنوات، التقطوا خبراً عنه في باكو، ليتبخر في يريفان، بعد حين عثروا على أثر له في سمرقند، ثم في كابول، ليذوب فيها. لكن، بعد مضي أشهر كان سجيناً في استانبول، بعد سنوات ترددت أقاويل عن وجوده في مكة. ثم لم يعد له وجود.

تناقل حكاياته الرحالة والقناصل، وقوافل التجار ومعهم أفاقون ومهربون ومساجين فارون، وأيضاً؛ الكنائس التي آوته، والكنائس التي حَرَمته، والكنائس التي طردته وطاردته، ليموت في أكثر من مكان وزمان، متجمداً من البرد على قارعة رصيف، مسلولاً يبصق دماً في حظيرة، مطعوناً في خان، أو مشنوقاً في الهواء الطلق.

أليست معجزة أن يتخلص من ميتاته، ويختار بيروت من مدن الشرق كلها، يستأجر غرفة، أثاثها حشية صوف وبساط قش وقلة ماء، ويقبع على مقربة من الكنيسة الإنجيلية في محلة باب يعقوب؟! إذا لم يكن ما ألمَّ بهما في باحة معهد أندوفر مساس صرع أو لوثة خبل، ولم يخطئا أو يشتطّا في السمع، فإن بيرج لم يختر المدينة بل التوقيت أيضاً، وهما على موعد معه. هنا انتهت رحلته، ومن هنا تبدأ رحلتهما، وعاجلاً سيتم الاستلام، ويتسلمان

أمانة الرب التي يحملها بيرج وديعة لهما، لينطلقا بها.

بيرج لم يقابلهما، بعث لهما بعد ليلة ليلاء طويلة أمضياها واقفين أمام الباب المعتكف خلفه: سأراكما حالما أفرغ. فلبثا في بيروت؛ أثناءها، قتلاً للوقت والانتظار، تطوعا لعمل أوكل إليهما، الإغاثة لا الهداية.

كان الشرق في برنامج الحرب وأولوياته، ومع تقدم الحرب ستتوالى أيام الجراد وسنوات المجاعة. جراد حصد الأخضر وزرع البوار ومجاعة عجلت برفع الأسعار دون توقف وبسرعة جنونية، صار القمح يباع بالذهب من جراء جشع الموظفين الأتراك واحتكار التجار الأغنياء، أما الفقراء المساكين القادمون من الجبال والقرى فكانوا يتخاطفون الزبالة ويتنازعون على قشور الخضار والفاكهة، يأكلون مما تأكله البهائم والدواب. الجثث تتكدس في الأزقة، والأوبئة تصرع البشر بالآلاف، الذباب ينقل التيفوئيد، والقمل التيفوس، والجرذان الطاعون، والبعوض الملاريا، والمياه الزحار.

في ذلك الوقت، وفي خيمة للصليب الأحمر، التقى إرنست بالآنسة الصغيرة شارلوت سميث المتدينة الرقيقة ابنة نيو إنجلند، وتوثقت علاقتهما عندما شاركا في خدمات المطاعم الخيرية الشعبية التي أقامتها الإرسالية من التبرعات التي جمعتها الكنائس في أميركا. وسيشتد عودهما وتتحطم أفئدتهما بين الأرتال المتدافعة والجائعة، والوجوه الغائرة، المخددة بالجفاف، الغاطسة في طاسات الشوربة والبرغل، يلعقون قعرها إلى آخر لحسة فيها، ولا يتورعون بعد تناول وجبة طعامهم عن سرقة كسرة خبز يابسة مهما صغرت.

ستبقى شارلوت متدينة ورقيقة طوال عمرها، ولن تندم أبداً على أنها عشقت الشاب السخي القلب الذي لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره، جذبها إليه ألق روحه، ومضاء عزيمته، وعينان تشعان إيماناً أعمى وتضحية عمياء، ونظرة جديرة برؤية خارقة.

عاوده الأمل قوياً، بعد زواجه بشارلوت، التي لم تحبه فقط بل وامتثلت لحلمه المقدس: القدس. أما الحرب التي كانت تمضي قدماً إلى الأمام، فقد أخذت تنحسر وبعد وقت لم يطل، قاربت على الانتهاء، وبذلك شارفت القدس على أو دنت أو أنه كان يقترب منها.. في حين كانت تبتعد، أو أنها باتت بعيدة جداً، إلى حد أنه لن يراها أبداً.

شغلتْ أعمال الخير والبر والإحسان إرنست وبيردي، كانت سلواهما، سلوى نفوس جبلت على الإيثار والعطاء والاستقامة؛ يعضدها الحب المسيحي، بأعمال لم تنقطع أو تفتر. إذ، غالباً، في مكان ما من الإمبراطورية، مذبحة، يتدفق على إثرها، لاجئون حفاة عراة إلّا من أسمال بالية، يبحثون عن أمان ولقمة طعام. أو نكبة، يعقبها منكوبون بحاجة إلى ملجأ. أو مؤامرة ومشانق وإعدامات بالجملة، تخلف أرامل ويتامى.

كانت سنوات مشاق وتعلم، تعلموا خلالها العربية، وصاروا يُعَلِّمون ويَعِظون ويُناوِلون ويُؤبنون ويُوَاسُون بها. وأُحبطوا كذلك، عرفوا أنهم قَدِموا متأخرين عن التبشير، وأن كل الذين سبقوهم لم يفلحوا إلا بتحويل حفنة من المسيحيين الشرقيين عن مذاهبهم، فما بالك بالمسلمين!! بالإضافة إلى أن المبشرين تنازلوا منذ زمن طويل عن الجهر بالسعي إلى المسيحية الحقة وتواروا خلف التعليم في مدارس الإرسالية والكلية الإنجيلية، وعلى الرغم من تشدد

السلطات العثمانية في مراقبة البعثات التبشيرية، فإن تعاليم المسيح لم تنكفئ أو تهن، كان حواريوها يجهدون في تربة التعليم، يبذرون بذور الحقيقة الإنجيلية، مواصلين تعليمهم وتعاليمهم دون أن يوفروا درساً في التاريخ أو علم النبات أو الحيوان.. من تأويل مسيحي، واستغلوا دروس اللغة الإنكليزية في التدريب على ترجمة النصوص التوراتية إلى اللغة العربية؛ لكن من دون أن تأتي بثمرة.

لاحقاً، كانت الفكرة التي اكتشفتها البعثة وعملت عليها مبكراً، وكأنها مضادة لرسالة البعثة بالذات، هكذا بدت!! كانت على الرغم من عواهنها في التبشير، عظيمة المفعول إزاء البشر: إن تحصيل التعليم السليم للشعوب يجعلها قادرة على فهم الإنجيل. وعلى الرغم من ضعف تأثير التعليم في تبليغ رسالة الله، فقد كان نجاح الكلية عظيماً في التعليم وأمور العقل إذ شجعت وجعلت من حق أي إنسان الانتساب إلى الكلية والتمتع بمزاياها كاملة، أبيض كان أو أسود، مسيحياً كان، أو مسلماً، أو يهودياً، أو حتى بلا دين، سواء آمن برب واحد أو غير ذلك، مهما كان هذا الإيمان أو عدمه. /

4

أمضى أوستن وساندرز نحو ساعة من الزمن في بار السان جورج. بعد كأسين من الويسكي طلع أوستن بفكرة، إن رجلاً لديه عرض، أو أكثر من عرض، يفوق كل واحد منها المليون دولار لا ييأس. لم يتقبل إقدام غوبلان على الانتحار، ولَمَّح إلى مقتله. فنفد صبر ساندرز.

«إذا كان هناك من قتله، فلن يكون سوى نحن أو الإيطاليين».

«نحن ما زلنا نساومه ولم نفقد رجاءنا منه بعد».

«إذاً، الإيطاليون».

«وهناك غيرهم».

ساندرز ـــ / شرد أوستن، وهمهم بكلمات غير واضحة، التقطتُها بصعوبة بالغة. قلت له، هل تقصد الإنكليز أم الفرنسيين؟! تنبه إلى زلة لسانه وغيّر الحديث ببعض التعليقات الطريفة. /

«هل يبدو غوبلان كمن يقع في الحب؟».

«غوبلان لا يقع في الحب».

لمعت عينا أوستن، الكؤوس الصباحية لعبت برأسه.

«فتش عن المرأة.» واقترب برأسه نحو ساندرز «عزمتُ مرَّة على الانتحار من أجل امرأة».

«هل جربت؟!».

«لا، لم أكن جاداً في الحب ولا في الانتحار.» ابتسم أوستن، تابع وقد راقت له الفكرة «غوبلان جاد في عمله. ألن يكون مأساوياً في الغرام؟!».

أطلق ضحكة ونهض فجأة، قرر الذهاب إلى النورماندي ليتسقط الأخبار، ورافقه ساندرز.

في الشارع المزدحم تمشيا سيراً على الأقدام، الجو رطب وزعيق سيارات. فَكَّرَ أوستن، إذا راودت غوبلان نية الانتحار في الروشة، فما الذي منعه من تنفيذها؟! عند مدخل النورماندي، والبواب يتنحى لهما وهما يدخلان، هتف أوستن: المغلف!! كان قد عثر على جواب لسؤاله. لكن، في البهو الذي تبعثر فيه عدد من النزلاء واجمين، احتاج إلى وقت كي يتجاوزهم ويرى دولمونت وقد انتبذ مكاناً في مؤخرة البهو، جالساً على كنبة عريضة، إلى جواره

شاب أنيق، وعلى مقربة منهما وقف شرطيان. تراجع أوستن والتفت للخلف، فوجئ بساندرز متوجهاً نحو دولمونت، سارع من فوره، أمسك بيده، وأوقفه، مومئاً برأسه نحو الشاب الأنيق: المحقق اللبناني.

دولمونت ـــ /

: أبدى وزير الداخلية اللبناني أسفه العميق للسفير، بمجاملة رسمية لطيفة حاول من خلالها تلمس مدى إصرارنا على متابعة التحقيق. شكره السفير، مستغرباً الحادثة بشدة، وعبر عن جسامة خسارة غوبلان، ثم انتهز الفرصة وسأل الوزير عدم السماح للصحافيين بالاطلاع على مجريات التحقيق، لم يحبذ أن تلوك الصحف مأساة غوبلان؛ وبالطبع سوف يتفقان بعد انتهاء التحقيقات على رواية واحدة لتعميمها على الصحافة، كما التمس منه التعجيل بالتحقيق واختصار بعض الإجراءات غير الضرورية، متعللاً بأن التباطؤ فيه سيخلق آثاراً غير مستحبة في باريس وبين الرعايا الفرنسيين في لبنان.

وكلفني السفير بمراقبة إجراءات التحقيق. /

ارتد دولمونت عن باب المصعد إلى البهو، عائداً إلى المحقق اللبناني، قائلاً:

«اعذرني، يشق عليَّ رؤية غوبلان ميتاً، كان صديقي. (تهالك فوق الكنبة) لا أظنك تجهل ما تعنيه الصداقة الحقيقية».

«إنها لا تعوض.» قال المحقق بتهذيب جم.

«وتسبب الكثير من الآلام».

لاحظ المحقق أن دولمونت انقلب إلى رجل كئيب جداً.

«الصداقات الحقيقية نادرة في هذه الأيام.» واساه بأريحية.

دولمونت ـــــ /

: خالجني أن تقصيري يتجاوز التوبيخ، لو أنني ساندت غوبلان البارحة لما أقدم على فعلته، كنت أحد المتسببين في انتحاره، بإحجامي عن إنقاذه ببضع أكاذيب صغيرة لا ضير منها، تحبذها رفقة تشتتت أماكنها وتلبدت بغيوم دولية. كانت الغيوم الأخيرة مدلهمة تماماً. /

«ألم تلحظ في تصرفاته شيئاً غير عادي؟» سأل المحقّقُ دولمونت.

«كان مشوشاً قليلاً، وقلقاً جداً».

«هذا غير كاف ليقتل نفسه!!».

انزعج دولمونت، وعزا خفة استنتاج المحقق إلى جهله. سأله باستنكار:

«ألم تصادفك حالة انتحار؟».

«بالطبع!!».

«إذاً، ما الغرابة في انتحاره؟!».

«بالنسبة لرجلٍ مثل المسيو غوبلان يتعرض لظروف سيئة غالباً، يبدو القلق أمراً عادياً».

«لم تكن ظروفه الأخيرة سيئة فحسب، بل قاسية جداً، لا تستغرب ما أقدم عليه».

«خطر لي أن العلماء يترفعون عن الانتحار».

دولمونت ـــ /

: استفزتني لهجته، بدت لي مزيجاً من الجسارة والتكذيب، أردت أن أسخر منه وأجيبه مصطنعاً الدهشة: خَطَرَ لكَ؟!! ثم أُعقب هازئاً: ذلك لأنكم تفتقرون إلى العلماء. امتنعتُ، لم يساعدني مزاجي على المناكفة، وربما أخطأت تفسير جوابه ولهجته. اللبنانيون دمثون ومحيرون، لا يُركن إلى غالبيتهم، وفي بعض الأحيان متفلسفون مائعون ومتبجحون بامتياز. حينها، اعتقدتُ أن المحقق تفلسف بخبث، فلم أعطه مبرراً ليتبجح بسماجة. تظاهرتُ أنني لم أهتم بتعليقه، شرحتُ له بروية، أن حالة غوبلان النفسية كانت متردية جداً، ولم أتخيل أنها ستودي به إلى الانتحار. لم أكمل، تحشرج صوتي، أحسست باختناق أدركت مبعثه، كنت أتكلم بحيادية مقيتة، وبتفاصح وقح، كأن أمر غوبلان لا يعنيني إلا بحكم الإجراءات فقط. /

«لا شك أنها فجيعة بالنسبة لك.» ساعده المحقق.

«لو أنه وهب قَدْراً من..» وطال به الشرود.

«قَدْراً من.. ماذا؟!».

«الروية».

«الروية؟!!».

استبق دولمونت ما سيثيره استفهام المحقق:

«لقد واجه مشكلة طرد بعثته من سورية بحساسية فائقة».

دولمونت ـــ /

: استعرضتُ شريطاً جمعني بغوبلان، نشأتنا في ليون، تفرقنا ولقاؤنا بعد سنوات في باريس على رصيف شارع ليل، لنكتشف ونحن نودع بعضنا، أننا سنقصد بعد قليل المكان نفسه، مكتبة مدرسة اللغات الشرقية؛ التحاقي بالخارجية، التحاقه بمعهد الآثار الشرقية في القاهرة، مهماتي في أفريقيا، رحلته الطويلة إلى أثينا، خصومتنا في استنبول، تجدد صداقتنا في النوبة، جفاؤنا في بغداد، ثم هدنة بيروت ـ دمشق التي لم تطل، ولم تمنع صداقتنا من الدمار في يومها الأخير. تمنيت أن يكون غوبلان قد فهم مشادتنا في السفارة على أنها تعارض وجهات نظر.

: ومع أني أجبت على أسئلة المحقق بتقتير وبلا حصافة، كاد لساني يزل وأتخلّى عن حذري، وأستمرئ تشريح شخصية غوبلان بلا رحمة وأعدد مساوئها، أمراض الاستقامة والوفاء لبشر غير مستقيمين وتوقه لمساعدة أناس غير آبهين بمساعدة أنفسهم.

: حلمنا بالمجيء إلى الشرق، وبينما عمل هو على حضارات بادت، عملتُ أنا على تجسير تفاهم باء بالفشل. أخفيت عنه الكثير وتركته لفترة تقاعدنا. كان غير راض عما دعاه بألاعيبنا السياسية، وانتقد بقسوة تدخل سفاراتنا في الشؤون المحلية، اتهمها بأعمال تتجاوز صفتها التمثيلية. قلت له مرة ضاحكاً، وكنت جاداً، سأطلعك يوما على أسرار لا يمكن قولها إلا بعد زمن طويل؛ قبل الموت بقليل. لكنه استبق تقاعده بانتحاره، نقمت عليه، اختتم حياة حافلة بنهاية سقيمة، ونقمت على نفسي لأنني تخليت عنه، ولعل إحساسي بالضعف كان طاغياً، حتى أن مشاعري التي جهدت في كبتها، شارفت على الانفجار. بغتة، في خضم وحدتي وأسفي، بدا لي المحقق اللبناني لطيفاً ومواتياً كي يتعاطف معي، وكدت أن أبوح له بقسط من مسؤوليتي يعفيني من ذنب بالغت به. /

أزاح عينيه عن المحقق.

«أنا بأمسّ الحاجة إلى..» ردد بضيق.

واصطدم بصره بأوستن وساندرز يدخلان النورماندي من الباب الدوّار. كانت أية زلة عاطفية ستشهد الأميركيين على دبلوماسي فرنسي على درجة من الرقة، تُكرهه على مواجهة الحقائق غير السارة بقلب رخو، في حين تتطلب دبلوماسية المفاجآت ألّا تكون الصداقة أو الشعور بالذنب نقطة ضعفه السخيفة والقاتلة.

«ماذا كنت أقول؟!» تساءل بارتباك.

«إنك بأمس الحاجة إلى..» قال المحقق بملل.

«آه، بأمس الحاجة إلى إنهاء التحقيق بسرعة، إن القضية جد مؤلمة لسعادة السفير».

ترك المحقق وهرع إليهما، ظنهما على موعد مع غوبلان، وقبل أن يثيرا فضول المحقق، ينبغي إعلامهما بموت غوبلان وإلغاء الموعد نهائياً. خلافاً لظنه، قدما تعازيهما، ولم تكن حارة، كانت تفسيرات أوستن هي الحارة، شكك بالانتحار وطلع بقصة المغلف.

لم يأخذ بتفسيرات أوستن لأن رائحة الويسكي تفوح منه، لكن المغلف بعث مخاوفه. ماذا لو كان المغلف يحتوي على ما هدد به؛ دافعاً الاتهام عن نفسه باتهام الخارجية والسفارات، أو على الأقل يعرض ما جرى معه؟! إلى من أرسله؟! إلى السوريين طبعاً.

أدلى أوستن بتخمين سخيف:

«ربما كان على علاقة بامرأة».

نفاه دولمونت فوراً:

«حياته العائلية مثالية، كانت زوجته على وشك القدوم وطلب منها ألا تأتي بسبب ظروفه الطارئة».

عقب ساندرز بتخمين معقول:

«لعله أرسل المغلف إلى البعثة».

«يرتجي منهم شيئاً، مساعدة مثلاً.» أردف دولمونت.

«يطلب مساعدة، ثم ينتحر!!» علق ساندرز.

«إذا عرفنا اسم المرسل إليه» تدخل أوستن «فسوف يعطينا فكرة عن شركاء غوبلان وارتباطاته».

التحقيق الذي تقدم في الساعة الأولى، تعثر في الساعة التالية، الطبيب الشرعي الذي عاين الجثة، اكتشف كسراً في الجمجمة، يحتمل أن يكون من جراء ضربة قوية على الرأس من الخلف، ولن يستطيع الفصل فيما إذا كان الكسر حدث قبل قطع الشرايين أم بعده إلّا بعد تشريح الجثة.

دولمونت ــــ /

: وكأنما تأيدت شكوك أوستن، ما بدا انتحاراً ليس إلّا جريمة قتل متعمد. لم أعد مُطْمئناً، والمحقق كان متردداً، وربما لأننا تعجلنا إنهاء التحقيق أسهم المحقق بعرقلته، كانت لديه اقتراحات، تمكنت من استغلال أحدها./

«اعتدنا أن نجد رسالة يتركها المنتحر مبرراً فعلته». قال المحقق لدولمونت، وتابع بتأكيد «غوبلان لم يترك شيئاً».

«عمليات الانتحار لا تنضوي تحت نموذج واحد لا تشذ عنه، ولا تتبع الترتيبات نفسها دائماً». قال دولمونت بسخرية، لكنه حينما تذكر الرسالة لام نفسه على تهوره بالكلام، استدرك متظاهراً بأنه تذكر:

«لقد ترك رسالة».

«لكَ؟».

«لا، البارحة اعتذر عن موعدي معه بسبب انشغاله بكتابتها، قال لي إنه سيرسلها مسجلة».

وألح على المحقق التحري عنها في إدارة البريد.

من سجلات بريد رسائل البارحة، أطلَعَ الموظفُ المختص المحققَ ومعه دولمونت على اسم المرسل إليه وعنوانه: الأستاذ حسين طرواح ـ المنزل رقم ١٩ ـ جادة الأحمدية ـ دمشق / سورية

اقترح دولمونت استدعاء المرسلِ إليه للتحقيق معه. اعترض المحقق، المطالبة به تستوجب دليلاً أقوى من مجرد رسالة عنونت باسمه؛ وحتى في حال عثورنا على دليل معقول فإن السوريين لن يوافقوا على الأغلب، وإذا وافقوا فسوف يطول الأمر أسابيع من الأخذ والرد؛ لن يفيد التحقيق إلا بمطمطته. نبَّه دولمونت المحقق إلى أن الرسالة وإن لم تكن دليلا قوياً، فهي هامة جداً، وقد تضيء التحقيق، وإلّا فلِمَ يكتبها رجل أقدم على الانتحار أو قتل بعد إرسالها بساعات؟!

لكن المحقق تجاهلها.

أوستن ـــ / ظهور السوري حسين طرواح أثار علامات استفهام قوية عن مدى علاقته بغوبلان، ولم تكن مشجعة. هل هو شريك له يطلب منه إخفاء معلومات أو كشفها عند الضرورة، أم صديق حميم يعرف أكثر مما يجب؛ يشكو له غوبلان مأزقه في بيروت،

أو من معارفه المتنفذين في السلطة السورية يسأله التدخل بشأنه؟! أكد ساندرز على ضرورة معرفة طرواح، لم نناقش الوسائل، كانت الشركة مصرة على الحصول على أوراق غوبلان بأي ثمن، وإذا كان المغلف يحتوي على أوراقه العائدة للنفط السوري، فالمطلوب الحصول عليها بأية وسيلة ممكنة. /

كانت جثة غوبلان قد نقلت إلى المشرحة دون البت بأمرها، السفارة الفرنسية التي ألحت على تشريحها لترحيلها بأقرب وقت، تراجعت لئلا تثار الأقاويل حول جريمة قتل. وفيما أعلن المحقق عن نيته باستدعاء جان كرو معاون غوبلان من سورية للتعرف على الجثة، اقترح دولمونت استبداله بحسين طرواح.

بيد أن المحقق رفض، فتدخل السفير الفرنسي وشكاه إلى وزير الداخلية الذي طلب من المحقق التعاون مع السفارة. احتج المحقق بأن السفارة تعرقل أبسط الإجراءات الشكلية، وإلا فما هو السبب في امتناع دولمونت عن التعرف على غوبلان وهو الشخص الوحيد في بيروت الذي يعرفه معرفة حقة؟! عدا، أنه، قبل ساعة من الزمن، وبسبب عدم تعاون السفارة، اضطر إلى الاتصال بمقر البعثة في سورية، والطلب إلى جان كرو القدوم إلى سورية، ليحل مشكلة استكمال إجراءات التعرف على الجثة.

فجأة، ظهر شاهدان، موظف الاستقبال وعامل المصعد في النورماندي، وشهدا بأن رجلاً قدم نفسه في الفندق باسم حسين طرواح، انتظر المسيو شارل غوبلان في البهو، والذي لدى عودته، اصطحبه معه إلى غرفته عشية موته، انتهت نوبتهما ولم يعرفا ساعة خروجه.

واضطر المحقق إلى إرسال طلب إلى السلطات السورية، باستدعاء حسين طرواح للتحقيق معه في قضية غوبلان.

ساندرز ــــ / خطط أوستن لجلب طرواح إلى بيروت، بعد أن تجول بين عمال الفندق واشترى شهاداتهم./

أوستن ــــ / وافقني ساندرز على الخطة وأسهم فيها دولمونت بحثّه السفير الفرنسي على التدخل لدى رئيس الحكومة اللبنانية لدعم الطلب لدى السلطات السورية درءاً للمماطلة. /

دولمونت ــــ /

: التمس السفير من رئيس الحكومة اللبنانية التوسط عند رئيس الوزراء السوري للعمل على تسليم طرواح إلى الأمن اللبناني بأقصى سرعة، بالإضافة إلى تمرير المتاع الشخصي لغوبلان عبر الحدود السورية، تمهيداً لنقله مع الجثمان إلى باريس. /

5

لم تتوطد علاقة رئيس الوزراء برئيس الحكومة اللبنانية خلال سنوات زمالتهما في الجامعة الأميركية في بيروت، وإنما فيما بعد، عندما تبنيا في المحافل العربية والدولية وجهات نظر متقاربة دونما اتفاق مسبق، تخففا على إثرها من تلك المواقف الرسمية الحذرة، وتوثقت بعد تسنمهما لرئاسة حكومتي بلديهما، من غير أن تمنعهما، بين أزمة وأخرى، من تبادل التصريحات النارية، تشتد أو تخفت تبعا للظروف الداخلية أو الخارجية من دون أن تخلف قطيعة بينهما، حتى أن تعليقاتهما على خلافاتهما، اعتبرت من قبيل ذر الرماد في العيون وهما يذيّلانها بهذه اللازمة.. مجرد خلافات بين أشقاء وجيران. لم يغب عنهما وعلى الدوام أن مصالح بلديهما الآنية والعابرة قد تتعارض أحياناً، لكنها في العمق تبقى واحدة.

كاد اتصال رئيس الحكومة اللبنانية برئيس الوزراء مساء أن يبدو عادياً، على نمط المشاورات الجارية بينهما على الهاتف ليلاً، يستمزج فيها أحدهما رأي الآخر. تحدثا عن اجتماعات مجلس الجامعة العربية وضرورة تنسيق موقفهما حيال المشروع المصري والرفض العراقي، وتجنبا الخوض في قضية اللاجئين السياسيين السوريين، وقبل أن يختم رئيس الحكومة اللبنانية مكالمته، شكا من قضية غوبلان؛ الفرنسيون يحيرونه، يعرقلون التحقيق من جهة بدعوى أنه قتل، ومن جهة ثانية يصرون على إنهائه بدعوى أنه انتحر، هم أنفسهم غير متأكدين، ولا يريدون التأكد، ثم علقوه على شخص سوري يدعى حسين طرواح. وسأله الاهتمام بمذكرة استدعائه التي اضطر إلى إرسالها. وعده رئيس الوزراء بالتعجيل بتنفيذ المذكرة.. في غضـون اليوم التالي.

كان خبر انتحار غوبلان الذي قرأه رئيس الوزراء مقتضباً البارحة في الصحف اللبنانية، قد أثار لديه سؤالاً: لِمَ انتحر في لبنان وليس في سورية؟! عثر الآن على جوابـه: ربمـا قتـل.

وأثار سؤالاً آخر: لِمَ تجاهله الفرنسيون حياً وتنطعوا للاعتراف به ميتاً؟! الأرجح أن غوبلان غادر دمشق للاتصال بالأميركان، في بيروت تنبه الفرنسيون وحاولوا انتزاع غوبلان منهم، فحصل أمر، أمر غير متوقع، قتل من جرائه غوبلان، وبرز أيضاً حسين طرواح الذي أمِلَ منه الفرنسيون شيئاً، ولأنه ليس بمتناول أيديهم أوقفوا سير التحقيق على قدومه، لكنهم ارتكبوا خطأ جسيماً بإلحاحهم على رئيس الحكومة اللبنانية التوسط لديه، وجهوا الأنظار إلى طرواح بدلاً من التعتيم عليه، وأصبح، من سوء حظهم، يشاركهم الاهتمام به. وعزم على الإشراف على التحقيق بنفسه، بعده يقرر تسليمه أو لا.

اتخذت، المذكرة المحولة إلى مديرية الأمن العام طريقها إلى مخفر المرجة، بسبب أن إقامة المطلوب تقع في المنطقة التابعة له. حينما استفسر رئيس الوزراء المخفر، كان الملازم رئيس المخفر قد خرج للقبض على طرواح، فترك له أمراً بموافاته إلى مكتبه فور عودته. قبل انتهاء الدوام الرسمي بنصف ساعة، ظهر الملازم بزيه النظامي، نافخاً صدره، وبارماً شاربيه، وأعلمه بفشل مهمته:

حوالي الساعة العاشرة صباحاً، دهم المنزل رقم ١٩، وهو عبارة عن نزل من طابقين يحتوي ما يزيد على عشرين غرفة مع منافع مشتركة لكل طابق، يقطنه خليط متنوع من البشر، عمال مياومون، بائعون جوالون، أجراء مطاعم ومقاه، أرامل عجائز، قرويون عمال باطون وترحيل أنقاض. يسكن حسين طرواح في غرفة صغيرة من الطابق الأسفل؛ اقتحمها الملازم، الفراش ملخبط، على الترابيزة فنجان قهوة، في المنفضة سيجارة طاتلي سرت رفيعة، على الأرض جريدة الديار اللبنانية ملقاة ومفتوحة على صفحة الحوادث؛ وبالبنط العريض خبر انتحار غوبلان، عدا هذا كانت الغرفة مرتبة ونظيفة. عرف الملازم من الجيران أن طرواح غادر غرفته قبل ساعة من الزمن، إثر استلامه رسالة سميكة مسجلة من ساعي البريد، استلفتت انتباههم لأنها معنونة بالفرنسية.

إذاً، كان طرواح يقرأ الجريدة، راعه الخبر، رمى الجريدة من يده، أو وقعت أرضاً. بعد ذلك مباشرة تسلم الرسالة واطلع على فحواها؛ لعل مُرسِلَها طَلبَ منه التواري عن الأنظار، فغادر على عجل قبل أن يكمل شرب قهوته وتدخين سيجارته.

في نظر رئيس الوزراء، كان المشهد المصنوع من قِبَل طرواح،

مُتصنعاً في رواية الملازم على الرغم من تسلسلها الحاذق، لكن الرتيب والضعيف، والمفتقر إلى القليل من التمحيص البسيط؛ مثلاً، لو ألقى الملازم نظرة على تاريخ صدور الجريدة لوجد أنها جريدة أول البارحة، وبهذا ليس المنظر الملهوج من الفراش الملخبط عن قصد، والجريدة الملقاة عن عمد، والمفتوحة على صفحة الحوادث تمويهاً، مروراً بفنجان القهوة وسيجارة الطاتلي سرت الرفيعة، سوى مشهد أعده طرواح للإيهام بأنه فوجئ بموت غوبلان اليوم، أما مغادرته بسبب الرسالة فليس إلّا احتمالاً واهياً لا يعدو تكهناً يسوغ هربه.

بيد أن تعليق الملازم على مذكرة الاستدعاء كان ثاقباً، وهو يرميها بالتناقض: فقد أُشير إلى واقعة الوفاة بشكل ملتبس، لا يُفهم منه إن كان غوبلان الجاني على نفسه أم المجني عليه!! لو مات منتحراً فلا موجب لاستدعاء طرواح، ولو مات غيلة فالشكوك التي تتناول طرواح واهية لاستنادها إلى اجتماعه بغوبلان عشية مقتله، لكن طرواح لم يكن في مكان الجريمة، كان في غرفته بشهادة جيرانه، إلّا في حال ذهابه مساء إلى بيروت وعودته إلى دمشق في اليوم نفسه بعد منتصف الليل. وهذا ما دفع الملازم إلى إجراء اتصالات سريعة ومكثفة مع مركز الحدود السورية اللبنانية، وأثبت من سجلاتها أن طرواح لم يعبر الحدود في اليوم المذكور، وطيلة الأسبوع الماضي.

أعجب رئيس الوزراء بنباهة الملازم ومبادرته الذكية، وتصميمه وعناده المتجليين في تتبع آثار لا فائدة منها.

«أحسنت القيام بواجبك».

احمرّ وجه الملازم خجلاً، وأعاد ببراعة وبلا هوادة مع دقة أكبر، تفنيده تهمة لا أساس لها، عبر التسلسل ذاته، مبرهناً من خلاله ثانية على براءة طرواح التي لم يعد فيها أي مجال للشك!!

لم يرق لرئيس الوزراء إصرار الملازم على براءة طرواح. كيف يكون واثقاً جداً، وبهذه الرعونة، في تبرئة شخص براءة لا مجال للشك فيها البتة؟! أهي حماسته الصادقة حتى التهور، أم أنها أسلوبه في معرض إشادته بجهوده؟! فليكن، لكنه بالغ بها من خلال قصة غير متماسكة!!

وقد يُعزى تنفجه الزائد إلى أنه عريض المنكبين ومفتول العضلات وكث الشاربين، إذا كان، فلا بأس من التسامح معه لاجتراحه مأثرة بتشغيل عقله، ومع هذا ما أقل تنفجه بالمقارنة مع مساعدي الشرطة المزمنين الذين يفتعلون العقبات ويضخمون الأعباء الملقاة على عاتقهم والصعاب التي لا تواجههم. كيف لهذا الضابط التمتع بكونه شاباً وملازماً في سلك الشرطة إذا كان متواضعاً؟! قليل من الغرور مستحب وغير ضار.

لكن أدهشه، وقد ترك له الحبل على الغارب، أن يستمرئ القول جهراً:

«سيدي، لا جدوى من ملاحقة طرواح».

بل ويقترح عليه، وبلا مسوغ:

«وأرى أن تُردّ المذكرة اللبنانية، إنهم يستطيعون إنهاء التحقيق من دون الاستعانة به».

كان باقتراحه المتمادي قد أساء إلى نفسه، ولم يعد بوسعه مسامحته على غروره المتفاقم خلال دقائق معدودات، بعد أن أصبح رذيلة غير مستورة ولا محمودة، لا يمكن التهاون إزاءها أو الصفح عنها، خاصة أنه تعدى رتبته الصغيرة، وصار ببساطة يرتئي عليه، وبكرم، ما يفعله، إنهاء قضية بحالها من غير معرفة خفاياها وما قد ينجم عنها!! أما لو تقيد الملازم بما كلف به وبحدوده الدنيا، فسوف يجد أنه أولاً لم يقبض على الشخص المطلوب القبض عليه، ثانياً أن الشخص ذاته فرَّ في الوقت المناسب، ثالثاً وهو الأسوأ أن هذا الشخص ما زال مجهولاً تماماً؛ وبالتالي، يستحق الملازم وبكل جدارة التوبيخ الشديد مع إبداء قدر لا يستهان به من القسوة؛ والسبب واضح، عدم الجدارة.

غير أنه تردد، لاح الملازم والعرق يتفصد من صدغيه، مرتبكاً ومنهكاً، وكأنما تجشم جهداً كبيراً في التعبير عن أمر لا يحتاج إلى كل هذا العرق والخجل!! لا، ليس شاباً مغروراً، بل ولداً غريراً. خطر له، ألّا يعفيه من تأنيب خفيف وبأسلوب مبطن.

«هل تقصيت عن المدعو طرواح؟».

ما توقعه، بما أن الساعات القليلة الماضية لم تسعف الملازم بالسؤال عن شخص طرواح، أن يكون جوابه مختصراً أو بالنفي. وهكذا، ببضع كلمات، لا تخلو من نصيحة، يلومه فيها على تقصيره الفادح، ليس في القبض على مطلوب ساعده الحظ بالهرب، وإنما في التحري عنه على الأقل، ويعنفه من غير أن يجرحه؛ كيف سمحت لنفسك ألاّ تُكوِّن عنه صورة وافية أو حتى كاملة قبل التبرع، بصرف النظر عنه وعن قضية ما زالت مفتوحة، بالبراءة التامة؟!

ولم يتوقع جواباً كهذا، نبره الملازم بثقة:

«إنني أعرفه، أعرفه جيداً».

بكل حماقة، أودى الملازم بنفسه إلى التهلكة وهو يتلفظ بكلماته مزهواً، من غير التواء، لا تقبل تأويلاً لصالحه، إلّا بأنه يحسد نفسه على معرفته برجل يقطن في نزل يلم دون ريب شمل باعة مسروقات ونشالين ومحتالين وأمثال هذه الحثالة الرثة من البشر!! ولأن لهجة الملازم لم تخف تحيزه، أفسد سلامة تحرياته كلية.

«كان أستاذي في التجهيز». قال الملازم.

فسر التعبير المرتسم على وجهه ما يكنّه من تقدير واحترام لأستاذه، وعن توثبه للدفاع عنه. وتابع بلهجة تنضح بالإكبار:

«إنه معلم متفان لا مثيل له».

بوغت رئيس الوزراء، وقد اكتشف في الملازم تلميذاً غضاً ومهذباً، اعترف بجميل أستاذه على نحو عملي مخالف لواجبات رجل الشرطة ومسؤولياته، على التأكيد لم يُحذّر التلميذ البار أستاذه الجليل فحسب، بل وأسهم بتهريبه أيضاً. أليس من المهزلة ألّا يكون الأستاذ جليلاً، وإنما التلميذ مخدوع؟! كذلك، أليس من الظلم أنه سيضطر إلى معاقبة التلميذ البار بشدة طبقاً للقانون، دون الأخذ بعين الاعتبار بعض الظروف والأسباب المخففة؛ إذ إن التلميذ مهما كان باراً فهو لسوء حظه ضابط في الشرطة؟!

ولّى وجهه عنه، ليباغت ثانية، أنه هو أيضاً يحتفظ لأساتذته من أيام مكتب عنبر بالتجلة ذاتها. ربما لو.. لأقدم على.. ضارباً

عرض الحائط بالقوانين كلها. لن يسترسل بأفكاره بعيداً في الماضي، ليتذكر أنه إزاء التلميذ الذي كانه. لِمَ يلوم طالباً وفياً يدرأ الشبهات عن معلمه بأريحية هي واجب، ودفاع ـ رغم كل شيء ـ لا مناص منه. كانت نبرة الملازم التي كدرته قد أراحه إخلاصها، شجعه بهزة من رأسه على الكلام، فاستطرد الملازم مشيداً بأستاذه مدرس مادة الجغرافية، المعلم الرقيق الحال والطباع.. والعنيد:

في منتصف العام الفائت، فُصل الأستاذ طرواح من سلك التعليم، بعد أن تكرر غيابه عن التجهيز، ومع أنه أُنذر مراراً لم يلتزم بما تعهد به. كانت مشكلته وفرة علمه ومعارفه، واضطلاعه بمهام حالت بينه وبين المواظبة على التدريس، وهي مشاغل لا تعدو إلّا هواية تسلطت عليه، جمع مسكوكات صدئة، وأوان مهشمة، تماثيل صغيرة متآكلة، أحجار ونقوش ونقود قديمة؛ كانت، على اختلاف أنواعها، تافهة وقبيحة، يغالي بقيمتها حينما يخرجها من جيوبه، ملفوفة بمنديل أبيض، يفرده بتأنٍّ، يتلمسها بأطراف أصابعه، ويُفَتقُ من قطعة حجر لا قوام لها، أو من إسورة معدنية حائلة اللون أو وجه بلا ملامح؛ عصوراً، طقوساً مأتمية، شرائع، أدياناً منقرضة وأساطير. هواية لم تكن أُلهية ذوق رفيع، وإنما هوس أعمى، يتلمح في التشوه جمالاً، وفي النتوءات شعراً، وفي الغبار سحراً.

فترت همة رئيس الوزراء للقبض على أستاذ للجغرافية، جمعته هوايته بغوبلان، والملابسات جعلت منه مشبوهاً. لا، لن يضيف إلى مأساته شرطة تتعقبه، محيلاً حياته البائسة إلى جحيم لا يطاق.

«اصدُقني، هل تعرف مخبأه؟».

«لا».

«إذا صادفته، طمئنه إلى أنني كففت البحث عنه، قل له إن بودّي تبادل حديث معه على انفراد».

في الاتصال الثاني لرئيس الحكومة اللبنانية، ماطله رئيس الوزراء.. المطلوب طرواح ترك مكان إقامته. قبل أن نتمكن من القبض عليه، الشرطة في إثره.

6

غداة عودتي من مهمتي في السعودية والكويت، علمت بانتحار غوبلان، واطلعت على مذكرة جلب طرواح؛ وظهراً كنت شاهداً على الاتصال الثالث لرئيس الحكومة اللبنانية الذي بات في ورطة، السفير الفرنسي يصدّع له رأسه كل ساعة، أو ساعتين، يسأله عن نتيجة اتصالاته مع دمشق، وأزعجه أخيراً بطلبه الإشراف فعلياً على التحقيق بحجة أن القضية قضيتهم، وعلى الرغم من رفضه فهو موقن بأنه كلما طال الوقت فسوف يتعرض إلى مزيد من الضغوط بدعوى أن القضية جنائية وليست سياسية.

اعتذر رئيس الوزراء وصارحه بأنه لن يتمكن من تنفيذ وعده، عدا أنه ـ وبمنتهى الصراحة ـ لا يرغب في التجاوب مع الفرنسيين؛ إنهم لا يعبؤون بالمنطق ولا بالدبلوماسية عندما يتعاملون معنا. لماذا اللف والدوران؟! فليستعينوا بسفيرهم في سورية.

رئيس الحكومة اللبنانية لم ييأس. هدّأه وقال بأنه سيرسل إليه المحقق للاتفاق على أسلوب ما لاستكمال التحقيق. ولم يترك له مجالاً للرفض قائلاً، أكرموا وفادة محققنا الشاب.

كلفني رئيس الوزراء باستقبال المحقق والتباحث معه، على ألّا يتعدى لقائي معه تبادل الرأي، وفي حال قدم حلولاً وسطاً عليّ التذرع بالإجراءات والشكليات. بعد أقل من ثلاث ساعات، اجتمعتُ بالمحقق اللبناني، لم يكن لدي ما أقوله له، غير أنه كان لديه ما يقوله لي.

توسمتُ من مظهره الأنيق وحركاته المرسومة بعناية، أن لقاءنا لن يكون عملياً البتة، وبدا بلطفه الطبيعي وهدوئه المتكلف أنه لم يتحسس بعد سخونة الموقف. كان يقاربني في العمر، جاملته قليلاً، عندما تحفزنا للنقاش، استمهلته ملمحاً إلى تصلبنا، لم أرغب في أن يتقوض اجتماعنا في لحظاته الأولى.

«لن نتشاجر، أليس كذلك؟!».

ضحك من قلبه وبصوت عال، شاركته الضحك، فتبدد توترنا، وأظهر ببادرة مرحة استعداده للقتال، وأن بإمكانه التغلب على أية عوائق قد تعترضه.

«سوف نجد حلاًّ».

كان متفائلاً. حسدته على همته، وبما أنني مكلف بتثبيط تفاؤله، أجبته بلطف:

«لن نجد حلاًّ».

احتوى موقفه المحبط والمبكر بثقة عالية، وشرح مشكلته:

«حسناً، لن نحجب أسرارنا عنكم، التحقيق يراوح في مكانه، أنتم تماطلوننا، والفرنسيون يستعجلوننا، هم لديهم حجتهم، يدَّعون أن طرواح سينير التحقيق. أنتم، ما هي حجتكم؟!».

«إذا كان الفرنسيون جادين فعلاً بتقصي الحقيقة التي يجهلونها، فعليهم البحث عن خصمهم لدى الأميركيين».

«نعرف، هم متواطئون إن لم نقل شركاء، وهي بشكل واضح قضيتهما معاً. عندما يتلكأ الفرنسيون فإن الأميركيين يحثونهم، ومن طرف آخر يضغطون علينا».

لخبط المحقق معلوماتي. استوقفته:

«ما تقوله في حدود التخمين. أليس كذلك؟! أريد معلومات أكثر دقة».

«أنا لا أخمن، لقد اصطدمت معهما».

انتهينا من استطلاع نوايا بعضنا، ودخلنا في صلب الموضوع مباشرة. قلتُ دون تمهيد:

«طرواح لم يعلم بانتحار غوبلان إلّا صبيحة أول أمس».

«بشهادة الشهود رؤي في النورماندي.»

«طرواح لم يغادر دمشق وبحوزتنا الأدلة».

«لا تعتمد على قيود مراكز الجمارك، الكثيرون يجتازون الحدود

بشكل غير نظامي».

«لا تجزم».

«كذلك نحن لا نثق بشهادة الشهود، فلنتحدث عن دليل أقوى».

بات، لئلا نتوصل إلى تفاهم، وضعُ حدٍّ لمطالبته.

«هذه القضية تهمنا، وأصبحت مقلقة لنا، ولن نعفي أنفسنا من النظر فيها، سنتولى التحقيق معه ونرسل لكم بنتيجته».

«ما الذي تخشونه؟!».

«كل ما في الأمر أنهم يريدونه لهم، ونحن لن نُمَكنهم منه».

استمر حوارنا هكذا، دون أن يفضي إلى تقارب بيننا. كنت أعتقد أن السلطات اللبنانية تريد إرضاء الفرنسيين بأي ثمن، فيما كان يعتقد أننا نريد مضايقة الفرنسيين بأي ثمن.

بعد أن وصلنا إلى طريق مسدود، استعاد المحقق حيويته قائلاً:

«كلانا مقيدان بتعليمات رئيسي حكومتينا، ما رأيك أن نضعها جانباً ونتكلم على المكشوف».

وتغير مجرى الحديث تماماً. كشف أن بحوزته شاهداً لم يبرزه بعد، وهو نادل في النورماندي، عرف منه أن هناك رجلين صعدا على التوالي إلى غرفة غوبلان ليلة موته وبفارق نصف ساعة من الزمن، تبين من لهجة الأول أنه سوري، أما الرجل الثاني فربما كان إنكليزياً أو أميركياً. استنتج المحقق أن الفرنسيين أخفوا المشتبه به الثاني، ووجهوا الشكوك نحو الشخص السوري، وسواء

كان طرواح أو غيره، فلا داعي للتخوف من التحقيق معه، إذا لم يمر الأمر بسلام وكما نشتهي، فسوف يُظهر شهادة النادل ويضيف مشتبهاً به ثانياً، يسعى للكشف عن هويته، ويعرقل التحقيق.

كانت الفكرة مثيرة ومأمونة إلى حد ما، لكنني لم أستطع مجاراته.

«نحن نفضل الاحتفاظ بطرواح، ربما وجدنا أنفسنا طرفاً في القضية».

«لكنكم خارجها بالفعل».

«بصراحة، لا نأمن طرواح، قد ينقلب علينا في بيروت، ويبقى فيها بعيداً عن متناولنا، ونحن نريده هنا».

«سلمني طرواح وأنا أكفل رجوعه إليكم».

«هل يكفل هذا رئيس حكومتكم؟».

«إنه اقتراحه».

«ما الذي تقصده بأنه اقتراحه؟!».

«لقد خولني إعطاءكم الضمانات التي ترضيكم».

كان ما أطالب به بلا جدوى، لأن الجزء الذي لم أبح به، هو أننا لم نقبض على طرواح حتى الآن، ولن أستطيع قوله له. تابع استدراجي:

«الفرنسيون يرغبون في إغلاق التحقيق بأقصى سرعة، ولا يهم إن كان شكلياً».

كان لا يريد العودة إلى بيروت دونما وعد بشيء. قلت له:

«مبدئياً أنا موافق».

وطلبت مهلة للحصول على موافقة رئيس الوزراء.

عندما نقلت فحوى حديثنا إلى رئيس الوزراء، علق:

«إنهم واثقون من عدم وجود طرواح بحوزتنا».

«أكان اقتراحهم لإحراجنا؟!».

«لا، لم يكن عبثاً، صديقي يوحي لي بالإقدام على عمل ما».

«وماذا سيكون جوابنا؟!».

أغمض عينيه متعباً، قال:

«سأسلمهم طرواح غداً».

لم أكتم دهشتي.

«كيف؟!».

لم يجبني، كان يفكر.

لم أعرف ما الذي جرى خلال ساعات الليل. عند الظهر، أُعلمت بإتمام عملية تسليم طرواح إلى سلطات الأمن اللبنانية في مركز الحدود السورية.

7

دام احتجاز طرواح في مديرية الأمن اللبناني إلى ظهر اليوم التالي. اعترف في التحقيق بأنه يعرف غوبلان منذ سنتين وعلى صلة جيدة معه، ونفى أنه التقى به قبل أيام في بيروت، وحينما تم عرضه ضمن مجموعة من الأشخاص على الشاهدين، لم يتعرفا فيه على الشخص الذي رافق غوبلان إلى غرفته ليلاً. فأُطلق سراحه.

خرج إلى الشارع، يتسكع على غير هدى، الجو حار والرطوبة خانقة، الإعلانات الملونة الضخمة العالية تلفت أنظاره. لاحظ رجلاً يتتبعه، حاول اجتياز الشارع، تمهل في منتصفه بسبب مرور الترام، فَعَلِق بين السيارات المسرعة، لم يلحق به الرجل. بعد نجاحه في الانتقال إلى الرصيف المقابل، تعقبه الرجل من بعد، ثم سارع بخطواته، قطع الشارع، أدركه واعترضه، قدم نفسه إليه على أنه من معارف غوبلان.

«أنا آسف من أجل غوبلان.» قال أوستن بلطف.

«هل تعرفني؟!» حدق طرواح إليه بريبة.

«حدثني عنك غوبلان بإعجاب.» قال أوستن متودداً «ألم يحدثك عني؟».

«لا أتذكر».

«ستتذكرني جيداً بعد قليل».

«خلال يومين تاهت عني أمور كثيرة.» تلَفّتَ طرواح حواليه متوجساً.

«لن يتوه عنك شيء بعد اليوم».

ابتسم أوستن، ودعا طرواح إلى مطعم لوكولوس.

من موقعه على الناصية القريبة، راقبهم ساندرز، ثم لحق بهما، وجلس في المطعم إلى طاولة جوار الحائط يسترق النظرات إليهما، ينتظر إشارة من أوستن لينضم إليهما. أما دولمونت فقد تغيب لاضطراره إلى مقابلة جان كرو في السفارة كي يبلغه، أن الخارجية ستواصل جهودها من أجل البعثة.

أوستن ـــ / رحَّبَ طرواح بدعوتي إلى المطعم، كان التوعك بادياً على وجهه، لم يأكل شيئاً منذ أوقفته الشرطة السورية البارحة، واعتذر عن تناول كأس كامباري. طلبت له وجبة طعام مضاعفة، أكد على الجرسون أن تخلو من لحم الخنزير، واقتصد في الكلام، حتى عندما تذمر من سوء المعاملة التي لاقاها خلال توقيفه. سألته، هل حققوا معك في دمشق؟ قال: حققوا معي

لكنهم لا يعرفون الكثير. فسألته: ما الأمور التي لا يعرفونها؟ تجاهل سؤالي مظهراً ضيقه من أنه لم ينم حتى هذه الساعة. بعدئذ، عاقت شهيته المفتوحة وإقباله على الطعام حديثنا، ومع هذا أفهمته بأنني مُلِمّ بتحركاته مع غوبلان، وحاولت دفعه للكلام. اختصر إجاباته بلا ونعم، متصنعاً الجهل، عزوت مراوغته إلى أنه لم يثق فيّ بعد، كان واضحاً لي عدم إتقانه تصنع الجهل، وقبل أن ينهي طعامه، طرقتُ الموضوع./

«علاقتك بغوبلان كانت أكثر من ممتازة».

«لا بأس بها».

«كنتما فريقاً واحداً».

«في الأشهر الماضية لم ألتق به إلا لماماً».

«أعلم بأنك كنت تراه باستمرار».

«لم أكن مقرباً منه كما تقول».

«كتب لك رسالة قبل انتحاره».

«لم أتسلمها».

قالها طرواح بوقاحة، واضعاً بداية للعراقيل الجدية، بدت لأوستن مساومة متعجلة بدأت قبل وقتها، مساومة على ماذا؟! وقبل بعض الاستيضاحات!!

«سأذكِّرك.» قال أوستن «كانت ضمن مغلف يحتوي على أوراق غوبلان».

لم يستغرب أوستن تظاهر طرواح بالدهشة، كانت الدهشة من مستلزمات المساومة. حسناً، قال أوستن لنفسه، سأُدهشه كثيراً. وتابع بتركيز:

«أنت تعرف بأن غوبلان كان يعمل لنا، ولقد فقدناه، وسوف نجد غيره، أنصحك بالكف عن حذرك والتعاون معنا».

«لماذا أتعاون معكم؟!».

لا بأس من التلميح وبقوة إلى الثمن:

«كنا سندفع له، هل تعرف هذا؟!».

«لم يقل لي».

كان من المفترض أن يقول طرواح شيئاً مغايراً تماماً، يؤكد أن الدفع والقبض أمران مفروغ منهما. لماذا يكذب بلا مسوغ؟!

«لا أدري فيما إذا كان غوبلان يخدعك».

كان أوستن قد وجه ضربة لغوبلان، ضربة ضرورية، وبمسوغ.

«غوبلان لم يخدعني، أنا لم أسأله».

«المهم، نحن على استعداد للدفع لك».

أطرق طرواح برأسه. كان أوستن قد أصابه بدهشة مضاعفة وحقيقية، ولا بد أن المساومة، من طرفه، ستصبح أقل حنكة.

«كم؟».

«مبلغاً كبيراً».

«مقابل ماذا؟».

«أوراق غوبلان».

تناول طرواح الشوكة، رفعها، غرزها في قطعة صغيرة من اللحم، رفعها إلى فمه ببطء شديد محملقاً في الصحن. قال من غير أن يلتفت إلى أوستن:

«لا وجود لأوراق تخص غوبلان».

«لا تضيّع الفرصة».

وأخذ طرواح يُضَيِّعها، رشف الماء بتؤدة، مسح فمه بالفوطة، أشعل سيجارة. فيما كان أوستن يرمقه بغيظ ويزداد توتراً.

أسبغت الحركات الصغيرة والممطوطة غلاظة مبهمة على طرواح. لم يرتح أوستن لمساومة لم تعد غامضة، وإنما مفضوحة وبليدة، لم يعد هو الذي يديرها، بل هذا الرجل السمج الفظيع، الذي يبرهن وبكل جلاء على أن العرب على عداء مع الحضارة، ولن يتقدموا على الإطلاق، لعلة واحدة، لا علاج لها.. افتقارهم إلى الإحساس بمرور الوقت.

«لحساب من تعمل؟».

«هل تحقق معي؟!» انفجر أوستن غاضباً.

«أنا لا أعرفك.» انفجر طرواح أيضاً غاضباً «لا تنس أنك تعرفني جيداً».

«إنني مفوض من جهة يهمها أمر النفط، ويرغبون في أن يكونوا على بيّنة مما هم مقدمون عليه. هل هذا كاف؟!».

«سأتفق معهم في دمشق».

«لماذا ليس هنا؟!».

«ما قلته لي غير كاف».

أوستن ـــ / مضى الحديث بيننا متعباً، انتزعتُ الكلام منه بصعوبة، فيما كان يثيرني بفجاجة ويناور بلا دراية، معتصماً بتكتم سخيف، وعلى الرغم من المبلغ الذي وعدته به، وكان أضخم مما يأمل به عميل ظهر عَرَضاً ومتأخراً، لم يسأل عن مقداره أو يساومني عليه، بل أبدى تعففاً غير مقنع بدلاً من شراهة مقنعة. كانت تلك أول زلة ارتكبها./

«هل لك شركاء؟».

«لا».

«إذاً، من تريد مشاورته؟!».

«لا أحد.» ضحك طرواح بخشونة، ورمى بنكتة «أريد مشاورة ضميري».

«لنعقد صفقة صغيرة بمثابة عربون متبادل. زودني بقدر ما بسيط

من المعلومات، إذا ظهر أنها صحيحة، فسأدفع لك مقابلها مبلغاً مجزياً».

«والصفقة الكبيرة!!».

«أوراق غوبلان».

«إن كان لها وجود.» علق طرواح بابتسامة ماكرة.

«ألا يهمك المال؟!».

«ومن لا يهمه؟!» تساءل بخفة، وقال جاداً «يهمني المال، لكنني غير مطمئن إليك».

«لماذا؟!».

«لأنك أميركي».

«لأنني أميركي، ينبغي أن تكون أكثر اطمئناناً».

«غوبلان فرنسي، ويجب أن يتصل بي الفرنسيون».

«إنني أعمل لهم».

«سأتباحث معهم».

«حالياً لا يرغبون».

«ينبغي أن يعيدوا النظر في عدم رغبتهم».

أوستن ـــــ / أخذ يعاندني. فكرتُ، إذا أحس بأننا نحتاج إليه فسوف يستغلّنا على أسوأ وجه. ندمت على تسرعي، عندما

عرضت عليه المال، ثمناً، ربما، لمعلومات يجهلها وأوراق لا يملكها. خطئي كان أنني استمعت لساندرز الذي بالغ بطرواح وعلق عليه آمالاً لا يستحقها. ومع هذا كنت على حيطة منه، وهو يلف ويدور دونما فائدة، حتى أنه سها عدة مرات، وسألني أكثر مما أجابني، محاولاً الإيقاع بي، وهـذا ما فضح أمره. /

«أن يعيدوا النظر!! من تظن نفسك؟!».

«غوبلان قُتل».

«لقد انتحر».

«قالوا في التحقيق بأنه قتل. هل أنت متأكد من انتحاره؟».

«من بوسعه أن يكون متأكداً؟! إن كان قتل فلأن لديه مشكلاته».

«ألم تتمكنوا من حمايته؟!».

«لم يطلبها، لعله كان يعوّل على غيرنا».

«كنتم تعرفون بأنه كان مهدداً». اقترب برأسه من أوستن «لا ارغب في مصيره، أريد ضمانات، ضمانات قوية، ومن جهة موثوقة».

«ما رأيك في الاستعانة بموظف كبير من السفارة الفرنسية؟».

نهض أوستن قبل أن يجيبه طرواح، وتوجه نحو الهاتف.

ساندرز ـــ /في البداية، راقبتهما بيسر. بعد دقائق، شُغلت الطاولتان اللتان تفصلانني عنهما بالزبائن، تابعت النظر إليهما

بصعوبة، لاح حديثهما يمضي متعثراً. بعد فترة، لاحظت طرواح تخلى عن هدوئه، وأوستن يتكلم بعصبية ثم ترك الطاولة فجأة. /

أوستن ـــ / لم يعد لدي شك في أنه ليس الرجل المطلوب، تذرعت بأنني مضطر لإلغاء موعد مع صديق، كنت أعرف بأن دولمونت موجود في السفارة ومعه جان كرو. اتصلت من هاتف المطعم بدلمونت وطلبت منه سؤال كرو عما يعرفه عن طرواح. /

دولمونت ـــ /

: كانت جلستي مع كرو صاخبة، اتهمنا بتلويث سمعة غوبلان، وبأن رد الاعتبار له لن يتحقق إلا باستمرار عمل البعثة. هدأته بأننا اقترحنا على الخارجية عدة حلول، إذا وافقت على أحدها، فإمكانية استئناف عمل البعثة متوقعة قريباً. ارتأى مغادرة البعثة إلى لبنان ريثما تُسوَّى مشكلتهم. نصحتُه بالسفر إلى باريس وممارسة ضغوط على الخارجية بواسطة وزير الثقافة والهيئات العلمية. تواصل حديثنا بلا نتيجة، كان حانقاً وكنت كاذباً، قطعنا شوطاً غير مريح لكلينا، إلى أن اتصل أوستن وقال بأن طرواح لم يثق به لأنه أميركي ويصر على التباحث مع فرنسيين، ورجاني المجيء إلى مطعم لوكولوس مع جان كرو لأن تدخلنا سيطمئن طرواح. لم أرحب بالفكرة، قلت له إن ظهوري مع طرواح في مكان عام غير وارد. تدخل كرو في الحديث واستبعد نهائياً وجود طرواح في بيروت، مؤكداً أن طرواح زاره اليوم في فندق سميراميس بدمشق، وبقيا معاً، وودعه ظهراً في الكراج، أي في الوقت الذي كانت الشرطة اللبنانية تحقق معه في مديرية الأمن. سألت كرو

عن أوصافه، فكانت حسب قوله: قصير القامة، نحيلٌ، غائر العينين، لا يحلق ذقنه إلا نادراً، تجاوز الخمسين من عمره، يرتدي معطفاً مطرياً خفيفاً سكري اللون، يلبسه صيفاً وشتاءً؛ وعلى الهاتف، كانت أوصافه بحسب أوستن: معتدل القامة أو أقرب إلى الطول، رياضي الجسم، أسمر البشرة، عريض الشاربين، في حوالي الثلاثين من عمره، يرتدي قميصاً أبيض وبنطالاً أسود. /

أوستن ــــ / وتمحورت أسئلتي، على الفور، حول أوصاف طرواح، وكانت مخالفة تماماً. /

دولمونت ــــ /

: ضجّ صوت أوستن في الهاتف، لم يستوعب سؤالي له عن أوصاف طرواح. صرخ، لماذا؟! قلت له؛ إذا لم يكن هناك طرواحان، فأنت تجالس رجلاً من المخابرات السورية. همد صوته، ثم تساءل خائراً عما أقصده. قلت له، لقد أرسلوا بديلاً عنه. /

أوستن ــــ / التفتُّ صوب الطاولة، كان طرواح قد فرّ هارباً بعد أن عرف بانكشاف أمره. /

ساندرز ــــ / سارعت إلى أوستن ونبهته إلى خروج طرواح، لم يسمعني، كان يرمق الطاولة الخالية والكرسي الفارغ، أمسكته من يده وشددته كي نلحق بطرواح، فوجئت ببعض الرجال الذين كانوا يشغلون الطاولتين المجاورتين قد سدوا باب المطعم، مررنا

من بينهم بصعوبة. عند الرصيف، كانت ثلة منهم قد استقلت سيارة فولكس فاكن وبرفقتهم طرواح المزعوم، انطلقت بهم زاعقة. لكزتُ أوستن وعدتُ به إلى اللوكولوس. قال أوستن، كنا محاطين برجال الأمن اللبناني والمخابرات السورية: كل منهم يشغل طاولة، السوريون هرّبوه، واللبنانيون أسهموا بعرقلتنا. /

في الحقيقة، لم تكن شعبة المخابرات السورية ضالعة في ما جرى، لأن رئيس الوزراء تفادى الاستعانة بهم، أما الرجل الذي لعب شخصية حسين طرواح بأسلوب معقول وليس بشكل مطابق، فلم يكن سوى ملازم الشرطة الذي قبل أداء المهمة بحماسة وعن طيب خاطر، مسدياً صنيعاً شخصياً لأستاذه، ساعده في ذلك اتفاقنا مع اللبنانيين الذي كفل عودته رغم كل الظروف وفي جميع الأحوال.

دولمونت ـــــ /

: وفى اللبنانيون بوعدهم لنا، ووفوا بتعهدهم لكم، وتابعوا العملية عن قرب خشية حصول صدام بيننا. لم ننقم عليهم، علّلنا أنفسنا بالعثور على دليل ما عن النفط في أمتعة غوبلان. لم نجد شيئاً ذا أهمية بين حوائجه الشخصية، عثرنا على صور فوتوغرافية، تميّزنا فيها طرواح بين أفراد البعثة من معطفه المطري، حريصاً ألّا تبين ملامحه، مائلاً برأسه جانباً أو متقياً الشمس بكفه أو ملتفتاً نحو الخلف وكأن شخصاً يناديه، ودائماً ثمة شيء يحجب وجهه، كأس معدني أو قصعة، مستبقاً إخفاء ملامحه منذ زمن طويل./

أوستن ـــــ / مغامرة السوريين كشفتهم، أيقنا أنهم لم يتمكنوا من

القبض على طرواح بعد، وأوراق غوبلان بحوزته، وصلة الوصل الوحيدة بيننا ما زالت جان كرو./

ساندرز ـــ / لا أكتمك شكوكي بوجود عدة عملاء تابعوا غوبلان في بيروت وربما من دمشق، الفرنسيون كانوا غامضين ومتناقضين، المخابرات البريطانية متخفية كعادتها وتراقب عن كثب، بالإضافة إلى عملاء الشركات المستقلة وممثليها، أما الروس فقد استشعر أوستن وجودهم في كل مكان، كانوا عُصَابه الدائم. الأسوأ هو أننا نحن الأميركيين كنا نعمل على عدة خطوط: أوستن وجماعته، السفارة الأميركية في بيروت وكانت على خلاف مع أوستن والتعاون بينهما يكاد يكون معدوماً، السفارة الأميركية في دمشق وكانت تتجاهل أوستن وتتضايق من تدخلاته. كما خشيت أن يعمل موظفون من سفارتينا لصالح شركات أميركية منافسة. الوضع كما كنت أراه، كان مفزعاً ومتشابكاً وغير قابل للتنسيق./

دولمونت ـــ /

: انصبّت جهودنا على النحو الذي يخدم غوبلان أهدافنا أكثر، منتحراً أم مقتولاً؟! كان استغلال موته شاغلنا، وكما أثرنا مقتله، طمسناه على أنه انتحر، لم ندع التحقيق يأخذ مجراه، بعض الدلائل أشارت إلى انتحاره، لكن ما من أحد جزم!! لم يكن إغلاقنا لقضيته تسرعاً من السفير أو الخارجية، كان ثمة خطورة بالغة في المضي فيها، القرار اتخذ سراً في أعلى المستويات الحكومية. ما أخفي حينها كان أمراً وقائياً لا مفر منه. أنا من

جهتي ارتكبت خطأ فظيعاً، كان لضرورات أمنية./

أوستن ـــ / عندما بات كرو على أهبة مغادرة سورية، قلت لدلمونت، أن يُوعز إليه التقدم بطلب إلى الحكومة السورية لتمديد مهلة ترحيل البعثة لمعالجة الإشكالات التي خلفها موت غوبلان، لكن بمبادرة شخصية منه، ودون وساطة من أية جهـة، كي لا يثيـر ريبة السوريين./

ساندرز ـــ / حلّ موعدي في العاصمة السورية، كان العرضُ الذي أحمله معي لرئيس الوزراء السوري جيداً، وفي حال حصولي على ضمانات معقولة، سأسافر إلى السعودية لأعِدَّ مع مستشار الشؤون القانونية للشركة، والذي تصادف وجوده في ذلك الوقت في الرياض، مشروع صيغة اتفاقية مع السوريين، أعود بها خلال أيام. بعد دمشق، لم يكـن في خطتي العـودة إلى بيروت.

من شرفة غرفتي في السان جورج أرسلت بصري بعيداً، إلى الجبال الشاهقة، خليج جونية، فالبحر.. وتوغلت فيه. على متن هذا البحر، جاء أبي إرنست وصديقه بيردي. وخطر لي غوبلان.. جثمانه ما زال قابعاً في البراد.

كان جثمان إرنست قابعاً في المستشفى، بيردي ينتظر مواراته في التراب ليغادر محطته في بيروت. بيردي خلّف وراءه جثة وأثراً طيباً، أنا سأخلف ورائي جثة ولغطاً مريعاً. بعد زمن قصير لم يهتم أحد بموت إرنست ساندرز. من سيهتم يوماً بمصرع شارل غوبلان؟!

انفضت الحرب، وجاءت سنوات ما بعد الحرب، ما الذي جعل همتهما تتراخى؟! اعتقدا، بعد خروج الأتراك ودخول قوات الانتداب الفرنسي، أنهما سيفلحان بتحويل جهود الإرسالية من تعليمية إلى تبشيرية، وعلى الملأ. من جديد، وجها انتقاداتهما إلى تخفي الإرسالية وراء الكلية الإنجيلية التي رفعت شعار الإنصاف والمساواة وقيم التعليم. طالبوا الإرسالية باتخاذ موقف صلب لا هوادة فيه: رفع رسالة الإنجيل عالياً وجهراً، خصوصاً بعدما أصبحت الكلية الإنجيلية جامعة. ألن يكون لها من مهمة سوى التعليم؟! ماذا عن المسيح؟!

•

الجواب سيكون نفسه، ليس أنهم لن يضحوا بالجامعة، وإنما في أن الجامعة ستبقى كما كانت الكلية من قبل، غير مذهبية. الدين شأن من شؤون العقل أولاً، وليس أمراً من أمور الوجدان فحسب.

ولم يعد هناك جدوى من البقاء على أبواب إرسالية أُوصدت في وجهيهما. تذكروا القس بيرج. أين هو؟! ما زال منكباً على الكتب المقدسة، يقتات بالماء، وبشيء يشبه الماء، ربما كان شوربة عدس، معتكفاً طوال حرب عمّت الدنيا، لم تفلح ملايين قتلاها، ولا ضجيج مدافعها في اختراق جدران عزلته، عزلة كانت دليلاً على أنه لن يخرج إلى أنقاض عالم ينتظرانه فيه، عالم أخذ الكبار بتقسيمه وتقاسمه. فاستعدوا للرحيل.

وقد تكون مهزلة الأقدار، تلك التي جهزت لإرنست ساندرز رحلة أخرى، رحلة الموت. هل تريد معرفة بقية القصة؟! لنقل، كانت هذه نهايتها.

أبي بشَّر بالإنجيل، وأنا سأُبشر بالنفط. /

8

«الفرنسيون طالبوا بطرواح، وساومه رجل المخابرات الأميركية!!».

قال رئيس الوزراء، معقباً على أحداث بيروت، ومستنكفاً عن لقاء ساندرز، مسوغاً امتناعه بأن المجابهة أصبحت مكشوفة وحساسة، لن تحتملها مباحثات ينبغي أن تكون بطبيعتها حذرة ومعمّاة. وبات عليَّ مقابلته وحدي.

لم تكن مباحثاتي مع ساندرز حذرة كما توخيتُها، وإنما مكشوفة كما تقصّدَها، ولم يكن غامضاً كما تخيلتُه، بل كان واضحاً، عرض أفكاره بمهارة، ولم يُخفِ اهتمام شركته الشديد بالحصول على امتياز التنقيب عن النفط واستثماره، وأسهب في تبيان حجم التكاليف الهائلة المتطلبة للعثور عليه واستخراجه وتسويقه، والفوائد التي ستعود علينا: شق الطرق، بناء المرافق الحيوية، مدّ السكك الحديدية، وتنشيط الزراعة، عدا عن العائدات الكبيرة التي

سنجنيها. وبالطبع لن يبخلوا علينا بالنصائح. لكن المشكلة هي في أن أي استثمار ضخم في سورية سيواجه صعوبات جمة، بسبب الأوضاع غير المستقرة فيها، فالجيش يتدخل في شؤون الدولة، والانقلابات تهدد الاتفاقيات، بالإضافة إلى المعارضة النشطة في البرلمان، وهي معارضة شيوعية تضم القوميين المتشددين والإخوان المسلمين والناقمين على الملكية والحاقدين على الغرب والاستعمار وإسرائيل؛ سورية مخاطرة كبيرة لا يؤمن جانبها، وعلينا كي نساعدهم، التفكير بمنحهم بعض الاستثناءات والتسهيلات. وبالتالي فإن عرض الامتياز للمزايدة لن يساعدهم، والأفضل استبعاد منافسيهم بطريقة ما، ولاسيما الروس.

«أم أنَّ لدى الروس القرار النهائي؟!».

«ستكون المزايدة مفتوحة للشركات كلها».

«إذا كان باستطاعتكم ضمان الموافقة على عرضنا، فسوف نتقدم بعرض ممتاز».

«لا مجال للأفضليات، الحكومة ستفاوضكم، والبرلمان سيصادق على الاتفاقية».

لم تستوقفه إيضاحاتي. تابع قائلاً بأنهم سيتقدمون بعرضهم في حال حابتهم الحكومة بالاطلاع على عروض الشركات الأخرى، وخصتهم بالامتياز. ومن طرفهم، سيغطون عرضهم بزيادة طفيفة، بشرط أن نكفل مصادقة البرلمان.

أتاح إصغائي إليه التعرف على أفكاره، بدا لي من فرط صراحته، أن خيبتهم في بيروت أكدت حاجتهم إلى الكثير من التطمينات.

لم أقاطعه إلا مرتين: الأولى، حينما أتى على ذكر المعارضة. أوضحت له بأنه أياً كان المصدر الذي استقى منه معلوماته فعليَّ تصحيحها له، إن الإخوان المسلمين والقوميين المتشددين، والذين يريدون تحرير فلسطين، رغم كرههم للغرب والملكية والاستعمار، هم ليسوا بشيوعيين أو على وفاق معهم، إلا إذا أخذنا بالمقالات المنشورة في الصحف الغربية، التي دأبت على تحويل قصة صغيرة وضعيفة إلى قصة كبيرة ومثيرة. أليس من السخف أن تُلصق بشيخ معمم ووزير ثري تهمة الشيوعية لمجرد انتقادهما السياسة الأميركية وتهديدهما بالتعامل مع الروس؟! أمّا من يدعونهم باليساريين الحمر، فهم اشتراكيون من نخبة المثقفين السوريين، خريجي السوربون، ومن أشد منتقدي الشيوعية. ومع أن ساندرز تراجع عن تأكيداته، فقد استدركها بأن الشيوعيين السوريين يُحرِّضون الجيش والبرلمان ضد أميركا وبريطانيا. ولديه معلومات عن تحركاتهم بين صفوف الجيش، ونشاطاتهم الهادفة إلى تشكيل خلايا شيوعية من الضباط الصغار، على شاكلة تنظيم الضباط الأحرار السري في مصر الذي وراءه تنظيمات شيوعية. رددت عليه متعجباً وساخراً من معلوماته، إذا صدَّقنا هذا عما تدعوه بالضباط الأحرار في مصر، فبوسعنا أن نصدق أي شيء عن الضباط السوريين. والمرة الثانية، كانت اعتراضي على شروطه؛ أكدت له بأن أية اتفاقية تعقدها الحكومة مع أي طرف، لن ترافقها بنود سرية أو تفاهمات غير معلنة، وأوضحت له بأنني أقول هذا بتفويض كامل من دولة رئيس الوزراء.

انتهت المقابلة دون اتفاق، لم تكن سوى استطلاع متبادل للنوايا، ليس حساساً ومن غير تعمية. كان الانطباع الذي خرجت به ونقلته إلى رئيس الوزراء، بأنها مؤشر لمفاوضات لن تثمر. لقد

أظهرساندرز عدم ارتمائهم على النفط عندما ربط عرضهم بشروط تعجيزية، ورغم إشارته إلى أنه سيستشير فرع الشركة في لندن، لم يُلّمح إلى موعد لاحق. علّقَ رئيس الوزراء على الاجتماع بأنه كان تنفيذاً لموعد ضرب سابقاً، ليس من اللياقة إلغاؤه، انتهزه ساندرز وسبر مواقفنا؛ والآن، سيتركوننا لفترة ما. المهم، ابتعدت غمامة النفط، ولم تعد لها الأولوية.

وأبدى رئيس الوزراء مرونة غير متوقعة وهو يحوّل إليّ طلب مقابلة جان كرو بشأن تمديد مهلة ترحيل البعثة، مشيراً عليَّ بالتساهل معه.

للوهلة الأولى، لم يختلف جان كرو في هيئته وملامحه عن النمط الشائع للسائحين الأوروبيين الشبان، أشقر الشعر، أبيض البشرة، تقاطيع باهتة ونظرات محتقنة، يرتدي قميصاً خفيفاً وبنطالاً ضيقاً من المخمل بني اللون، وينتعل صندلاً. بعد دقائق، خالف مواصفاته الظاهرة إلى نموذج مغاير أكثر حيوية، بجفنيه المنتفخين وحدّة نظراته، وزرقة عينيه الفاتحتين المشوبتين باحمرار خفيف في وجه لوحته الشمس، ذي جاذبية صبيانية بخصلة شعره التي حجبت طرفاً من جبينه، وتوفزه مع قلة صبر رشحت من نبرات صوته.

«غوبلان لم يستخدم البعثة واجهة لنشاطات مشبوهة، لقد غُرِّر به، ومهما كان خطؤه فلا يجب أن تؤخذ البعثة بجريرته».

كان دفاعه عن البعثة مبرراً، لكنني لم أستسغ إصراره على أن نعيد تقييمنا للبعثة على أساس جهودها العلمية، دون الالتفات إلى ما

حدث أخيراً. لم أدخلْ في التفاصيل، كان ما أبغـي قوله جاهزاً:

«بشرط أن يكون التدخل لصالحكم لأسباب علمية محضة، وإلّا أسأتم إلى أنفسكم».

«كان قراراً مجحفاً».

لم أُدافع عن قرارنا، حاولتُ الاعتذار:

«ليس بوسعنا التصرف وكأن شيئاً لم يكن».

عَقَّبَ باستسلام ودونما رجاء:

«مصير غوبلان تقرر في كواليس السفارات، وسوف تلاقي البعثة مصيراً مماثـلاً في كواليس الحكومات».

كان قد اقترب من الحقيقة، مدركاً أن أمله بات ضعيفاً، وأنا كنت متيقناً أن لا أمل له على الإطلاق، وربما أحس بما راودني.

«كيف العمل على استعادة ثقتكم؟!».

«الأمر لا يتعلق بك».

«هناك ما تجهلونه».

كان يحاول إثارة فضولي، لكنه أثار حنقي. قلت له:

«لقد أصبح معروفاً، وسأقوله لك، سفارتكم في لبنان تلعب دوراً بات مزعجاً لنا».

«سأكون أميناً معكم».

كانت نظرته واثقة ومصممة ولهجته حارة، بدا صادقاً فعلاً، ولديه ما يخبئه ويرغب في البوح به. أحسست بعدم جدارتي بثقته، لأنني لن أكون صادقاً معه، واعتقدت أيضاً أن الأمانة عرض مستحيل، لم أشأ تشجيعه عليه.

«لنترك هذا الأمر للمستقبل».

«طلبوا مني مساعدتهم في العثور على شخص سوري يدعى حسين طرواح، لم أرفض، لكنني لن أقودهم إليه».

«لماذا؟!».

وجَهِدتُ في عدم إظهار تلهفي:

«لأنه يخصكم وحدكم».

«هل علاقتك به وثيقة؟!».

«لا بأس بها، كان صديق غوبلان، اعتاد أن يزورنا في موقع الحفريات، قابلته منذ أيام وسألني عن عنوان غوبلان في بيروت».

«هل أعطيته إياه؟!».

تردد لحظات، ثم قال:

«لم يذهب طرواح إلى بيروت».

«أأنت متأكد؟!».

«هذا ما قاله، لم يكن يكذب، هل تشك به؟!».

«إنه هارب الآن».

«وعدني بأن يتصل بي».

توقع أن أطلب منه شيئاً بخصوص طرواح، لكنني سألته:

«ما الذي تعرفه عنه؟!».

«القليل، اسأل عنه في المنتدى».

«المنتدى؟!!».

لم أعد على ما يرام، وكرو يقول إن طرواح عضو في منتدى الفيحاء الثقافي، الذي تدير نشاطاته السيدة سعاد وجدي، والتي عرّفت غوبلان على طرواح؛ ولا شك في أنها مطلعة على ما بينهما. أنهيت حديثنا على حين غرة، وعدته برؤيته قريباً. قبل انصرافه، أعلمني بأنه مقيم في فندق سميراميس، ويتناول غداءه يومياً في مطعم البرج الفضي في دخلة الفردوس.

دهمني القلق، قلق كنت أعرف مبعثه، لم يكن بسبب طرواح أو ذلك اللغط الذي سيحيط به، وبقضية يجب أن تبقى مكتومة، وإنما بسبب سعاد وجدي.

تمنيتُ ألّا أسمع عنكِ شيئاً، أنتِ التي كنت قصيةً، ها أنتِ، عابرة فجأة، في كلمات عابرة، كأنما حانت ساعتنا، تلك التي لم أرغب فيها، تدنو حثيثة، في خبر لم أتوقعه، وصدمني، كما كانت أخبارك تصدمني على الدوام.

كان ذلك في اليوم الذي خرجت فيه التظاهرات بعد صلاة الظهر من المساجد، متوجهة إلى الصالحية، اخترقت حاجزين من الدرك، أحاطت بالمندوبية الفرنسية ورشقتها بالحجارة. بعد دقائق، وصلت النجدات العسكرية الفرنسية، واختفى المتظاهرون في بساتين الصالحية.

في اليوم نفسه، بعد غروب الشمس، اصطحب المفتش في مديرية المعارف ابنه طالب البروفيه إلى حفلة تخرج طالبات البكالوريا في مدرسة الراهبات. طافا مع الأم الرئيسة قاعات المدرسة ومماشيها المطلة على الشارع المقفر وأزقة سوق ساروجة؛ أمام النوافذ المهشم زجاجها، بربرت الأم الرئيسة حانقة على التظاهرة التي مرّت ظهراً على الرصيف المقابل للمدرسة. لم يسترع الزجاج المبعثر فوق البلاط نظر طالب البروفيه، بل استرعت نظره الصلوات المحطمة على شفاه الراهبات وعيونهن الكسيرة المحتقنة من البكاء.

كانت التظاهرة التي تابعت سيرها صوب الصالحية، قد تخلف عنها بضعة صبية، صوبوا حجارتهم إلى نوافذ المدرسة مع شتائم مقذعة نالت من سلطات الانتداب وجنرالات فرنسا والرهبانيات الاستعمارية والراهبات اللواتي أمهاتهن..

«يا إلهي، من أين يأتي الأولاد المسلمون بهذه الألفاظ البذيئة؟!».

لم تكن الأم الرئيسة تسأل مفتش المعارف، بقدر ما كانت وهي تردف قائلة:

«ألفاظ يندى لها الجبين خجلاً».

تبرر انصباغ وجنتيها بالأحمر القاني.

الحجارة أصابت أهدافها، لم تترك نافذة على حالها، عدا نافذة واحدة، أشرفت منها الراهبات الملائكيات على الشياطين الصغار، الذين لم يتوانوا عن إسماعهن شتائم أصابت عفافهن في الصميم. ارتددن ممتقعات الوجوه، وأغمي على إحداهن، سارعت الأم الرئيسة وأطلت مبوزة شفتيها ومفنجرة عينيها، فتقهقر الصبية مبعثرين على وقع نظراتها الجاحظة، وقبل أن يلملموا أشتاتهم، رجع بعض شبان التظاهرة، زجروهم وفرقوهم.

مفتش المعارف هو أبي، وأنا ابنه الفتى. لم أكن قد تجاوزت الرابعة عشرة من عمري، أرتدي بذلتي الجديدة رصاصية اللون، والطربوش الأحمر فوق رأسي، لا أنكر ذنباً اقترفته بكل زهو في خيالي، اعجابي بالتظاهرة والحجارة والشتائم، لكنني سأنسى ذنبي وزهوي، حين وقع بصري فوق مسرح المدرسة على سعاد لأول مرة، فتاة في السابعة عشرة من عمرها، في أثواب بيضاء وزهرية وسماوية اللون، بأكمام وبلا أكمام، فارعة الطول ونحيلة الخصر، ومتوردة الخدين. **كأنكِ الآن، ما تزالين، نصب عينيَّ، على المسرح، في الساحة المكشوفة، فراشة ملونة، مبسوطة الكفين، عارية اليدين، جدائلك تتطاير عالياً، تياهة بلتفتك، تتألقين من دور إلى دور.**

كان على رأس المدعوين رئيس الدولة السورية والمفوض السامي

الفرنسي، أما الحضور فمن أسر الوجهاء الدمشقيين، من أهالي الطالبات، وبعض الموظفين السوريين وموظفي المندوبية الفرنسية. في صدر الساحة، اصطفت الطالبات ببلوزاتهن البيضاء وتنانيرهن السوداء وشرائطهن الزرقاء. كانت سعاد في النسق الأول.

افتتحت الأم الرئيسة الحفل بكلمة استهلتها بتمجيد الرب العظيم، أبانا الذي في السموات، كلي القدرة.. أزجت الشكر لضَيفي الحفل على رعايتهما للمدرسة، وأثنت على الراهبات اللواتي أدّين، بإخلاص وتفان، واجباتهن. أخيراً، توجهت إلى الآباء والأمهات، وأعادت إليهم الأمانة التي استودعوها إياها.. لا تشكروني اشكروا الله.

تعالى التصفيق بحرارة، وأسبغ الحضور نظرات التقدير والعرفان على الراهبات اللائي وقفن جانباً إلى الحائط صفاً واحداً، مطأطئات رؤوسهن، عاقدات أيديهن إلى أوساطهن، متقبلات التصفيق بورع مسيحي وأثرة أمهات رؤومات. وإذ أحسسن بنظرات الامتنان مسلطة عليهن، يممن وجوههن، بعيون ملؤها الطيبة والطهارة، شطر الطالبات، أمهات المستقبل الفاضلات، المزينات في ميعة صباهن بالعلم والأخلاق وزهرة الآداب.

تتالت فقرات الحفل، قصائد لفيكتور هوجو وألفريد دو موسيه، مشاهد تراجيدية من مسرحية مأساة طيبه لراسين. في الاستراحة، مال المفوض السامي على الأم الرئيسة الجالسة إلى جواره، في الوسط بينه وبين رئيس الدولة السورية. ولَفَتَ نظرها إلى أنهم في لبنان، افتتحوا الحفل في مدرسة الراهبات، بنشيد جماعي تغنت فيه الطالبات بفرنسا الأم الحنون.

«كنت سمعت نشيداً صامتاً.» همست الأم الرئيسة «الطالبات السوريات متشددات بخصوص أمهاتهن».

لوى المفوض شفته مستغرباً:

«هذا مجرد رمز!!».

«لا تتعب نفسك، لن يعترفن سوى بالأم التي ولدتهن».

«اليوم.» انتفض المفوض «اللقطاء، أولاد الحرام، لم يوفروا سفالة لم..»

«سيدي المفوض». شهقت وقاطعته «هل أصابتك العدوى؟!».

أعقبت الاستراحة قصائد لألفريد دو فيني ولامارتين، ومشاهد كوميدية من تمثيلية البرجوازي النبيل لموليير.

حلقت سعاد بالشعر عالياً بين النجوم وأزهار الخريف، على ضفاف جداول الربيع، وشلالات الضباب، في أدغال عباد الشمس والقرّاص والشوكران، على وقع الطواحين وكآبة الأصيل وخفق الفؤاد المشبوب. شاركت في التمثيليتين، ولعبت دورين، أنطيغونا ومسيو جوردان، وإذا كانت أنطيغونا المفجوعة بأخويها قد أبكت النظارة وهي ترفض العرش والتاج بكبرياء تمزق القلب (أنا أريد أن أبكي، يا كريون، وأنت تريد أن تحكم) فقد أضحكهم مسيو جوردان بقوله لأستاذ الفلسفة متعجباً (ماذا؟! هل حينما أقول: يا نيكول أعطني المشاية وقبعة النوم، تسمي هذا نثراً؟!).

خطفت سعاد الأبصار والقلوب. كانت طائراً يغرد بالفرنسية.

مِسكُ الختام، خطاب الطالبات، ألقته سعاد بالعربية الفصحى، وأثار مطلعه الاستحسان وقوطع بالتصفيق من الأهالي والموظفين الدمشقيين.

«أهو خطاب جميل؟!» تعجّب المفوض السامي.

تبرعت الأم الرئيسة بترجمة مجمل ما فاته.

«الآنسة تفخر بأمجاد العرب الغابرة».

«آه.. حماسي.» عقب المفوض بلا حماسة.

«وتُشيدُ بمناقبهم، الشجاعة، الكرم، الشهامة، المروءة.. هل أنا واضحة؟!».

أومأ برأسه وصلصل ضاحكاً:

«لم يتركوا مأثرة ولا خصلة لغيرهم».

«و..» ترددتْ.

بدا للمفوض أن العقبة التي تواجه الأم الرئيسة سببها مترادفات اللغة العربية التي لا تحصى، ولا تستعمل، جعجعة ألفاظ بلا طائل.

«لا تجهدي ذاكرتك.» وأردف بملل «بعض خصالهم فريدة ونادرة جداً، لا مقابل لها بالفرنسية، يكتبونها للخطابات فقط».

«تترقب فارساً يمتطي صهوة جواد.» انخفض صوتها بحياء.

اتسعت ابتسامة المفوض، وعلا صوته:

«فارس على جواد أبيض».

«ينهب الأرض ويشق الظلام».

«فارس أحلامها، يا لهؤلاء الفتيات!! يشبهن فتياتنا!!».

ابتسم رئيس الدولة السورية، واقترب برأسه نحو المفوض:

«وشاهراً سيفه.» مترجماً له ما أغفلته الأم الرئيسة.

«الملك فيصل» هلل المفوض نكاية.

«يوسف العظمة» عقب رئيس الدولة.

عبس المفوض، كان الاسم مفحماً وبلا مراء مغيظاً.

أما والآنسة ترفع قبضتها عالياً، تلوح بها، تارة لرئيس الدولة، وتارة أخرى للمفوض السامي، فقد اتخذ الخطاب منحى أكثر حماسة.

«أهي تستنهض همتك أم تهددني؟!» تساءل المفوض عابثاً بصوت مرتفع، مخاطباً رئيس الدولة المستغرق كلية في خطاب الآنسة؛ وإذ لم يردّ، سأل المفوض الأم الرئيسة بتوجس:

«ما الذي تقوله الآنسة؟!»

«وللحرية الحمراء باب».

«باب!! ما به الباب؟!».

«لا يقرع إلا بيد.. مضرجة بالدماء».

«من يلقنهم هذه التشبيهات الكرنفالية؟!».

«ليس نحن.» نفت الأم الرئيسة بعصبية «دروس التعبير حافلة بتشبيهات أرق وأجمل».

«لقد استعارته من قصيدة لأحمد شوقي.» تدخل رئيس الدولة ثم ارتدّ مصغياً للخطاب.

«من يكون؟!» تساءل المفوض.

«شاعرٌ مصري» سارعت الأم الرئيسة «إنه أمير الشعراء».

«ما علاقته بالسوريين؟!» رفع يديه مستغرباً.

الآنسة تنظر إليه وتعنيه بخطابها مباشرة، الأم الرئيسة تترجم مقطبة جبينها:

«تمتدح فرنسا بلد الحرية، وباريس مدينة النور..» تجرجر كلماتها، تغمغم ولا تترجم. أكمل رئيس الدولة الترجمة:

«وشعارات الثورة الفرنسية».

«إنها تحرضني!!» ضحك المفوض ضحكة مغتصبة ومقتضبة.

ختمت سعاد خطابها مودعة المدرسة والراهبات بعينين مخضلتين بالعبرات، جعلت الدموع تنفر من مآقي الراهبات، والأم الرئيسة تداري دموعها، مخفية وجهها بالمنديل تأثراً.

تتابعت الفتيات أمام ضيفي الحفل يتلقين الثناء.

«أهنئك يا ابنتي.» صافح رئيس الدولة سعاد «سورية تفخر بك، لقد قدمت مثالاً طيباً للفتيات السوريات».

بينما استوقفها المفوض ومازحها:

«أيهما نصدق وعيدك أم مديحك؟!».

«كليهما.» ردت بخفر.

«لقد انتزعت إعجابنا.» ربت كتفها «من حسن حظنا أنك فتاة صغيرة، لطيفة ورقيقة».

رأيتكِ مراراً، في فترات متباعدة، ومصادفة، في بنوار سينما رويال مع أبيك، في سوق الحميدية تتمشين بصحبة رفيقاتك، في ساحة النجمة تخطرين أمام مدرسة الفرنسيسكان وتنعطفين في دخلة الشعلان. تظهرين وكأنما من حلم، ويستحيل الاقتراب منكِ، تزدادين تنائياً بمرور السنين، تغيبين عن بصري، دون أن تغيب أخبارك عن سمعي، وما كان أكثرها!!

لم يكن هناك ما يخفى في دمشق، سعاد وحيدة أبيها، فقدت أمها وهي رضيعة في لفافة، تعلق بها أبوها صغيرة، وأولع بها فتية، ردَّ عنها الخطّاب ولم يقبل بتزويجها إلّا بعد إكمال تحصيلها. عَقب نجاحها في البكالوريا ترك لها الكلمة الفصل في الموافقة على شريك حياتها. استغلت سعاد دلال أبيها ورفضت طالبي يدها، ومنهم رجال أصحاب مراكز لامعة وشبان ذوو مستقبل واعد. كانت رائدة في كسر التقاليد، اختارت أن تحب، فعاشت قصة حب بريء وجامح مع شاب ثري ويافع. كانت نموذجية في جرأتها، ولم تَحلّ النهاية السعيدة إلّا بعد فصل تعيس. عارض

أبوها وأهل الشاب الزواج ولاكت سيرتهما الألسن، فتأججت قصتهما، وباتت مثالية في صعوباتها، ومواتية للتضحيات، من الحرد إلى الإضراب عن الطعام.

أفلح عنادهما، وانتصر حبهما بإرغام أسرتيهما على القبول بزواج سبقه الغرام والسهاد والأشواق. بيد أن التقاليد التي حطّت الآنسة المراهقة من سطوتها أيام عمائها الفرح والمتلاف في الحب، كان قد جاء دورها كي تسترد حظوتها في الزواج، وتنتقم حسب الأصول من ست البيت الصغيرة الدلوعة، التي فَتَّحت عينيها وكذبتهما على القفص الذي تراءى لها أنها ستنطلق منه إلى عالم بلا قضبان، لا أن تكون سجينته، وعلى الحبيب الشاب الذي اصطفته لمشاعرها العذرية، في دور وجد نفسه فيه، مؤهلاً دونما تأهيل، توحَّدَ فيه ولم يكن على مقاسه: الزوج الآمر الناهي، بينما كانت الحبيبة هي الآمرة الناهية!! لكن في زمن ينبغي نسيانه نسياناً مبرماً، والتكفير عنه بزوجة صاغرة، منصاعة، تُرضي بخُلُقها وتهذيبها وحيائها وتقواها وتحجبها ورجاحة عقلها، أقارب وجيراناً لم ترهم إلا ليلة عرسها، خيفة كلام الناس، تعويضاً عن سمعة العائلة التي مرغتها الزوجة العاشقة في الوحل بلوثات غرامها المأفون في ماضٍ أضحى سحيقاً ومريراً. كان الحب المتوج بالزواج الأبدي قد أسفر عن الشقاء المؤبد، وأسلَمَ أقداره ومقاليده إلى تقاليد النميمة والمكيدة والأيمان المُغَلَّظة والكاذبة.

لم تمض سنة على زواجها إلّا وطلبت الطلاق، فحصلت عليه، وعلى فضيحة فاقت بجلجلتها دوي انفجارات ولهها المجنون، أسقطتها مريضة طريحة الفراش، أو أنها اختلقت مرضاً عجيباً

أعجزها وحبسها في غرفتها، كاد أن يكون مرضاً مزمناً، لولا أن استرضاها أبوها بسيارة رينو فرنسية وبيانو بشتاين ألماني، فبرئت من أوهامها وأسقامها، وخرجت معافاة. عزفت على البيانو خالية البال من العشق والرجال، وكانت أول سيدة تقود سيارة في شوارع دمشق، وأعادت صلاتها بصديقاتها طالبات مدرسة الراهبات اللواتي أصبحن سيدات متزوجات ومرحات، سمينات وطيعات، يفضفضن عن همومهن بالتندر على حمواتهن.

كرست شغفها الحقيقي لأبيها، الرجل الوحيد الذي سيدفعها إعجابها الشديد به إلى مرضاته آجلاً، لا عاجلاً، بالقبول بالزواج. لكن من سيتزوج امرأة ما زالت سيرة عشقها وطلاقها حديث النسوة في الصباحيات والأعراس ومباركات الزواج والولادة، وحمامات السوق؟! في ذلك الوقت، توفي أبوها، وكاد موته المفاجئ أن يكون الضربة الصاعقة والقاضية على طمأنينة رتعت فيها دون هموم، إلّا أن الثروة التي ورثتها كانت أماناً حقيقياً سيدوم وبحبوحة، وتعتقها من وعد لم يأسرها، ولم تحنث به، تحميها من نوائب الزمان والزواج.

وثانية، لاحقتها الأقاويل. من يغفر لامرأة مطلقة ووحيدة النأي بحياتها عن رباط الزوجية؟! أقاويل لم تلتفت إليها ولن تعصم نفسها منها، منطلقة دونما احتراس، سوى أنها أسقطت صبوات الهوى ومتاعبه من حسابها، وستقدم للمتربصين بها زاداً لا ينضب من تهاويل لا سند لها، إذ استعادت هواية للأدب كانت مبكرة، أطفأها عش الزوجية، وأشعلها الطلاق، وسعّرها الفراغ.

انتقلت إلى بيت اشترته في حي الروضة، وجعلت من بيتها القديم في حي سوق ساروجة منتدى ثقافياً يؤمه المتعلمون الشبان،

المتخرجون حديثاً من جامعات بيروت واستانبول وباريس، وفتيات من عائلات راقية وغنية، حالمات ومفرطات الحساسية، ونسوة ناشزات وعصبيات، وربات بيوت سئمات ومترهلات، مصدر همومهن تقاليد بالية وممجوجة، ينفرن منها ويتذرعن بها.

كانت محط الأنظار، كشاعرة وجدانية وكاتبة مقالات جريئة وراعية لمواهب الأدباء الشبان ومحطمة لقلوب أدباء مرموقين. وكما تفتح حسنها في الأجواء الأدبية المتملقة، أينع جسدها في قصائد الشعراء الأكثر تكلفاً، محرضاً الألسنة على النيل منها بشائعات مسمومة، أطلقتها عوانس قبيحات ومتبرجات، ومطلقات كئيبات وثرثارات، وعذال حسودون، وعشاق ألهمتهم وأحبطتهم، كذبها معجبون مثقفون وأوفياء.

تخيلتكِ، يحف بكِ الأدعياء والمتزلفون، كان من بينهم طرواح ومعه غوبلان الذي استضافته في منتداها كتقليعة باريسية، عالِمٌ فرنسي ينبش الأرض باحثاً عن مدن دارسة، رجل علم وخيلاء، وقور ودمث.. جمعت بينهما قصة إعجاب سقيمة.

وفر لي طرواح سبباً لأتكلم معها. لفحني صوتها على الهاتف، رائقاً ولاثغاً، لم يعن لها اسمي أو وظيفتي إلّا أنني أرغب في المشاركة بنشاطات المنتدى، اعتذرتْ بأن الموسم الصيفي سيبدأ بعد حوالي أسبوعين. قلت لها، الأمر عاجل لا يمكن تأجيله ولا التحدث فيه على الهاتف أو في المنتدى، وهو بشأن طرواح وغوبلان، أريد موعداً قريباً وليكن اليوم. صمتت قليلاً، وأتاني صوتها خافتاً ومكهرباً: تعال الآن.

طالعتني، على بعد خطوات، بثوب أسود وشال من حرير أسود، يستر صدرها ويديها، طاغية بقوامها الملفوف، وصارخة الجمال، منتزعة من أشد تخيلاتي عنها إبهاراً وتطرفاً، شعر فاحم السواد معقود إلى الخلف، سالفان معقوفان، وجه رائق السمرة، شفتان ممتلئتان، وعينان صافيتان كالبلور، شابهما كدر ألق في غاية السواد.. وقادتني إلى الصالون.

إلى عرائش الصدف والزخرف والموزاييك والصيني والبورسلين، متشابكة مع الديكور المتفرنج الفاقع الألوان. على الجدران. مطرزات لأشجار وارفة، ورعاة وخراف، ونساء ممتلئات تكسوهن ظلال الخمائل، مستلقيات إلى أطراف ساقية، وكيوبيد يرشق سهماً. البيانو في ركن قصي وفوقه العود. صورة أبيها تتصدر الصالون، وإلى الجدران أصص الأوراق الخضراء، يانعة وبراقة.

جلستُ بجوار المكتبة، على الرف القريب، مجلدات مجلتي فونتين وكونفلويانس، على الرفوف العليا توضعت مجموعات شعرية بالفرنسية من منشورات غاليمار وغراسيه ولوسوي، مرتبة بأناقة، تبينت من خلال الزجاج أسماء مؤلفيها، ريفردي، بوسكيه، كايرال، شازال، كوكتو، إيلوار، إستانغ، غيلليفيك، جان جوف، شار، مانديارغ..

بغتة، ظهرتِ أو عدتِ، أمامي كنتِ، حولكِ يتحلق الماء والجفاف والخشب المحفور والأملس، والتراب الرطب والرخو، بأشكال ينساح بعضها إلى بعضها متلاصقة، متعامدة ومتوازية، تشتق تناغمها ونشازها، منكِ أنتِ، المنتصبةِ كتمثال نصفي، صامت ومحير. هل تعمدتِ أن تكوني لامبالية؟! أم كنتِ فعلاً شاردة أكثر منك متسائلة؟! رأيتكِ، متحفزة، وبلا ماكياج، في عز

أنوثتك، وكأروع ما تكون المرأة جمالاً وشحوباً. نبست في سري: أضعتكِ سنوات طويلة.

تمحورتْ أسئلتي حول طرواح، ولم تضفْ إجاباتها الفاترة شيئاً جديداً سوى نزر يسير: طُرِدَ طرواح من سلك التعليم دون وجه حق، تبرَّع له أعضاء المنتدى بمساعدات مادية ريثما تسوّى أموره، وكان يرتاد المنتدى بانتظام، لكن

«لماذا؟!» تساءلت سعاد باستغراب.

«الشرطة تبحث عنه».

«هل مشكلته خطيرة؟!».

«اختفاؤه في هذا الوقت هو الخطير».

«اعتاد طرواح التغيب بين آونة وأخرى».

«غيابه الآن متعمد».

«ما الذي اقترفه؟!».

«عرف طرواح بعنوان غوبلان في بيروت وقابله هناك، ربما كانت له علاقة بموته. وفاة غوبلان لم تكن طبيعية».

«هل قتل؟!» هتفت بارتياع.

«المرجح أنه انتحر».

«لِمَ هو مطلوب، إذاً؟!».

«غوبلان استودعه أوراقه».

لبثت تفكر، وربما كانت تتجاهلني، فأشعرتها بوجودي.

«إن إخفاءها جريمة يعاقب عليها القانون».

«القانون!!» قالت باستخفاف «قانون الحكومة؟!».

«قانون الدولة السورية» أجبت بحدة.

رمقتني بنظرة قاسية. لم أتوقع الاصطدام معها بهذه السرعة. تابعتُ بلطف موضحاً ومحذراً:

«هذه الأوراق سر من أسرار الدولة. أتعرفين عنها شيئا؟!».

«أبداً، لا شيء».

«لقد رعيتِ علاقتهما من بدايتها».

«أسهمتُ بصداقتهما. أهذا محظر؟!».

«هل تعرفين مكانه؟».

«لا.» أجابت بلا تردد.

تلاقت نظراتنا لبرهة مديدة، لم أصدقكِ، تلمّحتُ أنكِ لم تأبهي لعدم تصديقي، على شفتيكِ بوادر ابتسامة طائشة تتكتمينها بجسارة وهزء، كدتُ أن أقول لكِ بأنني أعرفكِ منذ سنوات، منذ أن لعبتِ دورين على مسرح صغير لا تزيد فيه الحياة على فجيعة وكبرياء أو تسلية ومرح، دورين لا جدوى من الخلط بينهما، أشياء كثيرة تغيرتْ. تمنيتُ أن أقول لكِ، أنتِ كما عهدتك، لم تتغيري. لكنني خشيتُ أن يفضحَ تهدج صوتي ما نبستُ به قبل قليل في سري، كنت مُتيقناً أنه سيخونني. مشاعر شتى تتنازعني،

عيناك تأخذانني، فأحسّني قريباً منك، حتى أنني سمعتُ صوت اضطراب أنفاسك. في البرهة التالية، وكانت برهة مثخنة بالإحباط، خطف ذهني تساؤلٌ، لماذا تلبسين الأسود؟!

لم أتمالك نفسي.

«هل تلبسين الأسود حداداً على غوبلان؟!» تساءلتُ بوقاحة.

«موته خسارة كبيرة».

«كان صديقاً لا يرقى إليه الشك.» عقَّبتُ بعدائية.

وجمتْ قليلاً، واستردّتْ بصعوبة نظرتها الصارمة، بدتْ مهزوزة. أحسستُ بحماقتي، كنتُ قد تجاوزت حدي وجرحتها. ورافقتني إلى الباب، حريصة على ألّا تتفوه بكلمة.

9

إثر مبارحة ساندرز لدمشق، علمتُ بتوقفه في بيروت، وتوقعت عودته بعد أيام. كان هذا الفاصل مناسبة كي أفرغ لمشاكلي المتراكمة في الوظيفة. ثم علمت أنه غادر إلى لندن. كان قد أمهلني فترة أكثر مما توقعت.

ساندرز ـــ / فور عودتي إلى بيروت، أرسلتُ برقية إلى فرع الشركة في لندن، أعلمتهم فيها بنتائج مباحثاتي في دمشق. مساءً، دعاني أوستن إلى سهرة بيروتية منوعة، أمضينا الليل نتنقل بين ملاهي الباريزيانا والسان جيمس في ساحة البرج، والكيت كات وكباريه منصور في الزيتونة. هذه هي بيروت، قال أوستن، ليست أكثر من ساحة البرج والزيتونة، لا تنام ليلاً، ولا تقل جاذبية عن باريس في الليل، بل وتضيف إلى الأضواء والموسيقى والغناء والاستعراضات الغربية، سحر الرقص الشرقي الذي لا يضاهى.

تبرع أوستن بكشف خفاياها، وخفاياها الأعمق: الممنوعات.. المباحة، والرجال البدينون المتوارون في زوايا باراتها وكباريهاتها كأشباح متورمة بالظلال، يدخّنون السيجار، وقد انتفخت أوداجهم، يتصببون عرقاً، يدمدمون أو يهمهمون، ويشردون في طبقات الدخان ورغوات الشمبانيا، زاهدين عن أرتيستات حلبيات وشقراوات، تشع أجسادهن ببريق أشد من بريق خواتم الذهب والماس المتوهجة في أصابعهن.

لم يقدمني أوستن إليهم، عرَّفني عليهم من بعيد، مهربون، تجار مخدرات، محتالون عالميون، قوادون دوليون، مزورو عملات رائجة، بغايا من مختلف الجنسيات، قتلة مأجورون، لوطيون.. وجواسيس من أمثاله. /

أوستن ـــ / لبنان أكذوبة اخترعها الفرنسيون، وضعوه تحت رعايتهم موطئ قدم لهم في الشرق، دون أن يفلحوا في جعله أوروبياً. بيروت يتنازعها الطابعان، العربي والغربي، تبدو للعابر المتعجل محيرة بتفردها عن العواصم العربية الأخرى. أما المقيم الأجنبي، فلا يخفى عليه أن في تفردها قدراً كبيراً من الاحتيال. ما الذي تفعله، سوى أنها تعيد إنتاج التقليعات الأوروبية، نحو الأسوأ غالباً، وبنكهة لبنانية سوقية؟!

بار السان جورج، إذا نظرنا إلى خصوصيته العالمية، يجب الأخذ بعين الاعتبار أنه ركن يقع داخل بيروت لكنه منفصل عنها، إنه نموذج مختلف ومراوغ، يبدو على شاكلة بار ريكي في كازابلانكا، أو غريتي فينيسيا بامتيازاتهما السرية وتخصصهما النوعي؛ إذ منهما تطل على العالم. بار السان جورج، يتفوق

عليهما؛ منه تطل على العالم وتتدخل فيه أيضاً!! لمسة مميزة جداً، تتبدى هكذا: أي تغيير وليكن انقلاباً أو تعديلاً وزارياً.. لا بد أن تمر أحد فصوله داخل البار، وإذا وقع بصرك على شخصين يتبادلان حديثاً هامساً، فتوقع شيئاً ما سيحدث غداً، أو في القريب العاجل في إحدى عواصم المنطقة.

إن كانت هذه اللمسة نحو الأفضل، وهي في الواقع خارقة، فيجب أن نسأل، من الذي قدمها؟! نحـن./

دولمونت ـــ /

: ليس بوسع اللبنانيين أن يتفرنسوا كلية، المسيحية واللغة لا تكفيان. حسناً، إنهم يتطلعون نحونا، وسواء كانوا عرباً أو فينيقيين أو ماشاؤوا، فلن يكونوا بأي حال من الأحوال فرنسيين، وهذا لا يؤثر على موقفي منهم، بل إنني متعاطف معهم. ولنكن واقعيين، المصالح وحدها تجعلني أتعامل معهم كفرنسيين. وللسبب نفسه أنا على استعداد كي أكون لبنانياً، لو تطلب الأمر. لكن إلى متى؟! المصالح تتغير. /

ساندرز ـــ / بيروت الخفية مجموعة أسرارها القذرة والتافهة، وأجمل ليالي العمر في كباريهاتها، مجرد تقليد مائع وغث لعروض أوروبية داعرة، والغناء العربي في أفضل حالاته أشبه بالأصوات الملعلعة من المآذن يصاحبه نشاز موسيقى من طبلة وآلة شبيهة بالغيتار وشيء يدعى بالقانون. أما روعة فن الرقص الشرقي، فهز بطن وأثداء وأرداف؛ وسحره، ليس أكثر من دعوة مقززة وصريحة إلى الجنس.

تملكتني حالة من العداء المطلق نحو بيروت، تهاوتْ صورتها التي حملتها زمناً طويلاً في خيالاتي، صورة محتشمة ومكلومة، لا تخلو من رهبنة. من أين جئت بهذه الصورة؟! من حكايات شارلوت، وأسبغت عليها المحن والآلام وشطحات التدين قشرة صلدة وكاذبة، صيَّرتها مثالية ومنكودة وتعيسة. أيقنتُ أنني فقدت نهائيا الشاطئ الذي حلمت به. لم يكن سوى لصاقة، أو قصاصة في حكاية، لن تلتئم مع أي واقع. شاطئ ينبغي نسيانه.

أما دمشق، بحسب أوستن، فبليدة عادة، وصاخبة في مواسم الشغب، وجدتُها بالمقارنة مع بيروت التي لا تنام ليلاً، هادئة ونائمة، ليلاً ونهاراً، تخلو من المتع الحسية، التسلية الوحيدة فيها، ارتياد المقاهي واللعب بالورق وطاولة الزهر، تمتاز بالطبيخ الشامي الذي لم أذقه، جربت حلوياتها المشهورة المصنوعة بالسمن العربي والمحشوة بالفستق الحلبي، كانت لذيذة لكن معدتي لم تهضمها.

أيضاً، بحسب أوستن، لن أجد في دمشق شيئاً غريباً سوى الدمشقيين أنفسهم بدماثتهم المرائية ولطفهم المنافق. أتذكر لقائي معك، لم يسمح لي الوقت ولا الطابع الرسمي بالتعرف إليك، لكنني لم أجدك غريباً.

آسف، لقد ذهبت بعيداً، فلأعد إلى ليلتي الطويلة مع أوستن. امتدت سهرتنا في كاباريه منصور حتى الصباح، واختتمت بمعركة حامية، نجح القبضايات في إخمادها متأخرين، بعد تكسير عشرات القناني وأغلب الكراسي وبعض الطاولات؛ والحصيلة، بضعة جرحى بخدوش بسيطة!!

ارتأى أوستن العودة إلى ساحة البرج، وأن نصطحب من مكان يعرفه امرأة إلى شقته. اعتذرت بأنني لا أتقاسم امرأة مع أحد. قال إننا لن نتقاسمها لأنه سيأتي بصديق. استوضحته: صديق؟! سارع قائلاً، صديقة. أطلق ضحكة عالية، كان مخموراً، وأخذ يجعجع ويداور ملمحاً إلى حفلة لطيفة، بدت جنسية. قلت له فوراً، هذه الحفلات لا تروق لي إطلاقاً. فقال بامتعاض، لا تقنعني بأنك وفي لزوجتك؟! قلت له، أنت سكران. فتوقّفَ عن المزاح أو المراوغة أو المناورة، لا أدري بالضبط، نفض رأسه، عبس، وتكلم جاداً. /

أوستن ـــ / لم تكن دعوتي بريئة وأنا في سبيلي إلى إبلاغه عدة تحذيرات غير بريئة، ولئلا تصله رسالتي غير واضحة، أبديت بعض الشدة ومزيداً من الدقة، نبهته إلى أن عدم مرونة الحكومة السورية دليل على ضعفها، وأن تصلبها سيعطل سرعة وحرية مبادراتها، ويجعلها تحجم عن اتخاذ خطوة فاعلة إن لم نقل حاسمة، وفي المستقبل عاجزة عن الإقدام على أية خطوة مهما كانت ضئيلة لا تستحق الذكر. /

ساندرز ـــ / وكان أسوأ ما سمعته في أسوأ سهرة. بدايةً، استمعتُ إليه ملياً، ورميتُ بكلامه خلف ظهري، لم أحبذ أن يكون أوستن مرجعي الأول في عمل هو من اختصاصي. فجأة، لاحظت أنني يجب أن آخذ كلامه باهتمام وليس على محمل السكر أو النصيحة. كان يبلغني بقراره: لن يشجع أي اتصال جديد مع رئيس الوزراء. قاصداً كل كلمة يقولها وأكثر، والأكثر هو أنه سيعرقل أية مبادرة مني في هذا الاتجاه.

صباح اليوم التالي وقبل أن يحتدم خلافي معه، ويضعني أمام واقع سيفرضه عليَّ بالكامل، تركت بيروت على عجل إلى لندن. /

لم يمنحني ساندرز فرصة طويلة أفرغ فيها لمشاغلي، ولم يدعني أتخيل ما الذي حمله معه إلى لندن أو سيعود به من هناك، وإنما إلى تخمين بواعث ما خلفه وراءه، عندما كشفَ سر النفط، وقدمه هدية إلى المراسلين الأجانب.

في ذلك الوقت، اعتقدتُ بأن جاك ساندرز قد سرّب خبر النفط إلى مراسلي جريدتي التايمز والأوبزرفر، وظهر على صفحاتهما بالسرعة نفسها التي غادر بها، وشكّل خلفية المقالتين، عن وجود مفاوضات سرية أميركية ـ سورية، مع تفسيرين متغايرين. مراسل التايمز كشف عن مباحثات عرقلتها توجهات الحكومة السورية نحو روسيا بإعطائها الأفضلية، على الرغم مما ستثيره من ردود فعل غاضبة لدى الأحزاب المحافظة، بينما اعتبر مراسل الأوبزرفر المباحثات ناجحة، لكنها ستواجه معارضة قوية من الأحزاب الراديكالية. واتفق المراسلان على استنتاج واحد، وكلٌّ على حدة: الحكومة السورية لن تتمكن من تهدئة الأوضاع والاستمرار في الحكم طويلاً.

ولم يبق سوى ساعات معدودات كي تنقل الجرائد اللبنانية فحوى المقالتين، كل حسب اجتهاداتها وتهاويلها مع التحليلات السطحية والعميقة والتوقعات القريبة والبعيدة، ولتتلقفها الجرائد السورية لقمة سائغة للتأويلات والاتهامات السافرة.

قلت لرئيس الوزراء: لم يعد ساندرز طرفاً مقبولاً بالنسبة لنا.

وكانت إجابته: أنا الذي لم أعد طرفاً مقبولاً بالنسبة لهم.

ساندرز ـــ / في مقر فرع الشركة بلندن، عرضتُ أفكاري مجدداً ودافعت عنها قبل أن تلحقني آراء أوستن إن لم تكن قد سبقتني. أكدتُ على أن مواصلتنا التفاوض مع الحكومة السورية بهذه الصيغة الضيقة والمتعنتة، بلا جدوى وليس عملياً، نحن لم نقدم لهم عرضاً، قَدْرَ ما أعلنّا عن مخاوفنا وطالبنا بضمانات لقاء لا شيء فعلي، سوى أننا الأفضل، وكأنه لا يوجد أحد غيرنا، في حين لو قدمنا عرضاً معقولاً فسوف نشجع رئيس الوزراء السوري على تبنّيه والدفاع عنه، ونكون بذلك قد تفوقنا ومنذ البدء على منافسينا المحتملين، وبشرط أن تعمل الشركة بمفردها دون ربط تصوراتها وقراراتها بوكالة المخابرات. وتشبثتُ بإنهاء عملي مع أوستن؛ إنه يريد الحلول محلنا!! لماذا تتحمل الشركة شبهة دسائس، السوريون مستاؤون ومستثارون منها؟!/

أوستن ـــ / عاودنا اتصالاتنا مع الفرنسيين والإنكليز بمعزل عن سفاراتهم. ارتأى الفرنسيون دعم رئيس الوزراء وتحييد الجيش بعدم استفزازه، واقترح الإنكليز انقلاباً يقوم به الضباط المؤيدون لوحدة عراقية ـ سورية، بتحريض من العراقيين ومشاركتهم.

كنا مطَّلعين بشكل كامل على مأزق الإنكليز مع الإيرانيين، كانوا يخوضون معهم مفاوضات متقطعة وشاقة تبدو وكأنها بلا نهاية، أملوا أن النفط السوري سوف يسمح لهم بالضغط على الإيرانيين، وفي المستقبل بتقليل اعتمادهم على النفط الإيراني. رفضنا

الاقتراح الإنكليزي وحذرناهم من القيام بأي تحرك في سورية. كانت مخاوفنا، أن انقلاباً إنكليزياً ناجحاً سوف يدفعهم إلى المطالبة بتحجيم حصتنا من النفط. كما رفضنا الاقتراح الفرنسي لأن كل الدلائل لا تشجع على الثقة برئيس وزراء سيبتزنا كل فترة بمعارضين ومنافسين جدد، حبذنا حكومة قوية قادرة على عقد اتفاقية نفطية تحظى برضا الجيش. قبلوا وتركونا وحدنا، كانوا متأكدين من إخفاقنا الوشيك، بيد أننا كنا قد استفردنا بفرصة سانحة وممتازة، مهدتُ لها بإعطائي روايتين مختلفتين عن مباحثات النفط لمراسلي التايمز والأوبزرفر على ألّا يكشفا عن مصدر معلوماتهما./

ساندرز ـــ / أخفقتُ في تغيير الانطباع السائد في الشركة، كانت برقيات أوستن قد أدركتني، لم يطلعني مدير الفرع عليها لكنني فهمتُ فحواها، كانت تؤيد وجهة نظره: لن نسعى إلى تليين موقف رئيس الوزراء السوري، في سورية لن تجد من يدعم حكومة مستقلة، والأفضل تشجيع الفرصة لظهور حكومة غير مستقلة وأكثر إيجابية، ثم من الخطأ فصل مشاريع الشركة عن السياسات الأميركية في المنطقة في ظل الأوضاع الراهنة، غير المأمونة في سورية، نحن نتوقع حدوث خلافات في المستقبل، ونأمل من واشنطن أن تساعدنا في المنازعات التي ستنشأ. أصررت على عرض آخر وأصرّ على حكومة أخرى، وعُلقت مناقشاتنا على أن ترفع وجهات نظرنا إلى إدارة الشركة في نيويورك. بعد عطلة نهاية الأسبوع، أطلعني مدير الفرع على مقالتي التايمز والأوبزرفر. كان أوستن في بيروت قد وضع حداً لمناقشاتنا في لندن ولوجهات نظرنا التي تدرس في نيويورك، ووضع شيئاً ما

موضع التنفيذ، وبات كل ما يمكنني فعله، اللحاق به، عسى أن أصلح شيئاً، لكن مدير الفرع طلب مني البقاء في انتظار تعليمات جديدة. /

في دمشق، صدر تصريح رسمي مقتضب، يكذب ما تداولته مؤخراً بعض الصحف الغربية عن مباحثات نفطية مع شركات أميركية، أعقبه على صفحات التايمز والأوبزرفر، بيان لمجموعة الشركات النفطية الأميركية، ينفي الخبر.

أوستن ـــ /من التكذيب الحازم والنفي القاطع، الصريحين والمتوقعين للمباحثات التي باتت خبراً ملفقاً، نجحنا في زرع شائعة النفط بين الأحزاب والصحف السورية. ثم أجرينا تعديلاً طفيفاً على خطتنا بإسناد عمل إضافي إلى ساندرز لإشغاله به، يدفعه للقيام باتصالات جزئية مع السوريين عبر رجل أعمال سوري يدعى رأفت حسياني، وهو تاجر صفقات شاي وأرز وحديد يعمل بين سورية ولبنان والعواصم الأوروبية. /

ساندرز ـــ / رجّحتِ الشركة خبرة أوستن في المنطقة؛ تعليمات نيويورك نصت على العمل بتنسيق كامل معه. استقبلني في المطار، في طريقنا إلى السان جورج، حاول تضييق شقة الخلاف بيننا. قال بأنه لا هو ولا أنا مخيرين في تعاوننا معاً، ومن المستحسن أن نتفاهم. وتعهد بعدم التدخل في عملي إلّا في حال ظهور عوائق سياسية، لأن السوريين ينظرون إلى أي أمر مستجد بمنظار سياسي؛ ثم أعلمني برأفت حسياني. لم أرتح للعملية

المقبلة، تضييع الوقت ومن خلف ستار بمؤامرات صغيرة، عبر عميل سوري مغامر وجشع، سيزعم كالمعتاد أنه عليم ببواطن الأمور. /

أوستن ـــ / طلبتُ من صديق مدير مكتب للاستيراد، القيام بتعريف رأفت حسياني إلى ساندرز، بحيث يبدو تعارفهما وليد المصادفة. تمت المصادفة في حفلة كوكتيل أقامها نائب لبناني سابق، هو حالياً وكيل لشركة أدوات تجميل فرنسية. تبادلا حديثاً قصيراً وتواعدا على اللقاء في فندق الاكسيلسيور، حيث يحتل حسياني جناحاً فيه./

ساندرز ـــ / على الضد من تخميناتي، لم يكن حسياني مغامراً ولا جشعاً، كان قومسيونجياً على مستوى دولي. شرحت له مشكلتي في سورية، وتبادلنا الأفكار حولها، وعلى الرغم من أن آراءه تقاربت بالإجمال مع آرائي، فقد اضطررت إلى إخفائها، تلك كانت من سيئات التنسيق الكامل مع أوستن. غير أن حسياني لم يخف عني تصوراته، قال بأن موضوع النفط كبير وشائك، وسيخضع في البرلمان والجرائد لمساءلات واستجوابات واتهامات لن يعفى أو ينجو منها أحد. وقال، إنكم تتمتعون بحظوظ جيدة، سمعتكم ليست سيئة ولا تعوزكم القدرة على المزاحمة. واقترح مباشرة الاتصال برئيس الوزراء شخصياً، إنه صديق قديم ودرايته بالشؤون الاقتصادية عميقة وموثوقة، مع أن حرصه وخبرته سيرهقان المفاوضات، ليس من السهولة عقد اتفاقية معه، غير أنها ممكنة وغير مستحيلة، وستكون اتفاقية جيدة لا غبار عليها، أكفلُ لها الاستمرار، بالطبع، ستطالها التهجمات

السائدة، لكنها تبقى بمنأى عن الانتقادات الحقيقية. اعترضتُ مصراً على عقد الاتفاقية مع هؤلاء القادرين على إسقاط الحكومة في البرلمان. وبيّنت له أن الشركة تأخذ بالحسبان موازين القوى الفعلية. كنت أريد امتحان بعضٍ من أفكار أوستن.

لم يستسغ حسياني ما ادعيته بخصوص وجهة نظر الشركة، استغرب قائلاً بأنها فكرة سطحية وساذجة تجهل واقع الصراع السياسي في سورية، وكل ما سنحصده اتفاقية عرضة للمنازعات وبلا طائل. وبالرغم من استغرابه، عبّر عن إعجابه بنا ورغبته في عقد صفقة مضمونة. وقال متعجباً: إنكم تفكرون بحيوية فائقة كالفرنسيين، وتتصرفون بحذر شديد كالإنكليز!! الإنكليز مقيدون بخططهم المسبقة، لا تستعيروها، لا بأس بقليل من الحذر. قلت له، إنهم في الشركة يعتقدون أن الأحزاب ستتجاوب معهم بقوة، تحقيق الأحزاب لبرامجها الاقتصادية، يعني ألّا تخفق في انتهاز فرصة النفط.

إزاء إصراري، تراجع حسياني دونما اقتناع، لم تفلّ عزيمته، رَكَنَ تحفظاته جانباً. قال إن علاقاته ليست قاصرة على طرف دون طرف، وشبكة معارفه واسعة سواء بين النواب أو رجالات الأحزاب، لكنها ليست كل شيء، عليه أن يقدم لهم شيئاً ملموساً. وتساءل، هل يستطيع أن يعدهم بأن الشركة ستبذل جهودها لدى الحكومة الأميركية بخصوص كسر حظر بيع السلاح لسورية؟! هذا سيساعدنا في المفاوضات وفي البرلمان. قلت له: إيرادات النفط ستفتح لهم أبواباً موصدة، وعلى التحديد، أبواب مشتريات السلاح، ومن أميركا بالذات. أضاف بأنه يتمنى على الشركة الطلب من الحكومة الأميركية عدم الضغط على

سورية للدخول في حلف دفاعي مع تركيا والعراق، لأنها ستشد من أزر المعارضة في المزيد من المعارضة، كما ستثير استهجان الأحزاب المحافظة. وعدته بعرض اقتراحه على الشركة.

سافر حسياني إلى دمشق، نقلت اقتراحه لأوستن، فأبدى انتقاداته بانزعاج: ألا يفهم حسياني أنه يعمل لدينا بالعمولة لقاء مقابل؟ لسنا بحاجة إلى مستشار سياسي، إنه مثل غيره من السوريين، لا ينظر أبعد من أنفه، ولا يهضم عقله فكرة الدفاع عن العالم الحر، بالنسبة للسلاح، وكي نسهل مهمته، فلا ضير من بعض الوعود.. وعود فحسب. /

دولمونت ـــــ /

: لاحت من حركة الاتصالات التي تلقاها السفير بوادر قريبة لإسقاط الحكومة الحالية في سورية. سألته عن موقفنا، أكد أننا سنكتفي بالمراقبة.

: بعد نشر المقالتين، استنكرتُ تصرف أوستن. قلتُ له بأنه يعرقل حركة كرو في دمشق. تلمحت من إجابته أن طرواح لم يعد يهمهم، ومن الأفضل ألّا تكون لكرو علاقة به أو صلة بالنفط. بدا لي أنه صرف النظر عن طرواح وكرو معاً، وربما كان يهدف إلى إبعاد أنظارنا عن طرواح بالدرجة الأولى.

: على الرغم من تعليمات الخارجية بالابتعاد عما يجري في سورية، ألحت في الوقت نفسه على ألّا نفقد اتصالنا بكرو. /

لم تخلف دزينة المقالات التي نشرت في الجرائد اللبنانية والسورية ذيولاً على الساحة السياسية، رغم أن معظمها علّق على التكذيبين بأنهما كاذبان، وهناك ما يعتمل في الخفاء، كما لم يتعرض رئيس الوزراء إلّا لاستفسار من رئيس الجمهورية، أجاب عنه: ليس لدينا ما يثبت وجود النفط ومن التحوط إنكاره. كذلك، بدا لرئيس الجمهورية أنه من الحكمة ألّا تقوم قيامة الأحزاب والبرلمان من غير دليل دامغ.

ساندرز ـــــ / أنا معك، لا وجود لمدن تبقى على حالها ولا تتغير، أوهامنا هي التي يجب أن تتغير، وغالباً ما نحتاج إلى صدمة لننعتق منها. أعرف، المشكلة نحن، المشكلة فينا، نظن إذ نقصد مدينة عربية أننا خدعنا عندما نجد أنفسنا وكأننا لم نغادر المدينة التي نقطنها. خديعتي كانت مزدوجة، رأيت بيروت من خلال أوستن. ألم يتطوع لكشف أسرارها؟! في حين لم أر منها سوى منطقة الفنادق، بالإضافة إلى بعض المناظر الخاطفة التي يحظى بها سائح من نافذة سيارة أجرة مسرعة. هذه حقيقة.

الحقيقة الأخرى: صورتها المحفوظة بين تذكاراتي، انتهكها الواقع بفظاظة. بالنسبة لي، كان التغيير صاعقاً ومؤلماً، والنقلة هائلة، من أحلام الإخلاص والتضحية إلى وحل الفجور والاستهتار. هل تمكنت من تفسير حالة العداء التي اعترتني؟! لا، لم أتمكن:

ليلتئذ، لم يخطر لي أن إرنست مات في هذه المدينة فحسب، وإنما في ليل هو الليل نفسه، لكن بلا أضواء، ومن غير ضجيج. ليلة سبقتها استعدادات إرنست وبيردي الطويلة، وكانت على

عجل، للسفر إلى الأراضي المقدسة، دون أن يعلما أن المرض الغاشم وبدوره، كان قد سبقهما، واستكمل بخفة إجراءاته الأخيرة، مرسلاً بإرنست وعلى حين غرة، بحالة طارئة إلى المستشفى، حالة يائسة ومنتهية.

أذهلهم ظهور المرض القاتل السريع، وفتكه الأسرع، واستشرؤه تحت إهاب شاب متين البنية بهيّ الطلعة، طيب القلب وثابت الجنان. كان وبمنتهى الغبن، مريضاً غافلاً، ومن غير جدال، بلا أدنى أمل، وفي عداد الأموات، يتساءل أكثر مما يفهم، يتعجب أكثر مما يتألم، عن الداء المتسلل سراً وبضراوة إلى حنجرته: مصدر الصوت والكلمة والحجة والهداية!!

قبل أن يختفي صوته، أعلن عصيانه بتساؤل ملحد: لماذا الموت؟! كان التساؤل مأثرة الشك، والموت إنكار للرب. معركة لم يصمد فيها طويلاً، صرعه الخوف، تحللت قواه الإلحادية وارتد خائر العزيمة إلى أحضان الإيمان والأسرار، طائش الصواب، مسلوب العقل ومرتج الفؤاد، في قبضة الله الجبار المتجبر العتيد، دونما رجاء من ألطاف الله العادل الشفوق، مضطجعاً بلا حَيْل، يرتعدُ قانطاً من رحمته وصمته، تُبهظه الخطيئة الأولى، دموعه لا تهدئ من غضب الله المتجهّم وقضائه المحتوم، يرفع إلى العذراء صلواته وضراعاته وتوسلاته، وطلباً صغيراً: أيتها الأم الرؤوم، أمدّيني بالحياة، أقضيها في هداية المسلمين؛ يا عذراء، أسعفيني ببضع سنوات، أدلهم فيها على الله.

على حافة الموت، مذعوراً من الموت، إلى درجة الموت، كادت لوثة الموت أن تأخذه، وليس الموت.

عندئذٍ، دخل القس دافيد بيرج المكانَ الذي ربضت فيه المنيّة بأثقالها وبراثنها وكتمت بصيص الحياة والأمل. تقدم القس طويل القامة، أبيض شعر الرأس واللحية، محنيّ الظهر، يظلع متكئاً على عكازه، وثمة من يمشي إلى جواره، يفسح له الطريق، ينادي معلناً عنــه: القسيس بيرج.

رأته شارلوت يجر إلى الأمام أعضاءه المتهاوية، ويسحب من صدره أنفاسه المتهاوية، ينوء بإشارة الرب الذي انتزعه من خلوته وكتبه وتعليقاته وشروحه وهوامشه، ليهدئ من روع قس صغير السن، ضيّع اقتراب الموت رشده، وأضعف ورعه في الوقت الذي كان فيه بأمس الحاجة إلى التمسك بإيمانه.

في تلك الأمسية اللاغطة بالعرق والدموع، والمديدة بالأرق الطاحن، أفضت الأوجاع الرهيبة بإرنست إلى سكينة هدنة اليأس والآلام المبرحة، مقيداً إلى، أو في إسار اللاشيء الذي طالعه صباحاً قبل سنوات على صفحة بيروت، ينوس بين اللون اللازوردي والضباب الخفيف، ينوس معـه ويتفحصه بوهن وأناة، فتذهب عنه ألوانه، ويتبينه لا شيء فعلاً، وأنه بعد إغماضة عين سيصبح ـ هو ـ شيئاً من هذا اللاشيء، الذي هو كل شيء.

ظهر القس بيرج من هذا اللاشيء، وبظهوره تراءت المرئيات واللامرئيات؛ الجدران الشاهقة المتشحة بالستائر، السقف العالي الموشح بالظلال، السرير النحاسي، الأغطية السميكة، الراهبات بمراييلهن كحلية اللون، الملائكة النورانيون بأجنحتهم بيضاء اللون، والشيطان، بنواياه سوداء اللون، فأربطة شاش، إبريق ماء، كأس، قطارة. وشارلوت جلد على عظم، وغارقة في الدهشة.

لم يأت بيرج بناء على طلب أو توصية من أحد، جاء لأنه فَرَغَ قليلاً من رياضاته الروحية، وتذكر شابين كانا قد طلبا مقابلته منذ خمس، أو ست، أو ربما سبع سنوات. سأل عنهما. قالوا له، أحدهما يحتضر في مستشفى الأميركان. لم تفته، وهو يقترب خالي البال من الشاب المسجى، ملاحظةُ أن السيدة الصغيرة حدَّقت فيه بإمعان، ثم انحنت برأسها على المريض، ألصقت فمها بأذنه، قالت شيئاً، فدبت الحياة في الجسد الهامد، نهض المريض بجذعه معتمداً على ساعديه، وبحلق فيه غير مصدق، كان بيرج، الشخص الذي لم يره من قبل أبداً، حاضراً أمامه وعلى قدميه!! التفت إلى شارلوت متضرعاً، خائفاً أن يفر بيرج من جحيم تصوراته قبل أن يخلصه من لهيب أسئلته. وإذ تضرعت شارلوت إلى بيرج بصوت مخنوق، تأكد إرنست أن بيرج حقيقي، ودون أدنى جهد، تغلَّبَ على اختفاء صوته، ولفظ سؤالاً كان عالقاً علـى لسانه:

«هل التبشير خطأ؟!».

أدرك بيرج أنه لم يعد خالي البال، رغم.. ما أقل الإجابات التي بحوزته! لكنها تفي بالغرض. فيما كانت السيدة الصغيرة، تسبر غوره وترى إشارة الرب جلية. وبيرج، يرى إشارة الكفر جلية.. لا، لم ينتزعه الله من خلوته من غير سبب، لم يأت عبثاً إلى هذا المسكين الذي أقض مضجعه التبشير في ساعات احتضاره، كاشفاً عن مرض آخر، كان في روحه وصار في عقله. لمس يده.. كم كانت باردة؟! تأمل وجهه الملطَّع بالحيرة والمكدود بالعذاب والمحفور بالألم، أحس هو أيضاً بالحيرة والعذاب والألم. أليس طرحه لهذا السؤال يعني أنه استعمل عقله ولم يحسن

استخدامه؟! أم أنها مسائل لاهوتية روبصها العقل واكتفت به؟!

السبب، العقل نفسه، لكن تتآكله روحانية عميقة، قاتلة وفاسدة.

ومهما كان، أو لم يكن، فقد خفف الله عنه أعباءه الدينية، وأرسله إلى المبشر الشاب ليخفف عنه آلام آمال، لم.. ولن تتحقق.

«بنيّ، أصغ لي، الله يحبك، وفر عليك مسيرة خائبة».

وسيمضي حديثهما هامساً ووئيداً، والذي سيراهما من بعيد سيظن أن إرنست يتندم وبيرج يباركه أو إرنست يعترف وبيرج يغفر له، أو.. ما أكثر ما يمكن قوله في مثل هذه المواقف.

شارلوت التي كانت تسمعهما بوضوح ستقول، كم كان همس بيرج صاخباً وثقيلاً؟!

«سأفشي لك سري، أنا مثلك، جاء بي إلى الشرق: كنيستي وإيماني وحماستي.. وجهلي. ظننت أنها بلاد بدو رحل وفلاحين، بلا عقائد ولا أديان، وذقت الأهوال من جراء ظني هذا، لم تكن مشكلتي مع السلطات الحكومية والمحلية، كانت السفارات والقنصليات تحميني وتنقذني. ولم تكن مع الناس العاديين من المسلمين، كانت مأساتي مع نفسي، المكابرة والكبرياء والغرور. لم أتأخر طويلاً في فهم أن للمسلمين ربهم، لكنني عاندت في أن ربهم هو ربنا، وأننا لا نتفوق عليهم في الإيمان، دينهم أيضاً ينهى عن الكذب والسرقة والزنى، وتعاليمهم تحض على الخير والبر والإحسان وبذل المعروف بلا مقابل أو أجر والامتناع عن تناول الخمور. ما الذي مما لدينا وليس لديهم؟!

قابلت كثيراً من المسلمين الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والتواضع والحكمة، وأظهرتُ لهم أسفي لأنهم لا يشاركوننا إيماننا بالمسيح، وكان أسفهم حقيقياً، يضارع أسفي، ولا يقل حرارة عنه، وتمنوا صادقين لو أنني شاركتهم الاعتقاد برسالة نبيهم محمد خاتم الأنبياء، وإيمانهم بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد. تمنوا هذا من صميم قلوب انفطرت بالأسى على حالي، ولم يرغموني على هذا الخير العميم. لماذا؟! كتابهم، القرآن، يقول شيئاً بهذا المعنى.. لا تهدي الإنسان الذي تحبه، إن الله يهدي من يشاء.»

على الرغم من تعرق أرنست ولهاثه، فحَّت كلماته مبحوحة ونازفة:

«هل القرآن كلام الله؟!».

«هذا ما يعتقدونه».

تداعى صوت إرنست ساخناً كالنار:

«أنت، ما الذي تعتقده؟!».

«إنني أصدقهم».

انتفخت أوداجه وزاغت عيناه، وبقَّ سؤاله مرعوباً:

«أأنت مسلم؟!».

«أنا مؤمن».

ثأثأت الكلمات على شفتيه الجافتين.

«هناك من يؤمن بالحجر».

«أنا مؤمن بالله».

زمجر قبل أن يغرق في عرقه:

«أي واحد منهم؟».

«الرب، يسوع».

خشخشت الكلمات كما الأشواك:

«كلمة الله الشافية لم تشفني».

«الله اختارك».

تحشرج حلقه بالعرق:

«ربِّي، لِمَ ناديتني؟!».

احتضنته شارلوت، أسندت رأسه إلى ذراعها، مسحت وجهه بالمنديل، وأخذت تنقط له الماء على شفتيه. تعالى صوته مشدوداً ومبلولاً، مخاطباً الرب:

«أكان صوتك أم صوت الشيطان؟!».

هتفت شارلوت بهلع:

«إرنست، لا تجدف».

أدنى بيرج فمه إليه، وهمس في عينيه:

«الشيطان لا ينادينا إلى الأراضي المقدسة».

وفَّر القس بيرج على إرنست الندم على رحلة غير قادر عليها، وقضى نحبه بهدوء، بعد أن أودع بيرج رجاءه الأخير «صلِّ لأجلي أنا الميت» مات أثناء إغفاءة هانئة، مرتاح البال وغير مرتاح الضمير، هذا ما قالته شارلوت. أما الموت الذي منع إرنست من بلوغ هدفه، فسيحبطها عن مواصلة طريقه، وسوف تغادر شارلوت الحزينة المدينة التي ربطتها بالرجل الذي أحبته، مات فماتت بيروت، والقدس لن تكون هدفها، ولن تراها أسوة بالرجل الذي لن يراها.

بينما اعتقد بيردي أن موت صديقه الوحيد تحذير له على خذلانهما الصوت الذي سمعاه في باحة أندوفر، وسيردد النداء الذي عاد يؤرقه بعد موت إرنست، يقرِّعه أو يهدده: لا بد من القدس.

على رصيف الميناء، وقف بيردي يودعنا. تساءلت أمي:

«لماذا جعل الله مسقط رأس ابنه في بلادهم؟!».

وسينكر بيردي عليها دهشتها أو استنكارها:

«لا، ليست بلادهم، إنها بلاد المسيح».

وبثّها خوفه أيضاً:

«هل سأكون جديراً برسالة الله؟!». /

10

وضعنا كرو تحت الرقابة بوسائل محدودة، مستعينين بملازم شرطة مخفر المرجة، الذي أوعز لأحد عناصره بتعقب كرو إثر عودته من موقع الحفريات وترحيل أفراد البعثة. علمتُ من الملازم أن كرو يقضي وقته متجولاً بين أزقة دمشق وحاراتها وأسواقها القديمة، يزور المساجد والكنائس ومقامات الأولياء. في اليومين الأخيرين، عرّج على بيت السيدة سعاد مرتين قبل أن يأوي إلى فندقه ليلاً، والبارحة زار سفارته. عزمت على الذهاب للقائه في مطعم البرج الفضي.

رأيته منزوياً إلى طاولة في محاذاة الواجهة الزجاجية العريضة، الستائر المغلقة تحجب دخلة الفردوس، الزبائن قلة، ونادل وحيد. مروحة السقف تدور، الجو الهادئ يغري بالنعاس، والمقاعد الخشبية المستقيمة الظهر لا تساعد على الاسترخاء. كان قد أنهى

طعامه لتوه.

أبلغني مسروراً:

«لن يتوقف عمل البعثة طويلاً.»

متوقعاً أن تثمر جهود السفارة خلال أسبوع أو أسبوعين، وعدوه خيراً، قضيتهم تدرس بإمعان في باريس، من جهته عمل حسابه مقدماً وترك الخيام على حالها مع بعض اللوازم والأدوات والأمتعة بحراسة عمال البعثة.

«سأكمل ما بدأه غوبلان».

أزاح الستارة قليلاً، لمعتْ حزمة وهج على صقال الزجاج، وبان الشارع ساكناً يحترق تحت صهد شمس الظهيرة، رجل مسرع، متسول يجر قدميه عند ناصية الفردوس، دكان بائع العصير فارغة، سيارة شيفروليه مركونة إلى الرصيف.

«لن يستطيع أحد إنجازه على النحو الذي تمناه».

«هل يتمتع غوبلان بخبرة لا يتمتع بها غيره».

«لا أقصد خبراته ولا مهاراته، أقصد مزاياه، إنها فريدة، وربما من هذه الناحية، ينبغي كبحها أو تقليمها».

انحرف بنظره عني. قلتُ:

«لم أفهم تماماً..».

كان يرمق شيئاً ما يقبع خلفي في العتمة الوانية، سمعتُ حركة

خفيفة من ورائي، لم ألتفتْ.

«هل تعني..»

سارع وقاطعني:

«كان يشطح في تفسيراته».

«معلوماتي عن الآثار تكاد تكون معدومة.» قلتُ معترفاً.

«حينما عمل في العراق، وَجَدَ آثاراً مختلفة، عكستْ برأيه تأثير اليونان على الشرق، ورغم أن الحفريات دلّت على مدنية متقدمة وتنظيم اجتماعي مستقر، ينبئان عن تفوق مادي وروحي، حاول البرهنة على أنهما لا يدلان على حضارة أصلية، ولا يكشفان عن استقلال ثقافي حقيقي. بالطبع، كان محموداً له أنه لم يكن ميالاً إلى تعتيق اكتشافاته، بيد أنه كان أسيراً لأفكار مسبقة استحوذت عليه، وهي أنه إذا كانت اليونان المغلوبة قد طبعتْ الغرب اللاتيني بطابعها، فإن فتوحات الإسكندر قد طبعت عالم البرابرة بالصبغة الهيلينية، فتعرَّضَ في الأوساط العلمية لانتقادات شديدة، أهمها أنه يحفر في مواقع سبقت التأثير الهيليني. في سورية، طمح إلى إثبات شيء مماثل، وكان عملنا على هذا المنوال طويلاً، بلا فائدة ودون مردود».

«ألم يوفق إلى شيء؟!».

«ربما لو امتدت به الحياة لعثر على دلائل، تُخيبه ويعاندها، سيجد أن من أرادوا هَلْيَنَةَ سورية قد تشرّقوا، الهلينية ظاهرة شرقية أكثر منها يونانية».

«برأيك، كان سيضطر إلى التراجع!!».

«لا، إن مخيلته، كما ذكاءه، لا يتحفظان».

«لكن ذكاءه فاق خياله».

نظر إليّ مستفهماً، فأكملت:

«كان لديه أكثر من عمل وهدف..».

«النفط!! لا، إنه هفوة ارتكبها».

«هل كنت على علم بالنفط؟».

«علمت به مؤخراً، ولم أسع لمعرفة المزيد.» وتابع بصوت خافت وحازم: «النفط لا يهمني.» محدداً وبيقين «ما أسعى إليه لن يروق لهم».

لم تستوقفني كلماته، ربطتها بعمله في الآثار، أما هو، فقد تنبه لما تفوه به، وأراده أن يبدو عابراً، فأردف:

«لقد أحسستُ بالمرارة التي أحسَّ بها، وهو يَعِدُ طرواح بإصلاح ما أفسده، لكن في بيروت خرجت الأمور من يده، بينما هنا اتهمه طرواح بالتواطؤ مع الأميركيين».

«كيف عرف طرواح بالأميركيين؟!».

«اتصل غوبلان من بيروت وأعلمني، فأعلمتُ طرواح الذي ثار غاضباً، بدا من فرط ثورته وكأنه سيقدم على حماقة فظيعة».

«ربما أقدم عليها».

«على التأكيد لا. عندما بلغنا خبر موت غوبلان، ذهل طرواح وندم على اتهاماته، أنا كذلك خامرتني الشكوك حول مقتله. بل وشككت بطرواح، لكنهم في السفارة أكدوا انتحاره».

لفَّنا الصمت، ومع أن ملامحه لم تفصح عن شيء، أحسست بشكوكه ما زالت تدور حول طرواح، وأنه لم يصدق سفارته. سهوت عنه قليلاً، ثم سمعت صوته:

«لا بد أن السيدة سعاد تعرف مكانه».

«لقد أنكرتْ».

«حاولتْ إقناعي بالتعاون معه».

لاحظ استغرابي، فعقَّبَ:

«إنها سيدة رائعة، محضتني مودة صادقة».

ودفع بي إلى دهشة أكبر. سارعتُ قائلاً بسخرية، أفلحتُ بصعوبة في إخفائها:

«وأسبغتْ عليك رعايتها».

«غمرتني بمشاعر طيبة، لقد فاجأتني».

موحياً إليَّ أن مشاعرها الطيبة استلطاف يتجاوز المودة، ومظهراً لي، عن قصد، كَرَمَ عواطفها نحوه، ومع هذا أبدى وبنظرة استخفاف عدم اكتراثه بها وبعواطفها:

«سمعت أن هناك تغييرات قريبة».

«هناك بعض التغييرات.» تساءلتُ بلا مبالاة: «أيَّها؟!».

«الأحزاب في البرلمان تُعِدُّ خطة لسحب الثقة من الحكومة».

مرَّر لي هذا الخبر كي أسأله المزيد، لم أبد فضولاً، كانت على وجهه ابتسامة تدل على أن في جعبته كماً لا بأس به من الأخبار الهامة. أجبته بلهجة جافة:

«سمعتَ من سفارتك أخباراً كاذبة».

وبحذاقة تحولت ابتسامته إلى تعبير بلا معنى، أدركت أنني إزاء رجل بارع في لفت الأنظار، وربما أضعتُ عليَّ سراً ثميناً، لكنني في تلك اللحظات، جهدت في عدم إظهار ضيقي، لأن الخبر الذي سمعته منه لم يلقه لاستدراجي، بل قد يكون صحيحاً، والمغيظ أن أعلم به منه، وليس بوسائلي، وربما كان هذا سر تفاؤله واطمئنانه إلى جهود باريس. لم أستوضحه، كان هناك ما صرفني عن الحكومة والأحزاب.

تراءى لي، أنكِ أوقعت به، بيد أن ملامحه لم تش بذرة تعبير جلية، كأنه لا يشق عليه تمثيل أنكِ لا تعنين له شيئاً خاصاً، وأيضاً، لا يد له في ما جرى بينكما. بعد حين، كنتُ على يقين بأنه هو الذي أوقع بكِ، بينما كنتِ تتوددين إليه، وتظنين العكس.

كنتُ في دوامة، غيرتي عليكِ ولهفتي إليكِ، ونقمتي عليكما.. دوامة قادتني إليكِ.

مضطرباً كنتُ ومشتت الذهن، وحيال سعاد أصبحتُ غاضباً. كانت بفستانها زاهي الألوان، وشعرها المنفلت على كتفيها، قد

أنهت جِدادها على غوبلان، وعزمت على اصطياد خَلَفه. خاطبتُها دون تكلف، مباشرة من غير تحرز:

«إنك بتخفيك على طرواح، تتهورين بعمل لن تحمد عقباه، النفط لم يعد سراً مقصوراً عليك وعلى أصدقائك الفرنسيين».

اضطربتْ كما أنا مضطرب، وأصبحتْ أكثر غضباً مني، رازتني بنظرة حانقة وكظمت غيظها، وقالت بصوت هادئ، وكان متشفياً:

«هل لديك القدرة على تصحيح معلوماتك عن النفط؟!».

راودني ألّا أنساق لها، والإبقاء على فاصل من عدم الثقة بها، كانت سعاد التي أسقطتني في المرة الماضية في شراك حزنها، تخادعني الآن بتساؤل كاذب.

«ما الذي عليَّ تصحيحه يا ترى؟!».

«أن أحداً لم يتيقن منه!!».

«طرواح اخترعه.» قلت مازحاً.

«ربما، وربما تراءى له وصدقه.» قالت بالمزاح نفسه.

فلم أخف سخريتي:

«إذاً، سأصدقك».

فقالت جادة وبدقة:

«صدّق، إنه أمر وارد؛ وصدّق، أن أحداً لم يجزم به».

زجّتني في دوامة أخرى من مأساة وتحقيقات وملاحقات وملابسات، وفرنسيين وأميركان، سلسلة بات يستحيل إيقافها أو حتى إبطاؤها، بدا فيها طرواح، وهي تتكلم عنه بالتفصيل، رجلاً مترفعاً عن كونه أستاذاً في التجهيز، مطروداً مغبوناً، من غير أن يأخذ حقه من التقدير، ونكرة على الدوام، ثم المعروف فجأة في حلقة ضيقة من المثقفين؛ بعد أن ألقى في المنتدى محاضرتين عن جيولوجية سورية. شجعته، فأحس بمكانته، وأخذ يُشعرها بأهميته، اصطفاها لسره وقدمه لها عربوناً خالصاً على عرفانه بالجميل نحوها، فعرَّفته على غوبلان الذي اهتم به من جراء إلحاحها عليه. تفقدا معاً عدة مواقع محتملة للنفط، غوبلان لم يقتنع، كانت الدلائل برأيه غير كافية وتبقى في حدود التخمينات، عدا افتقاره لمعدات تساعده على القيام بحفريات وتحاليل تحسم أمر النفط، بل لمَّح مرة إلى أن الدلائل ربما دبرت عن عمد!! إزاء إصرارها، اقترح غوبلان عرض الأمر على سفارته للاستعانة بخبراء، في السفارة سرعان ما احتضنوه وسرعان ما نبذوه. لكن، المستغرب هو أن الأميركان تلقفوه واعتبروا النفط مسلّماً به. من بيروت، بعد أن أسقط سفارته من حسابه،كتب إلى طرواح رسالة محيرة، عن اعتقاده بأن للأميركان مصادر أخرى تؤكد وجود النفط، ومتخوفاً من إرغامه على شيء لم يحدده، كان واثقاً من أنهم لن يساعدوه على العودة إلى دمشق. لذا أرسل أوراقه إلى طرواح مع رسالة تبرر موقفه؛ الرسالة لم تنبئ عن رجل قانط.

ولخصت سعاد ما حلَّ بغوبلان:

«لقد أزاحوه».

«الأميركان؟».

«ومن غيرهم؟!».

«لماذا رفض التعاون معهم؟».

«كان غوبلان يمقتهم، كما كان صادقاً في شغفه بسورية. اعتقدَ أنه في حال العثور على النفط فإن فرنسا ستكون شريكاً منصفاً، وبوسعنا الانفتاح على العالم تحت مظلة فرنسية، حَلمَ بأن تلعب فرنسا دوراً جديداً، مختلفاً وطيباً، وكانت فجيعته كبيرة.»

«هل نصحك كرو النصيحة ذاتها؟».

«كرو يختلف عن غوبلان، تمنى أن نتجنب ارتكاب خطأ لن نغفره لأنفسنا في المستقبل، النفط قد يكون كارثة لا يمكن التكهن بنتائجها».

«آراؤه مدهشة».

«لو أنك عرفته معرفة وثيقة لأدهشك أكثر بإخلاصه».

«للأسف، لم يتح لي معرفته معرفة وثيقة.» علقتُ بخبث.

«كما أنه شاعر رقيق، يكتب شعراً في منتهى العذوبة».

وكانت تتكلم بمنتهى الحنان. قاطعتها:

«قال كرو إنك تعرفين مكان طرواح، وطلبتِ منه التعاون معه».

«سألت كرو إقناع طرواح بتسليمكم أوراق غوبلان».

«أين طرواح؟».

«لن يذهب بعيداً، ستعثرون عليه، لجأ لي ورفضت إيواءه في المنتدى».

«يبدو أنك تركته لحظّه العاثر».

«طرواح لم يعد يثق بي، صار متطيراً وموسوساً، لا أفهمه، أساليبه لا تعجبني، أشك في أنني عرفته».

لم أخطئ أفول نجم طرواح ونقمتكِ البالغة عليه، في الوقت الذي محضتِ كرو ثقتك الكاملة وإعجابكِ الخالص.

قلت لكِ مستغرباً: هل تعرفين كرو جيداً؟!

رددتِ متباهية وبرقة: علاقتي به أكثر من ممتازة.

وأشرقتْ ابتسامة خجول على محياك، وفرّت من عينيك لهفة شفافة، سر لم يعد بوسعكِ إخفاؤه، كنتِ على وشك إعلان علاقتك الحميمة به.

انتظرتِ مني كلمة، أشجعك بها على الكلام، كي تبوحي بغرامك. كنتِ بحاجة ماسة إليّ، كرفيق تفضين له بمكنونات قلبك.

قلتُ لكِ: عليّ تحذيرك منه.

ضحكتِ ضحكة خالطها الحياء، وسرعان ما انطبعت على وجهكِ

ملامح المرأة المولهة اللامبالية.

قلتِ: لا تحذرني، لقد قطعنا شوطاً جميلاً.

رثيتُ لكِ: ومع هذا احتاطي منه.

لم تبارحكِ الابتسامة، كان تحذيري قد فات أوانه. أنا لم أكن بائساً، ألم تمنحيني مكاناً أثيراً بقربكِ؟!

ختمتُ جلستي بلباقة:

«أتمنى أن أسمع عنك أخباراً سارة».

«ستزورني وتسمع مني».

«أتمنى فعلاً».

كنتُ أقصد أخباركِ السيئة.

لم تراود رئيس الوزراء فكرة تقديم استقالته، كان بقاء الحكومة أمراً مفروغاً منه، على الرغم من علمه باتفاق حزبي الشعب والوطني على توحيد جهودهما لسحب الثقة من الحكومة، على أساس مسؤوليتها عن التقصير الحاصل في استدراك السلاح من الدول الأجنبية. لم يُؤخذ رئيس الوزراء بتحالفهما، قائلاً لي بأنها افتعال لقضية متعبة لنا وخاسرة لهم، لقد شاركا إبان عهود وزاراتهم في طلبات السلاح وكانوا أول العارفين بملابساتها، وإذا كان ثمة تقصير، فهو تقصيرهم، أما إذا تمكنوا من ضم المعارضة إلى صفهم فلن يعدموا قضية فيها من الضجيج قدر كاف لإسقاط الحكومة.

قبل اندلاع الضجيج، طلب السفير الأميركي مقابلة رئيس الوزراء. خلال المقابلة، عبّر السفير عن أسفه للشائعات التي تتناول الحكومة، وتمنى أن تكون مجرد شائعات فقط، وأعرب عن استعداده لتأييده شخصياً، بإرسال مذكرة برقية، وبشكل عاجل، إلى حكومته يقترح فيها بيع سورية كمية من الأسلحة، مع توصية بالقبول، وملاحظة مهمة؛ إذا لم نُقْدم على بيعهم السلاح، فالروس سيفعلون. الكمية عبارة عن صفقة صغيرة، إلا أنها ستسهم بدعم الحكومة في البرلمان.

شكره رئيس الوزراء، وثمّن بادرته عالياً، ثم قال مستغرباً:

«سعادة السفر، في بعض الأحيان تحيروننا، سأسألك سؤالاً، ولا أدري إن كانت الإجابة عليه سراً. هل يمكن أن تقول لي من الذي يمثل حكومة الولايات المتحدة الأميركية في سورية، سفارتكم في دمشق أم وكالة المخابرات في بيروت؟!».

«دولة رئيس الوزراء، أنا ممثل حكومة الولايات المتحدة الأميركية في سورية، هل أستطيع معرفة سبب طرحك السؤال؟! تأكد أنني لن أعفي نفسي من اللوم، في حال كنت قد أسأت إلى بلدكم».

«لقد عرضت عليَّ عرضاً متواضعاً، يعتبر في هذه الظروف العصيبة كريماً جداً، وأنا بصراحة بحاجة إليه، في حين، ومنذ أكثر من أسبوع، يحاول المستر أوستن في بيروت وبشتى الوسائل زعزعة مركزي. هل أعتبر الحركتين مرتبطتين أم منفصلتين عن بعضهما البعض؟!».

«دولة رئيس الوزراء، لا أريد نفي علاقتنا بالمستر أوستن، لكن إذا كان الخبر صحيحاً، فهذا يزعجني جداً. صدقني، وبعيداً عن الرسميات والمجاملات، أن لا معلومات لدي حول هذا الموضوع، وليس بمتناولي أي تفسير له».

لم يحظ سعادة السفير بجواب من الخارجية الأميركية، أو حظي بجواب سلبي، ولم يبلغ رئيس الوزراء بفحواه.

دونما مسوغ واضح، أبدت أحزاب المعارضة تشدداً بامتناعها عن مناصرة حزبي الشعب والوطني، إزاء فرصة طالما تحينوها بلا

طائل، لا سيما أنهم جهدوا دائماً للظفر بموطئ قدم في أية حكومة؛ الأخبار المتسربة أشاعت أنهم لن يشاركوا في الهجوم على الوزارة فقط، وإنما سيوالون هجومهم على حزبي الشعب والوطني أيضاً، مُشهّرين بهما، مُجهضين حملتهما بحملة شعواء أكبر، أملاً بالحصول على مقاعد وزارية أكثر. تريثت الأحزاب، وبدأ المراسيل مساعيهم بينهما في مساومات عشوائية طالت، ثم تراجعت.

في تلك الفترة، زارتني سعاد في مكتبي. كانت المرأة الجميلة في أسوأ حالاتها، عاشقة وعليلة وقلقة، ولديها أخبار عن تحركات طرواح استقتها من أصدقائها رواد المنتدى، من الشخصيات المثقفة الميالة لأحزاب المعارضة: طرواح ظهر في أوساطهم، أسرَّ لهم بمعلومات وحصل منهم على وعود، المعلومات تكتموها والوعود سَوَّفوها إلى أجل قريب. تساءلتُ:

«هل طرواح صاحب برنامج، أم رجل ملهم؟!».

«إنه يتخبط».

وبتخبطه مع المعارضة، شلَّ الأحزاب المحافظة عن الحركة، وقدم لنا خدمة دون أن يدري.

«ألن تحدّوا من نشاطه؟!».

«إذا قبضنا عليه فسوف تتصدر قضيته صفحات الجرائد، لا أعتقد أننا نرغب في إثارة المعارضة ضدنا بعد أن أصبح في صفوفهم».

لم يكن هذا، إطلاقاً، ما جاءت من أجله، وإنما لتسألني منح كرو

مهلة أخرى، ورغم ملاحظتها أنني لم أكن راضياً عن طلبها، فقد وعدتها بأن ألتمس من رئيس الوزراء تمديد المهلة.

«هل أنا مخطئة بتوسطي لكرو؟!».

«ربما كنتِ على صواب».

«أثقلتُ عليك».

لم أرد للحديث أن يطول فاختصرته بمزحة.

«اطمئني، لن نضمك إلى قائمة المشتبه بهم».

شكرتني كثيراً ومن قلبها. رغبتُ إزاء امتنانها، في أن تعرف مكانتها لدي.

«سعاد، لن أرفض لك طلباً».

وربما أدركت مدى ضعفي أمامها.

لم تفتني نظراتكِ المتحيرة، مشاعري لم تخف عليكِ، أحسستِ بما أكنه نحوكِ، كان يتجاوز الاهتمام، وأقرب إلى الحب. أقول لكِ، كان ولهاً.

ما تلمحته في عينيكِ؛ رسالة، لماذا لم أفهمها؟! حينئذٍ، لم يكن شيئاً أقرب إلى الحب. قولي، ألم يكن الحب؟!

بغتة، أشعرتني بقلقها.

«لم أر كرو البارحة».

قالتها برعونة وضيق، وكأنها تشكوه إليّ. لم أفه بكلمة، ولم تطل بقاءها.

علق رئيس الوزراء على تحركات طرواح بأننا سنتركه لهم، على كل حال حددنا مكانه، بات بمرمى أبصارنا، بالنسبة لكرو لا مشكلة في بقائه.

اتصل كرو بي مساء، عاجلته بأنه يستطيع البقاء حالياً إلى مدة سنحددها فيما بعد. وبدلاً من أن يشكرني، انخفض صوته قائلاً بتؤدة، حريصاً على توصيل كل كلمة يقولها:

«طلبوا مني العثور عليه بأي ثمن».

«طرواح؟!».

«نعم».

«ما الذي ستفعله؟!».

«لن أفعل شيئاً».

صمت قليلاً، ثم قال:

«أخشى أنني لست الوحيد الذي يطلبون منه هذا».

أدركت أن طرواح ليس في أمان، وقد يفلت من أيدينا، وأنني عدت من جديد في إثره، ولم يعد هناك مفر من محاولة الاتصال بالأحزاب.

غالباً، خلال ترددي على رجالات الأحزاب وأعوانهم والمقربين منهم، استطعتُ الحصول وبلا عناء، على معلومات بلغت درجة سريتها أنها كانت مقتصرة على جلسائهم الخاصين، وبالرغم من أن هويتي السياسية المستقلة لم تكسبني صداقات حميمة في أوساطهم، فقد كانت ميزة لم تُفقدني أصدقاء الجامعة ومعارفي منهم، ومعهم الذين شاركوني مهام وظيفية. كنا نستأنس بعضنا بآراء بعض، وبادلوني كما بادلتهم مودة سطحية لم تخل من ريبة وحذر.

لم أكن مرتاحاً لصفتي هذه، كان فيها تعالٍ لا ينقصه اللؤم، وانعدام لموقف واضح يتناسب مع ترددي الذي أدعوه تروياً، كان شعوري في بعض الأحيان، أنه إذا كان الطرف الآخر، بمواقفه الجازمة، مخطئاً بتصلبه، فأنا بمواقفي المرنة مخطئ بتقلبي.

عرفتُ، وأنا أتعقب طرواح من حزب إلى آخر، عن اتصالاته بحزبي الشعب والوطني، لفترة وجيزة قبل انتقاله إلى المعارضة. توقعت، في جميع الأماكن التي ترددت عليها، أنني سأصطدم به، لكنني لم أصادفه في أي منها. سألتهم عنه، لم ينكروا معرفتهم به: كان هنا منذ أيام أو يومين أو البارحة وسوف يرجع، لكنه لم يرجع؛ والمعلومات ذاتها، عن أستاذ الجغرافية البائس ونوايا إسداء العون إليه مع إضافات مختلفة، إعادة الاعتبار إليه وضم السنوات التي فصل فيها إلى سنوات خدمته السابقة في التدريس، تعويض مالي عما لحق به من أذى معنوي، راتب تقاعدي مدى الحياة. وكما الوعود جمُدت، أصابه التجميد مع قضيته ووضع على الرف، وحين يعزمون على إثارة موضوع النفط، سيجري إنزاله وإظهار مستنداته ومأساته.. وتكريمه. لكن أين هو؟! كان قد

أشعل فتيل النفط واختفى.

زرتُ سعاد، وكان كرو حاضراً، وأفضيت لهما بتحرياتي.

«لماذا لا يلجأ طرواح إليكِ؟!» سألتُ سعاد.

«كان يجب أن يأتي قبل أيام، لا مكان يأوي إليه!!».

«ربما نجح الأميركان في اصطياده».

«هذا محتمل.» عقب كرو.

لم يكن طرواح يتحرك سريعاً وبخفة فحسب، بل بذكاء وخبث أيضاً، وما تنقلاته المحسوبة بين الأحزاب إلّا لإشهار النفط وإطلاع الجميع عليه. قالت سعاد متكدرة:

«ترى إلى أي حد أسهمنا في هذا الذي يجري؟!».

نأى كرو بنفسه أمام الشرفة، لاح غير راغب في المشاركة بحديثنا، أو غير مرتاح إلى وجودي، أو لأن الأمور بينه وبين سعاد لم تكن على ما يرام.

سعاد قلقت خلال اليومين المنصرمين لغيابه وتأخره عنها. كان ملازم الشرطة قد أبلغني بأن كرو كان في مقر البعثة وعاد اليوم. قلت له متحرشاً:

«شكّتْ سعاد من أنها لا تراك».

«كان من المفروض أن أعود صباح البارحة».

«تاه في البادية نهاراً كاملاً.» تدخلت سعاد.

«لا ريب أنها كانت تجربة مخيفة.» علقتُ بهدوء.

وصفتها بالتجربة المخيفة لأستجرّه إلى الكذب، أحسست أن ضياعه المفتعل حكاية ملفقة تفوح منها رائحة النفط.

«كانت تجربة رائعة ومروعة».

لم يخطئ كرو طريق العودة، وإنما تقصد أن يسلك مدقاً محاذياً للطريق العام، بيد أنه ومن قبيل الفضول والاستطلاع، انحرف نحو الداخل، وتوغل في صحراء بادية الشام:

كان ذلك مع انبلاج الفجر، عندما اختط طريقه بصعوبة عبر الأتربة والجفاف، ومن فوقه سماء ترخي بهاء لا نظير له على آفاق، انفتحت على آماد احتوته، لاحت لن تتناهى، ولا تفصله عنها مسافات ولا أثير، تجذبه إليها، وتتجاذبه، تَمَلّكهُ فزع ممزوج بنشوة مبهمة. يضربُ نحوها دون توقف، يضربُ فيها وإليها، لا يصل ولا يتصل بها، ينفصل عنها، في الفضاء، تحت الهجير، يشق التراب والحرّ، من سراب إلى سراب.

يغوص في التراب، وأمواج الرمال وكثبانها المتموجة، وتلال الأحجار والصخور، بانحناءاتها القاسية والناعمة، المتلوية والمقوسة والحادة. جنة من براءة مطلقة، غضة وبكر، لم تمسّ، وعلى خالها، عارية منذ ملايين السنين، تتكاثف أزمانها وبرهاتها، في سراب مقيم، تسري أبديتها فيه كالهواء، تتبخر تحت الشمس، وتتماثل تحت الشمس، تحتل الفضاء بأكمله، تعشي الرؤية، وتتخثر في حبة رمل.

وثمة رعشة، تتقصف على مدى زوغان البصر، مسكونة بتكتم عميق، تتمدد وتتكسر على فراغ عظيم، انبسط مصمتاً، ثقيل الصمت، دونما أثر لبشر أو حيوان، وبلا أي دليل على عبور إنسان. سجن هائل ورحب، لا فكاك منه، بلانهاية أو بداية، لا مهرب منه إلّا إليه، هو فيه محاصر بإحساس واهم بالرعب والدمار والتدمير، وداهم بجمال خطير، زائد عن الحد، لا يستطيع مخلوق تحمله، وزاخر بالنقاء الضاري.

مشهد على تخوم الشهيق وسكرات النعاس، يتفتح بغنى مفرط، يتفتق بسخاء مفجع، يتهادى جانحاً وجارحاً، رجراجاً وأخاذاً، غريباً وآسراً، أشبه بموت أخير وخارق، جليل ومبهر، تتمناه أن يدوم إلى الأبد.. وعلى مهل.

النسيم الحار، الخفق الوحيد المضطرب، يتحرك أو يختلج أو يرشح، رحيقاً وحياة. رحيقاً رهيباً، لا تتنشقه في أي مكان في العالم. وحياة، لا تشبه أي حياة خطرت لك. نسائم اللهيب الأحمر والحريق الأبيض، تفضي بك إلى العدم: في ذلك الإبداع السري المفارق للزمن؛ وإلى الوجود: هنا، حيث الله، أصخِ السمع، وسوف تسمعه، أغمضْ عينيك، فتراه أمامك، افتحْ عينيك، فتزاه في داخلك، كلاكما على صفحات الرمال، كلاكما على مرآتها.

أتذكر أن وقع كلماته كان حاراً، وصوته الأجش المرتجف إنما المنخفض، يضفي على نبرته خشونة رقيقة. تجربة، لم أتبين فيها نصيب الشعر من الحقيقة، ومع هذا منحني انطباعاً عميقاً عن الهوس بالمطلق، حتى أنني أحسست أن عينيه الزرقاوين، كانتا خلال إلقائه المأخوذ، تستمدان عمق زرقتهما من تلك السماء

الزرقاء، وشحوب وجهه من زخم تجربة كانــت مذهلة وعاتية.

ما أنا متأكد منه تماماً، أنه لم يكن يرانا، لا أنا ولا سعاد، على الرغم من أنه كان يوجه حديثه إلينا، كانت عيناه تنظران بعيداً، إلى خلف الجدران. وأكاد أتيقن، أن جميع الأشكال المرئية، أمامه ومن حوله، لم تكن إلا أشكالاً لا وجود لها.

كان يرى ذاك المنظر.. الصحراء.

11

لم أدرك أن الأوضاع ازدادت سوءاً وتعقدت إلّا عندما أنهى إليَّ رئيس الوزراء طرفاً من مخاوفه: الأحزاب لن تخوض معركتها في البرلمان، بل خارجه، لقد باشروا اتصالاتهم بقادة الجيش.

في الواقع، لم يطرح حسياني على رجالات حزبي الشعب والوطني جديداً؛ كانت الأجواء ممهدة، وحسياني لم يفعل شيئاً سوى أنه أعطى لغموض النفط وضوحاً، وجعل منه واقعاً، عندما لوَّح لهم بالعرض الأميركي، على شرط عقد الاتفاقية مع حكومة تمثل الأغلبية. اعتبر الحزبان العرض مؤجلاً، بحجة توخي عدم لفت الأنظار إلى النفط، وحريّ بالانتظار إلى ما بعد إسقاط الحكومة، لأنها لم تف بتعهداتها تجاه النقص الخطير للسلاح؛ السلاح لن يعوزه المؤيدون، أما النفط فيحتمل الأخذ والرد، بل والأهم السرقة.

المعارضة التي حسبوا أنها ستنضم إليهم، رفضت وهاجمتهم بشدة، وللسبب نفسه: ألم تتقدموا أنتم بالذات بطلبات السلاح إلى الدول الغربية، ولم تستجب لكم؟! إذا أبدت أميركا استعدادها لتزويدنا بالسلاح، فهو مشروط بالدخول في أحلافها، وتسلحنا ضد إسرائيل مرفوض لأنه يعكر الأجواء في المنطقة، صحيح أن الروس لن يبخلوا علينا بالسلاح، لكن مع العقائد.

أحدث رد المعارضة صدعاً بين حزب الشعب والحزب الوطني الذي تراجع عن إسقاط الحكومة بدعوى أن قضية السلاح على هذه الشاكلة، هي سلاح بيد رئيس الوزراء.

ساندرز ـــ / نبهني حسياني إلى أن وجهات نظر الحزبين متباينة وأنه مشكوك في تعاونهما، ومركز رئيس الوزراء أقوى ويستحسن التحول إليه. استشرت أوستن، طلب مني إعلام حسياني بأن المعارضة تناور وتجري حالياً مباحثات سرية مع حزب الشعب. حسياني استبعد الخبر./

الخبر الذي استبعده حسياني، أكده أصدقاؤه من حزب الشعب، المعارضة تنوي إسقاط الحكومة على أساس النفط وليس السلاح، وبحوزتهم معلومات تؤكد كذب رئيس الوزراء، وعلى حزب الشعب تعضيدهم. حزب الشعب رفض تصدر المعارضة حملة إسقاط الحكومة، وسألهم شيئاً من الدعم، مصراً على إثارة السلاح وطمس النفط إلى ما بعد تشكيل الوزارة الجديدة.

ساندرز ـــ / عاد حسياني. كان مستاءً جداً ومتوجساً من

تحركاتنا. سألني، هل يوجد لكم منافسون؟! قلت له، لا أحد غيرنا. قال، هناك من يزود المعارضة بمعلومات عن النفط، إذا لم تكونوا أنتم، فمن يكون؟! كان سبب استيائه أننا إذا أردنا جس المعارضة فلديه وسائله، ولا مبرر للتسلل من وراء ظهره. قال، اعتمدوا رجلاً غيري. راودتني الشكوك في أن يكون أوستن قد زرع عميلاً له في المعارضة، فصارحته، أنكر مدعياً بأنه ربما كان عميلاً للروس. طمأنتُ حسياني، إذا كان بالفعل عميلاً لِلروس أو غيرهم فقد اختار الفريق الخاسر. لم يطل الوقت، عندما أبلغني حسياني بأن اسم الشخص حسين طرواح. وسألني، هل تعرفه؟ قلت له، لا أعرفه. /

أوستن ـــــ / فاجأني ساندرز بخبر طرواح في المعارضة، صَادقَ الفرنسيون على الخبر وتطوعوا لشرائه، منعتهم من التدخل، كنا نريد أن نشتريه لكن ليس عن طريقهم، كانت المشكلة تكمن في افتقارنا إلى معلومات واضحة عنه، ولن يكون الجواب مريحاً، في حال ناقشنا ما أقدم عليه، ولصالح من؟! إن التجاءه للمعارضة يوحي بالعداء والمشاغبة، أما إذا استطاعت الأحزاب احتواء المعارضة فلن ينجم عنه ضرر. طلبت من ساندرز التأكيد على حسياني الذي أضجرنا بطرواح وكاد أن يستنكف عن مهمته، الالتزام بمهمته فقط والإلحاح على الأحزاب عقد اتفاق مع المعارضة هدفه إسقاط الحكومة، ومن غير تفاهم كامل على ما بعد؛ خلافاتهما القادمة وشيكة، ولن تبرز إلا عند البدء بتشكيل الوزارة الجديدة، حينئذٍ لا مكان للمعارضة في الحكومة، نحن نصر على أن تكون الوزارة وزارة حزبي الشعب والوطني فقط. /

دولمونت ـــ /

: كان الإنكليز تواقين للعمل وتبرعوا بجواسيسهم. نحن تبرعنا بإسداء النصح. أوستن الذي لم يعطنا فرصة واحدة ولم يسمح لنا بهامش للعمل، رجع وسألني الإبقاء على قناة مفتوحة مع كرو، والإيعاز له بالعثور على طرواح، كان بحاجة إلى معرفة مكانه.

: مصادر أوستن لم تنجده، ووسائله لم تنفعه، استعجل التخلص من طرواح، كان واضحاً أنه سيعمل على اختطافه، ولا أدري كيف!!/

ساندرز ـــ / الأخبار التي أرسلها حسياني كانت غير مبشرة، حزب الشعب استخفّ بالمعارضة، ولن يعضدها في البرلمان إلّا إذا استأثر بنجاحها، أما المعارضة فكانت يقظة، لن تُجيِّرَ فوزها لحساب حزب الشعب. كانت الضربة الدانية القاضية المختلف عليها ستطيل من عمر وزارة لم يعد لها من تأثير. ثم لم تعد دانية، باتت قصية جداً، المعارضة أوقفت مفاوضاتها مع حزب الشعب، والأمور عادت إلى ما كانت عليه، على إثرها انسحب حسياني إلى بيروت. بدت أوضاع الساعات الأخيرة، مستقرة لأمد طويل من دون تغيير. لكن الهدوء لم يدم أكثر من يوم واحد!! /

دولمونت ـــ /

: صعقني الخبر، الأحزاب والمعارضة باشرت اتصالاتها مع الجيش، وكل على حدة. /

أوستن ـــ / لو لم ننجح في دفع الأحزاب والمعارضة نحو

الجيش، لبقينا أشهراً ننتظر وزارة حزبي الشعب والوطني. جرت الاتصالات على النحو التالي: عُقِدتْ اجتماعات بين رجالات من الحزبين مع ضباط مقربين من قائد الجيش. وعلى الطرف الآخر، لقاءات بين رجال المعارضة ورئيس الأركان. /

ساندرز ـــ / عقَّبَ حسياني مستغرباً: من أين جئت بهذه الأخبار؟! وتخوف من العودة إلى دمشق. /

دولمونت ـــ /

: لدى أوستن موهبة العمل في الخفاء، كان بالإضافة إلى علاقاته الطيبة بزعامات سياسية طائفية، ووزراء ونواب، ومرشحين لرئاسة الجمهورية، بارعاً في استخدام أناس متنوعين إلى حد غريب، صحافيون، مقامرون، متعهدو فرق استعراضية، راقصات مصريات، مغنيات سوريات، وشبان مشبوهون. /

ساندرز ـــ / رأيته عدة مرات مع شبان صغار السن، لم يبخل عليهم بالإكراميات بحجة أنهم يؤدون له بعض الخدمات السرية، لم أصدق أنهم يعملون لديه؛ كان معهم، وعلناً، يستغل المعانقة العربية الرجالية الدارجة بنعومة مقززة، وإلى أقصى حد. /

دولمونت ـــ /

: لا، أعتقد أنها مجرد مظاهر وأقاويل روّجها أوستن حول شخصه، وهي كما تعلم، وصفة ممتازة، جاهزة وموفقة: التجسس والجنس./

ساندرز ـــ / لاحظتُ عليه تحولاً عني، لم يعد يسايرني، واتخذ مني موقفاً صلباً ومتعنتاً بعد سهرتنا في ملهى منصور، مع أنه تودد لي من قبل وقدم خدماته بأريحية مريبة. أنا لم أدرك مغزى تقربه نحوي، اعتبرت تعاونه معي واجباً من واجباته تجاهي. لا أجزم بشذوذ دوافعه ولا أنفيها. كان إحساسي نحوه، هو الاشمئزاز. /

أوستن ـــ / تجلت مؤثرات تنشئة ساندرز المتزمتة في تصرفاته البالغة الحذر، مما أشعرني بالنفور منه، ربما كان مسيحياً صالحاً، لكنه لم يمارس أية عبادات دينية، أو رياضات روحية، وإنما شيئاً سخيفاً، المعاناة من شهوات الجسد. /

دولمونت ـــ /

: لماذا؟! للتعمية طبعاً، ولقد استثمرها بذكاء، حتى أن الكثيرين لم ينظروا بجدية إلى ساندرز على أنه ممثل شركة نفطية.

: لا، لم يكن أوستن شاذاً جنسياً، هذا ما أعتقده، هل هذا مهم؟! /

ساندرز ـــ / بصَّرني حسياني بالعواقب، إذا تفاقمت الأمور فسوف نكون بصدد انقلاب وحكم عسكري بواجهة مدنية، في حين تجاهل أوستن مغبة ما سوف يحدث، واعتبره مثيراً. قلت له، لا أدري إذا كنا نحن الأميركيين نشجع الديكتاتورية تحت ستار نشر الديموقراطية. /

أوستن ـــ / للسوريين أساليبهم الخاصة في معالجة أمورهم، وهم

في النهاية من يختارون الديموقراطية، أو الديكتاتورية. /

ساندرز ـــ / أوستن لم ينكر، بالعكس، تباهى بإسهامه بنصيب لافت ونظيف، لا يستهان به، عزاه إلى جهوده. /

أوستن ـــ / الأمر المفروغ منه أنه لا يمكن تمرير اتفاقية النفط بقوة الأحزاب ولا برصيدها الجماهيري، وإن كان لأية أغلبية الظفر بالوزارة، فهذا لا يكفي، الجيش لهم بالمرصاد. /

ساندرز ـــ / كان لا بد من تأييد فريق منهما، فأيدتُ الأحزاب المحافظة ومعهم اللواء قائد الجيش، إن وضعاً غير مستقر في سورية سيتعبنا. بنيتُ رأيي هذا على معلومات حسياني عن اللواء قائد الجيش والعقيد رئيس الأركان.

اللواء قائد الجيش ضابط قديم، انضباطي، متمرس ميدانياً، لا يعنى بالشؤون السياسية ولا بالصراعات الحزبية، تسنم منصبه الرفيع عقب الانقلاب الأخير، بعد أن رشحته شخصيات الأحزاب وأجمع عليه ضباط الانقلاب، لافتقاده للطموحات المشروعة وغير المشروعة. يقبع في الظل وبقي في الظل.

العقيد رئيس الأركان ضابط جريء ومتهور، شارك في انقلابين وبفاعلية ملحوظة، يناصره الضباط الصغار، طموحاته العسكرية: الحرب مع إسرائيل، والقومية: الوحدة العربية. /

أوستن ـــ / كانت تقديراتنا عن العقيد رئيس الأركان، أنه رغم

وزنه القوي في الجيش، فإن مناصرة الضباط الصغار، سواء الذين لهم وزن، أو الذين لا وزن لهم، لا يقتصر تأييدهم عليه فقط، لأنهم في الواقع سينقادون لمن يسبق. بينما قائد الجيش، ورغم افتقاده للشعبية، فسوف توفر له الأحزاب طموحات هو بأمس الحاجة إليها، وسيجد دعمه الأساسي في مجموعة الضباط قواد الألوية والأفواج، نخبة العسكريين السوريين. /

دولمونت ــــ /

: ظن الأميركيون أنهم يعملون في الخفاء، تظاهروا بأنهم يسعون إلى تغييرات محدودة. كنا واثقين أن التغييرات التي يسعون إليها غير محدودة، بل محددة بانقلاب، انقلاب يجب أن يكون أميركياً مائة بالمائة. /

ساندرز ـــــ / في انتظار ما ستسفر عنه التحركات الأخيرة في سورية، ترددتُ على الإرسالية والكنيسة الإنجيلية والجامعة الأميركية، وسألت عن كارل بيردي. كانت معلوماتهم متماثلة: شوهد بيردي في بيروت منذ نحو أربع سنوات، استفسر عن القس بيرج ومواعيد السفر، وعاد أدراجه ـ على الأغلب ـ من حيث جاء. منذ ذلك الحين، لم يقع بصر أحد عليه.

لم تكن رغبتي الملحة في تقصي أخبار بيردي طمأنة شارلوت فحسب، بل ـ ولك أن تسخر مني ـ استجلاء مصيري لولا موت أبي إرنست، على التأكيد سأكون مبشراً. ترى، أي مهام ربانية كنت سآخذها على عاتقي؟!

آنئذٍ، ليتني اكتفيت بما سمعته. طبعاً، لا ألوم نفسي على إرسال عشرات البرقيات إلى الإرساليات والكنائس الإنجيلية في القدس وعمان ودمشق وحلب؛ بل ألوم نفسي على حماقة لم أكن مرغماً عليها، عندما سألت أوستن: هل تعرف شيئاً عن مبشر أميركي يدعى كارل بيردي؟!/

أوستن ـــــ / القس الغامض؟!! في الحقيقة لم يكن غامضاً إلا بسبب مناحيم روبنشتاين، رئيسي السابق في الوكالة ولأيام

معدودات، ريثما سلمني مركز بيروت، وانتقل إلى مركز عمله الجديد في برلين.

لم يكن نقل روبنشتاين من المنطقة، كما زعم، ترضية للعرب؛ أو من جراء اسمه الذي تباهى بأنه فضيحة يهودية بحد ذاته، نقل لأنه لم يخف تعاطفه وعلى الملأ مع الدولة اليهودية. كان صهيونياً قحاً، جهر بآرائه متهماً العرب باختلاق نزاع مع اليهود، وروَّج الدعايات الصهيونية عن بلاد العرب الواسعة الخالية من الحضارة، وفلسطين الخالية من السكان. أما الفلسطينيون فشاغلون مؤقتون يجب ترحيلهم قسراً إلى البادية السورية والجزيرة العربية. في تلك الفترة، كانت الوكالة في غنى عما يثيره من جعجعة، إبانها كان عملنا سرياً جداً، وتبجح روبنشتاين بجعله علنياً جداً.

اصطدمتُ معه قبل التحاقه بمركزه في برلين، لأسباب عدة، أحدها عدم اطلاعي على ملف بيردي، كان قد أسبغ عليه حمايته بطي ملفه وإرساله إلى واشنطن، رفض إعطائي أية فكرة عنه. الأمر الذي خلد في ذهني عن بيردي، أنه واحد من الأشخاص الذين جندهم روبنشتاين للعمل لصالح الإسرائيليين خلال الحرب العربية الإسرائيلية، وإذا كان أمره انكشف للعرب فلا شك أنه استقر في إسرائيل.

أجبتُ ساندرز: لم أسمع به. /

القسم الثاني

دمشق ـ بيروت ـ الأراضي المقدسة

لم يكن للجزء الأكبر من هذا القسم أن يكتب على الشاكلة التي سُيقرأ فيها، بل على نحو آخر، غير واضح أو مشوه، لأن تفاصيل أحداث تلك الفترة، رغم معايشتي لها، لم أطلع عليها بصورة وافية، وبقيت غامضة في ذهني.

في حينها، بدا أن ما حدث كان من جراء مؤامرة مدبرة، واحدةٌ من سلسلة لا تنتهي؛ وإذا أحسنّا الظن، فصراعات طائشة بين الحكومة والجيش والأحزاب، على رأسها أشخاص أذكياء فعلاً، أو حمقى فعلاً.

وهكذا، من غير أن أسيء الظن؛ أقول إنها رغم كل شيء، تحفظ لهم طيب نواياهم، وتواضع وسائلهم، دون التحفظ على مأثرة لم تكن مريبة، وإنما مشينة، أمعنتْ في الخفاء تحت السطح، ومع أنهم أضفوا على سقطاتهم المريرة نجاحات أشد مرارة، وتعتيماً

مجيداً على إخفاقات كانت خصبة بكارثيتها؛ وبلا شك، أضاعوا بتشنجهم ومغالاتهم، صيغة كادت أن تكون فريدة لمشهد استثنائي، تكرر بعدئذٍ برتابة وفظاظة وبصخب أكبر، كرّس اختلاقه؛ اختلاقات شعاراته، وهزاله؛ هزلية تطلعاته، أما تضحياته؛ فتعاسة أُضحياته.

غمرني رئيس الوزراء بعطفه، وأضاء لي وبكرم، تفاصيل اجتماعات سرية، لم يعلم بها أحد،كان فيها أحد طرفين، ومواقف كانت عموماً غير مشرِّفة له.

ومع أن دولته لم يتعاطف مع فكرة كتابي، فقد حرص على ألّا يجمّل صورته أو عهده، ولم يكن متخوفاً من مثالبه وأخطائه، أما إنجازه في الحكم والذي عدّه ملموساً، فمحاولته إذكاء أوار اللعبة السياسية وجعلها أكثر واقعية، وأقل قذارة.

وأسمح لنفسي ـ رغم أنه خارج عن موضوعنا ـ باغتنام الفرصة، لأشكر دولته على الثقة التي أولاني إياها، بإسناده إلى شخصي منصباً رفيعاً في مطلع شبابي، وما أسداه لي من نصائح وخبرات لم تقتصر على الوظيفة بل تعدتها إلى الحياة، كان أحدها، اعتيادي على الصبر، وأتمنى ألا يكون صبري الطويل هذا، الذي حملته عبئاً فوق عبء، خبرتي الأشد إيلاماً، وتجربتي الأبطأ عذاباً.

مع مرور الوقت، جمعتني داخل سورية وخارجها في بعض المناسبات وهي في أغلبها مناسبات هيأتُها، أو سعيتُ إليها بواسطة معارف وأصدقاء ـ بضباط، كانوا فيما مضى يمثلون أعلى الرتب في الجيش، ومنهم اللواء قائد الجيش والعقيد رئيس

الأركان، دون بهرج من جماليات السلطة ووقاحتها وفجاجتها، في ظروف لم تكن حفية بهم، كانوا فيها متشائمين، وأقل من عاديين، استعرضوا زمناً مثيراً كانوا فيه متفائلين وأكثر من عاديين، أنحوا باللائمة الحسنة على طيبة قلوبهم والسيئة على غيرهم، لم يوفروا تهمة لهذا وذاك، ولم تمنعهم حكمتهم من التحيز، ولا حنكتهم من التحير، مُدَّعين بأن إقصاءهم عن مناصبهم كان بفعل دسائس دول كبرى.

وسواء التقيت بهم في منافيهم لاجئين في العواصم العربية والغربية، أو مسرّحين متقاعدين في بلداتهم داخل سورية، فقد تشابهت همومهم في شيخوخة لها أمراضها ووساوسها، وحياة لها متاعبها وإحباطاتها.

أسهبوا في الكلام وتبسطوا في الحديث معي، بلا حرج أو محاذير، وكانت ذكرياتهم قاصرة على جزء من الأحداث، كانوا حيناً في مركزها، وحيناً آخر على مبعدة منها، ومع هذا عملوا حساباً للتاريخ؛ منهم من أعطى لنفسه دوراً كبيراً، ولم يكن هذا من باب الحقيقة؛ ومنهم من اكتفى بدور صغير، ولم يكن هذا من باب التواضع.

ومهما يكن ـ وليت ملاحظتي هذه تقرأ في زمن لا تزعج فيه أحداً ـ فقد أجمع الضباط المقالون والمهزومون، المعزولون والمعتزلون، على القول: نحن سبب مصائب البلد؛ مُحمِّلين أنفسهم ما آلت إليه، برأيهم، الأحوال من سوء. أما برأيي، فأسوأ من السوء.

ولقد تراءى لي أنني بعثتهم من زمان طواهم فيه، ووضعتهم في

نصابهم، وهذه إحدى فضائل الكتب أو مزاعمها: إنها على الورق، تمنع وتمنح، وبالمقابل تتعرض للمنع، لكن، ويا للنكران، من غير أن تكافئ بالعطاء أو ببعض التسامح.

وأرى أنه كما جوّزت لنفسي ما تراءى لي، فإن لغيري أن يبعث فيهم الحياة، ويضعهم في نصاب ما.. آخر.

1

علمت الشعبة الثانية في الأركان بقصة النفط كما رددتها الصحف اللبنانية، ونفتها الحكومة ومجموعة الشركات النفطية، ولغت بها الصحف المحلية والأحزاب، ورفعتها حسب التسلسل إلى اللواء قائد الجيش؛ بأمانة، كما وردتْ من مخبريها متابعي الجرائد والمتجسسين على الأحزاب؛ ومفككة، دون أن تبذل جهداً في تجميع أوصالها المبعثرة؛ ومتناقضة، لم تثبتها أو تنفها؛ صدقتها مع المصدقين وكذبتها مع المكذبين؛ مع حاشية بتوقيع رئيس الأركان.. لأخذ العِلمْ.

اللواء قائد الجيش أَخَذَ العِلمْ، ولم يأخذ بتقارير الشعبة الثانية (لو كان فيها ما فيها لما حوّلها له العقيد كما هي بحذافيرها وتفاصيلها) عزاها إلى الأجواء السياسية الممتهنة الإثارة في مواسم الخمول، من غير أن تبخل عليها الشعبة الثانية بالضوضاء اللازمة؛

وبالتالي، تركها ألهية للمدنيين. وحتى عندما تداعت الأحزاب المحافظة بواسطة بعض المقربين إليه طالبين الاجتماع به، رفض (القصة لا تستحق). عاودت الأحزاب الكرة وبشرط أن يكون الاجتماع سرياً، تردد اللواء (لم يعن إصرارها على السرية إلا سراً لم يتوصل مخبرو الشعبة الثانية إلى معرفته) ثم، وافق وحدد لهم موعداً في مكتبه ليلاً.

في الوقت المحدد، والوفد الرباعي في غرفة الانتظار، تراجع اللواء عن مقابلتهم، كان ثلاثة من أعضاء الوفد من الوجوه غير المعروفة (ليكن، هذا لمزيد من السرية) أما الرابع، رئيس الوفد، الناطق باسم الأحزاب، فمعروف جداً، كحزبي ثرثار ونمَّام، وشهرته كفاسد ومُفسد، تفضح أدنى قَدْرٍ من السرية المرجوة. لم يكن ثمة خطأ في مستوى الوفد، لا بد أن قادة الأحزاب قصدوا بتركيبة الوفد الملتوية هذه، ضمان خط الرجعة إذ بوسعهم (إذا حدث ما لا تحمد عقباه) التنصل من وفد من الأشباح على رأسه مارق نفاج يُسعدهم التبرؤ منه؛ لا بأس، سيستعمل خط الرجعة نفسه، لن يقابلهم، وإنما سيمثله شخص على المستوى المطلوب تماماً. أجّل الاجتماع ونقل مكانه إلى قبو في حي المزرعة، هناك سيقابلهم ضابط من شعبة الإمداد والتموين، نكرة وجشع ومتكتم، وبليد بما فيه الكفاية، ليسمع منهم.. يسمع فقط.

جلسات الاجتماع التي بدأت في القبو، لم تلبث أن تحللت من سريتها في الاجتماع الثاني، وتواصلت في متنزهات نائية في مقاصف عين الخضراء وبقين على عشاء وليتري عرق؛ حصيلتها، محضر دبّجه ضابط الإمداد وقدمه إلى اللواء. المشكلة بأجزائها: أولاً، السلاح. ثانياً، النفط. ثالثاً، الحكومة. أما معالجتها،

وبالتشاور مع وفد الأحزاب، فعكسية: إزاحة الحكومة الحالية، إفساح المجال أمام الحكومة الجديدة للحصول على أفضل عقد للتنقيب عن النفط، أخيراً رصد ميزانية ضخمة للتسلح.

لم تنطل المشكلة بأجزائها ومعالجتها على اللواء، الأحزاب تنوي الاستيلاء على النفط مقابل رشوة الجيش بميزانية كبيرة، عبارة عن أرقام بالملايين، لكنها وهمية، لأنه لن يستطيع شراء طائرة أو دبابة حديثة (ولم يكن كلاماً يلقى على عواهنه) وهذا من واقع تجاربه، وبالذات تجربته العقيمة عندما كان في عداد لجنة المشتريات التي ابتاعت أسلحة من السوق السوداء بأثمان خيالية من بقايا العتاد المستخدم في الحربين العالميتين الأولى والثانية، كانت إما عاطلة أو غير موثوق بفاعليتها. كذلك، تجربته الأخيرة مع الدول الغربية التي امتنعت عن بيع السلاح إلى سورية. إذاً، الأمر برمته النفط، أما السلاح فهو الطُعم.

سأل اللواء ضابط الإمداد والتموين:

«ما دليلهم على النفط؟».

«خبير نفطي، تعامل مع الحكومة وفقد ثقته بها».

«فليجمعوني به».

«لن يبرزوه إلا في الوقت المناسب».

«ومتى يكون الوقت المناسب؟!».

«بعد رحيل الحكومة».

أي أن الأحزاب تُمنيه بالسلاح ريثما تحصل على بغيتها، ترحيل

الحكومة، بعد ذلك يكافئونه بمنصب وزير الدفاع، صحيح أنه أرفع منزلة، لكنه فخري، وأسوة بالوزير الحالي سيمارس سلطته بين أربعة جدران على معاون وضابطين، وسائق وحاجبين، وضارب آلة كاتبة ومراسل، جُلّ نشاطه مقتصر على الحفلات والمآدب الرسمية والمناسبات القومية والاستعراضات العسكرية.. وتخريج دفعة جديدة من الضباط، منصب ليس إلّا تقاعداً مبكراً. هذا، ولم يحسب حساب رئيس الأركان بعد، العقيد المموه برتبة أدنى منه، والذي لا تفوته شاردة ولا واردة، صغيرة كانت أم كبيرة، ويمارس على الملأ صلاحيات تتعدى منصبه، أهمها أنه يناكده بألوية وأفواج لا تأتمر إلا بأمره، بالإضافة إلى أن العقيد يترصده على زلة، لن يرتكبها كُرمى للأحزاب أو النفط أو السلاح. لِمَ يسهم باستبدال حكومة لا تضر ولا تنفع، بحكومة قد تضر ولا تنفع؟! أليس من الصواب الترفع عن النفط كما ترفعت عنه الحكومة؟

أمر ضابط الإمداد بمماحكتهم قليلاً، فماحكهم مطولاً حول الخبير الذي لهجوا بذكره وأخفوه بعيداً عن الأنظار. أين هو؟! وطلب الاجتماع به وجهاً لوجه. لكن الوفد أبى التخلي عن الخبير، شريكهم المنتظر.. حتى لمجرد الرؤية فقط.

تنفس اللواء الصعداء، بدا الخبير ثميناً، وخفياً جداً، إلى درجة قد يكون زائفاً أو لا يكون ثمة خبير على الإطلاق. فأرسل إليهم:

«أبقوا خبيركم معكم».

تماثل الجيش بشخص قائده في كامل حنكته، وهو يعقب بانضباطية:

«لو صحَّ وجود النفط فهو مهمة الحكومة الحالية».

وأتبعه برأي سديد:

«ما ستجنيه الحكومة من عائدات النفط لن تضعه في جيوبها، ولن يغيض في بلاليع الدولة، للجيش حصة فيه».

ساندرز ـــ / تعثر تفاهم الأحزاب مع قائد الجيش الذي افتعل عقبة، مطالباً بوضع طرواح تحت تصرفه، لم تتمكن الأحزاب من التغلب عليها. كان هامش المناورة محدوداً لديهم، إن لم يكن معدوماً كلية، كانوا قد فقدوا طرواح في المعارضة. ارتأيتُ على حسياني، لماذا لا يجربون مع رئيس الأركان؟ /

أوستن ـــ / سبقت المعارضةُ الأحزابَ إلى رئيس الأركان، توقعنا إخفاقهم معه، وفي حال نجحوا فلن يتغير جوهر خطتنا، أن يكون الجيش بغض النظر عمن سيمثله، طرفاً أساسياً في المستقبل إلى جانب الحكومة، يحميها من جهة ويكبح جماحها من جهة أخرى. /

مرّر العقيد قصة النفط إلى اللواء، لأنه لم يأبه بها، فيما الشعبة الثانية ومعها مصادره الشخصية تابعتها عن كثب، وجاءه الخبر: الأحزاب تستدرج قائد الجيش إلى النفط ملوحة له بالسلاح. استخفّ العقيد بكليهما. ما الفائدة؟! هل غاب عن اللواء أن مشكلة السلاح المقيمة، ظلت هي هي، ودائماً كما هي، دونما زيادة أو نقصان؟! ومع هذا وجد العقيد نفسه مُلزماً بمتابعة الغزل

المتبادل بين الأحزاب واللواء، والذي استمر يوماً، يومين، ثلاثة أيام.. وما زال!! توجس العقيد، ماذا لو..؟! لا بأس، إن كان لتفاهمهما أن يؤدي إلى تمريغ رئيس الوزراء بالوحل، فهذا حسن؛ وإن أفضى إلى القضاء عليه، فهذا أحسن. ما المانع في رئيس وزراء متواضع قليلاً، وغير وقح؟!

بعد قليل من التأمل، لم يستطع العقيد أن يأمل بأكثر مما هو متوقع: قصة السلاح وحدها أكبر من اللواء، فما باله ومعها قصة النفط؟! قصتان باتتا متلازمتين.. لا محالة، ستدوخانه. غير أن اللواء أثبت بُعد نظر ما بعده نظر، وتصرف بحنكة ما بعدها حنكة، طبقاً للأصول المرعية وغير المرعية: خاتل الأحزاب بدهاء ونجا منها بمهارة، وخرج سليماً من حيلها وأحابيلها، محققاً أعجوبة؛ نسبها العقيد إلى سذاجة اللواء الذي أصر على رؤية الخبير شخصياً، وفوت عليه نفاد صبره تمريناً في الاحتيال السياسي، لا يطيق الاستقامة والصلابة، وإنما المراوغة والدجل.

في الوقت الذي أيقن العقيد أن دوره قد حان، جهل أن الورقة / الخبير التي طارت من الأحزاب، قد تلقفتها المعارضة التي وحدت صفوفها وأضاعتها أيضاً. كان في انتظارهم، عندما أرسل قادة المعارضة طالبين الاجتماع به.. لأمر يتوقف عليه مصير الأمة. وبشروط، مغالية في تحفظها أو سرِّيتها: ألّا يجرى اللقاء في مبنى الأركان، أو أي مكان ذي صبغة عسكرية (دون استثناء نادي الضباط، لأنه رغم الطعام والشراب لا مندوحة من اعتباره ذا صبغة عسكرية) أو مكان عام يؤمه السياسيون (مستبعدين نادي الشرق ومقهى الهافانا والبرازيل) بل في مكان لا يراهم فيه مخلوق!!

وكأن ما سيعرّضهم للشبهة، لن يعرضه للفضيحة!! إذاً، أين نجتمع؟

دلّه المرسال على مكان الاجتماع المقترح، بيت قديم آيل للسقوط في حارة قديمة آيلة للزوال، ستفضي به على التأكيد إلى جحر مقبض قذر، كراس مخلعة، وجرائد تفوح منها رائحة حبر الطباعة، ضوء باهت، سخام على الجدران، وشبكة عنكبوت في زاوية السقف.. وشيء ما يتعفن.

رفض بقرف. أما لماذا؟! فلأنه بطبعه ينفر مما يغم النفس، ويأنس إلى ما يشرح النفس. مثلاً، السريانا، مقصفه المفضل الذي يسهر فيه غالباً، هواء طلق، موسيقى، رقص وراقصات. مكان مثالي لا يستهوي السياسيين، ولا يقربه العسكريون، رواده تجار أغنياء ملولون، وشبان مِتلافون أثرياء بالوراثة، ورجال كبار في السن محترمون وأنيقون. هؤلاء، جميعهم، لا يأبهون بما حولهم، يتسمرون مستغرقين بكليتهم في الاستعراض، لا سيما هذا الموسم اللافت، استعراض الفرقة الإيطالية.

بالمقابل، جوبهت السريانا بالرفض القاطع، وبشموخ؛ وأوردوا أسبابهم بتشنج، لا يتعاطون المشروبات الكحولية، ويتأذون من المناظر الخلاعية (ألا يجب أن يكونوا بالقياس إلى الأحزاب المحافظة، متمردين بالفطرة؟!) وكأن مثالياتهم الأخلاقية ليست إلا لحداثة عهدهم بالسياسة، وتحررهم تطاول بالسباب على من يخالفهم.

استنكر واستنكروا، عاند وعاندوا، ونشبت معارك كلامية كادت أن تورثهم تحاملات مستحكمة، لولا أن المرسال ابتلع إهانات

الطرفين المتبادلة، ووفّق إلى تذليل الصعاب بإرضائهما (العقيد الذي ركب رأسه، وأولئك الذين لا يقبلون بأنصاف الحلول) بحل وسط، منتصف الطريق الواصل من جسر فكتوريا إلى السريانا، وعلى قارعته.

في حوالي الساعة العاشرة ليلاً، دار العقيد بسيارته في الساحة الخالية. عندما كشفت الأضواء الأمامية سيارة واقفة إلى جانب الطريق، تمهل منحرفاً نحوها، حاذاها، فتح شباك سيارته على السيارة المتوقفة، أشعل سيجارة بعود كبريت، أضاءت اللهبة ملامحه، مقابله أُنيرت الحبابة الصغيرة في سقف السيارة المجاورة، فرآهم، أربعة شبان!! رمى العود من يده منزعجاً، ونفث الدخان حانقاً، أربعة أولاد؟! تميزهم ثانية بغيظ، الشبان اليافعون أنفسهم، الذين يقودون التظاهرات ويقذفون الشرطة بالحجارة ويفرون هاربين، إن لم يكونوا هم بالذات، فعلى شاكلتهم بالذات، شبان يصلحون مهيجين للطلبة ومرددي شعارات تحريضية في الاحتفالات الحزبية، ليسوا أهلاً للتكلم باسم قادة المعارضة عن تحالفات وصفت بأنها مصيرية.

استسخف غفلته، راودته نفسه أن يتابع بالسيارة وكأنه لم يرهم. لكنه، رآهم، رآهم وأزعجوه، ألا يجب أن يشفي غليله منهم، أن يكيل لهم شيئاً ما جهنمياً يفرقعهم؟! أو.. من الأفضل أن يبدأ من حيث انتهى اللواء. لم لا؟! شملهم بنظرة مستهزئة:

«هل أنتم رؤساء أركان أحزابكم؟».

أجاب الشاب الجالس وراء المقود:

«نحن مكلفون من قيادات أحزابنا بإبلاغك.. »

«أيكم الخبير النفطي؟» قاطعه العقيد برماً.

«لا أحد».

«ما الذي جاء بكم، إذاً؟!».

فغروا عيونهم وأفواههم، عدا واحد منهم، الشاب الجالس في المقعد الأمامي إلى جوار السائق، انبرى بجرأة وتكلم بقوة، مقدماً خلاصة مرعبة لمؤامرة مع حيثياتها، السلاح والنفط، تحيكها الأحزاب الرجعية؛ كان رفاقه الثلاثة يؤكدونها بإيماءات من رؤوسهم، ويضيفون إليها تفصيلاً أو شتيمة للاستعمار وأذنابه وأعوانه.

كانت رسالة قادة المعارضة أقرب إلى بيان انتخابي أو منشور غير سري، كمٌّ كبير من الوطنية مع كم يفوقه من الأعداء، ودعوة أشبه بمنحة إلى مساندتهم، على أن يتقيد بتكتيكاتهم أي تعليماتهم، مقنّعة بتجميع صفوف الوطنيين من جميع الفئات. كيف يُلَطِّفُ فحواها الجلي؟! فيما هو، حسب رسالتهم، وحينما تقتضي الظروف، سوف يكون مخلبهم. ألا تنمُّ وبشكل صارخ عن قادة ينفحونه قضية يدفع هو تكاليفها ويقبضون هم ثمنها، يتكرمون عليه بأوامرهم وتأييدهم، ولا يضنّون عليه بإظهاره وإخفائه ساعة يشاؤون؟! هذه هي البداية، على قارعة طريق، وفي أتون لعبة صبيانية سخيفة، ليس بسبب هؤلاء الصبية، وإنما بسبب أولئك الذين أرسلوهم، في حال انكشف أمر اتصالهم به، فسوف يدّعون بأن الشبان الطائشين تصرفوا وحدهم وبلا علمهم. والأنكى، أن هؤلاء المدفوعين، طريّي العود، ما زالوا يتبارون في الكلام، تسعفهم حماستهم وثورياتهم!! لن يقلب الأرض فوق

رؤوسهم، بل ومن باب الكبرياء لا التعالي، لا يليق به الرد عليهم بشدة.

كان لديه خياران: يتسلى بهم أو يفزعهم، اختار شيئاً من هذا ومن هذا، يتسلى قليلاً بإفزاعهم قليلاً، زمجر:

«هل تحرضونني على مؤامرة؟!».

«إنقاذ الوطن ليس مؤامرة».

«الوطن؟!!» حدق فيهم بصرامة «سلامة الوطن ووحدته تستدعي رمي من أرسلكم في السجن فوراً».

لاحظ هرجاً داخل السيارة، أنظارهم تتحول عنه بخوف، يرمقون بعضهم بعضاً بذعر.

«قولوا لهم» ضحك مرطباً مخاوفهم «أنا هو المعارضة، من شاء أن يعارض فلينضم لي، هذا إذا قبلت به».

لم ينبس أحدهم بكلمة. قال ببرود:

«أنا وحدي حزب، حزب بلا بيانات ولا دعايات».

أدار مفتاح تشغيل السيارة، ومن خلال الهدير، أسمعهم صوته عالياً:

«أبلغوا هذا لأساتذتكم».

وانطلق إلى السريانا.

في المدخل، لعلع صوت الساكسفون. ما زالت السهرة في بدايتها.

2

أوستن ـــ / لماذا يهتم ساندرز بقس جاسوس؟! روى لي ساندرز بتأثر قصة غير مؤثرة، أعرف طرفاً منها: كارل بيردي صديق أبيه، القس الذي رافقه من بوسطن إلى بيروت محملين بمهام تبشيرية تعرقلت في مستهلها، مات إرنست ساندرز، فتابع بيردي المشوار وحيداً في أرض العرب، وانقطعت أخباره ورسائله قبل سنوات قليلة. كان ساندرز يحمل صورة مثالية عن بيردي، صورة لا تعوزها التضحية ولا الإخلاص، الأمر الذي لا يعرفه ساندرز، التضحية لمن والإخلاص لمن؟!

وعدته بالبحث عن بيردي، أرسلت برقية عن طريق قبرص إلى سفارتنا في تل أبيب، أستفسر فيها عن القس كارل بيردي. /

ساندرز ـــ / لم يصل بيردي إلى القدس إلّا بعد سنوات، كانت

رسائله القصيرة إلى شارلوت مجرد إعلام بخيباته في حلب ودمشق وبغداد وعَمَّان، مدينة تستوقفه ثم ترميه إلى مدينة. لم يفلح مع المسلمين، كان يبرج على حق، لكن ـ كَتَبَ ـ القدس مدينة مختلفة؛ شاءها نهاية المطاف، والمكافأة الربانية القصوى لتجوال مخفق. هناك، لا مساومة مع المسلمين في إعلاء كلمة الله.

القدس، بلاد النعمة والخير، أرض اللبن والعسل، وبلاد العنب والليمون، الزيتون والرمان، المشمش والتوت، الفستق والزعتر والزوفة؛ وعلى مد النظر، سنابل القمح والسوسن وشقائق النعمان.. أمسكي أنفاسكِ، وأطلقي العنان لدموعكِ، هذه أرض الإنجيل!! لحظة وصولي، ركعتُ شكراً للرب، سجدت وقبلت الأرض التي داستها أقدام المسيح الإله.

فوق هذه الأرض كانت مأساة بيردي.

لم تخطئ شارلوت صرخة الذعر التي أطلقها بيردي في رسالته الثانية: الأماكن المقدسة في قبضة الوحوش الهراطقة!! لم يكن الوحوش الهراطقة هم المسلمون المتخلفون، بل المسيحيون المؤمنون القائمون على شؤون العبادات في الكنائس والأديرة من الأرثوذكس والموارنة والأرمن والأقباط!!

توالت رسائله على مدار سنوات، من القدس والناصرة وبيت لحم.. وعلى قدرها، كانت مسيرة الآلام والاستنكار، على طرقات وعرة وضيقة، بين مسارب الشوك والزعرور والصبّير، والمستنقعات الموبوءة بالبرداء، قاطعاً فيافي جرداء وخصبة إلى مدن وقرى صغيرة، فقيرة ومنزوية إلى جوار كنائس وأديرة، استمدت وجودها

من دموع العذراء ودم المسيح ومدافن الأنبياء والقديسين والشهداء.

درب على مقربة من الناصرة، مشته الطاهرة مريم إلى نبع ماء لتملأ منه جرتها. كهف ظهر فيه الملاك للعذراء حاملاً لها البشرى بمجيء يسوع. حائط مهدم كان مشغل يوسف النجار. مغارة الميلاد في بيت لحم مسقط رأس ابن الرب. بركة ماء غسلت فيها العذراء ثياب الطفل الإلهي. من هذا الباب دخل يسوع إلى أورشليم القدس، من ذاك الماء الزلال فتّح يسوع عيني الأعمى، وفي هذا الحوض شفى المقعد، وفوق هذا الحجر الأملس جلس محاطاً بحوارييه، وهناك على سفح جبل الزيتون تمت خيانته، وهنا حيث كان مشيداً قصر هيرودوس، خَطَّت الجلجلة دربها إلى المكان الذي عُرّي فيه المسيح وصلب ومات، هنا سُجّي بعد أن حدّراه من على الخشبة فوق بلاطة رخامية بيضاء؛ على صفحتها الملساء سكبت العذراء دموع الأم الثكلى، وهذا هو الحجر الذي قعد عليه الملاك وبَشَّر النسوة القديسات حاملات الطيب بقيامة السيد.

أرض فوارة بالضياء، ومتخمة بالتدين، تفوح منها روائح السبات والزعفران، وعبير الأزهار البرية. ليس ثمة من عمود أو أنقاض كوخ أو كوم أتربة، صخرة، حجر، حصاة، شق أو خرم، شبر أو فتر، إلّا وطبعت عليه القداسة ظلال قصة يتجسد فيها الرب يسوع وأمه والحواريون، حتى الماء والنخيل والسمك والعليق والقصب وأشجار البلوط والقطلب، مستها القداسة.

كتَبَ: أخشى على نفسي من نوام القداسة.

قداسة ضُمِّخت بالزيت المحروق، وتضببت بالبخور المشعشع، ذهبَ بروحانيتها لمعان الفسيفساء، ولمعة أقمشة الدمقس، حُجبت بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر، وأتى على نورانيتها المرمر الموشى بالذهب والأعمدة الكورنثية، ونصارى يلتمسون الشفاعة من القبور وأصنام الهيكل، يتبركون بالحجر ويقيمون الصلوات للقديسين الأموات، وسط بهارج القناديل الفضية ولألأة أنوار المصابيح والشموع الضخمة!!

كتَبَ: ما إيمانهم سوى فعل من أفعال الشعوذة.

الكهان يلبسون أثواب الحرير والديباج، رُصّعت عكاكيزهم بالمعادن الثمينة، يتبذلون بالزينات في أعياد الشهداء، بيارق منشورة، أجراس تضرب، وأناشيد مطربة ترتل، ويرخصون لأتباعهم تقبيل أيديهم وأقدامهم. مواكب ملتاثين أم كرنفال وثني!!

كتَبَ: قبل تنصير المسلمين، الأولى، تنصير هؤلاء النصارى بالاسم.

تجلت ذروة الشعوذة والكفر في الأسواق القريبة المزدهرة بتجارة الأيقونات والذخائر النفيسة المقدسة؛ من بقايا الرب والعذراء والأنبياء والقديسين، إلى عظامهم وأمتعتهم، معروضة بإجلال للبيع على الملأ، في صناديق زجاجية مضلعة بالخشب المحفور ومبطنة بالمخمل: خصل من شعر العذراء، غطاء رأسها، شعيرات من حاجبيها، أهداب من جفنيها؛ مزقة من ثوب يسوع، لفائفه طفلاً، خيط من ردائه، خشبة صغيرة من صليبه، أو شيء ما أمسكته أصابعه، أو مرّت عليه أنامله؛ كاحل النبي يوسف، ترقوة أبشالوم، سلاميتان من سبابة زخريا، الفقرات القطنية للقديسة هيلانة، الفك

السفلي للقديس جيروم، ركبة القديس يوسف، ريشتان من القفص الصدري ليوحنا ذهبي الفم.. وكأن هناك منبعاً للعظام والأمتعة المقدسة يغرفون منه دون أن يفرغ!!

على مشهد من هذا الإفك الصريح، المتنوع، المعتنى به بصفاقة إبليسية، لم يكن السوق المكتظ بالحجاج سوى مغارة لصوص. كاد أن يتفجر غضباً، محطماً الفترينات الزجاجية، قالباً البسطات العامرة فوق رؤوس الباعة الجشعين الثملين بالضلال. أجال بصره من حوله، أحس بنفسه وحيداً ومحاصراً، وأنه لو رفع إصبعه متهماً أو صوته مستنكراً، لمزقوه إرباً وداسته الأقدام.

عندما تراجع مستديراً، عائداً صوب مدخل السوق، لاح الخوري الأسمر الشاب، يتقدم وحيداً، من خلفه وإلى البعيد، كاتدرائية القبر المقدس، يخوض في الزحام أو يتسلل منه، مغلقاً ثغراته، وكأنه يسد عليه مخرج النجاة، يتمشى الهوينى، يتمايل بقفطانه الأسود يمنة ويسرة، يتلفت أو يتفرج، لحية كثة وجبين عريض، شعر رأسه الخشن الفاحم السواد، يتدلى من تحت قلنسوته.

خطر له أن الخوري الأرثوذكسي عربي قح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. وناسمه للحظات، أن قرابة دينية تجمعهما، لها الأولوية على ما عداها من خلافات واختلافات، سواء عدّه الخوري مصلحاً أو معارضاً أو ربما مارقاً، فلن يبدي اعتراضاً على الإصغاء لبعض الملاحظات الروحية لزميل له في الكهنوت، حتى لو لم يشاركه معتقداته كاملة.

لم يفعل شيئاً سوى أنه استدار ثانية ومشى إلى جوار الخوري، ثم استوقفه أمام دكان معرض للذخائر والآثار القديمة، قائلاً بتروٍّ

وبأقل حدة ممكنة مع نزر من التبرم والتندر، ودون مقدمات «لا شك في أنك تعلم، أنه خلال الحملات الصليبية، جلب الملوك والأمراء والجنود، بالإضافة إلى نهب الرعاع، كميات هائلة من الذخائر المقدسة، تَعدَّت في إحدى السنوات خمسين ألف قطعة، حمولات من خصلات شعر العذراء مختلفة الألوان، أكداس من أسنان القديس جيروم متجمعة ومتفرقة، أثواب القديسين البالية؛ أحصى أحدهم أكثر من ثلاثمائة ثوب لقديس لم يرتد طوال حياته المديدة سوى ثوب واحد. كل هذا وغيره، لتحوزها كنائس وأديرة وإمبراطوريات وإمارات. ألّا تشاركني الرأي في أنهم لم يدعوا لكم عظمة مقدسة واحدة، بل ولم يتركوا لكم حتى تلك العظام والأمتعة غير المقدسة؟!».

سمعه الخوري، وأهمله بدخوله إلى الدكان، ألقى السلام على صاحبها، وشمل بنظرة سريعة بعض القطع النقدية والتماثيل القديمة والأواني الفخارية، ثم انكبّ على أيقونة، أخذ يتملاها بعين متفحصة. أحس بيردي بالضآلة، وحملق فيه بغيظ مضاعف، لمس ثوب الخوري ثم تلمس ساعده وشده بلطف إلى الذخائر المزيفة، ليواجهه الخوري بنظرة لا مبالية؛ الملاحظات الروحية لم ترق له. أصاب بيردي في حزره، قال الخوري ببرود «هل تريد القول أنهم يبيعون عظاماً بلا قداسة؟!» تهته بيردي حانقاً «خالية من القداسة.. فقط؟! إنها عظام الخطاة، أو عظام كافرة، مُسْلِمَةٌ».

ارتسمت على وجه الخوري ابتسامة غير طيبة، واتسعت كثيراً، وكأنه يستعد لفتح فمه على وسعه مطلقاً قهقهة شيطانية، لكنه زمّ فمه «أيها المحترم، لا تنكر جميل تجارنا، لديكم الكثيرون ممن يظنون أنهم يستطيعون بالمال شراء خلاصهم من المطهر

والجحيم». نفى بيردي بحزم «أنا لا أؤمن بهذه الخرافات». أدركه الخوري هامساً،كأنه يبقي الأمر سراً بينهما «لعلكم لا تؤمنون بشيء». عقَّب بيردي بحمية «بل وأعتقد أن ما يدعى بالذخائر، سواء كانت مقدسة أو غير مقدسة، عبث دنيء بالرموز الدينية، وضرر عظيم لا شك فيه على الإيمان المسيحي الحق. ألا ترى أن من يشتري عظام الخطاة هم مجاذيب الخطاة؟!».

أطلق بيردي لنفسه العنان، واشتط في الانتقاد. هل أراد استفزاز الخوري الذي دارى الموقف بسأم، وتلهى باحثاً في الواجهات عن أيقونة؟! هذا ما يبدو. بينما كان بيردي يتابع مندفعاً وبحدة «وتصلون للصور!! أليس هذا عملاً من أعمال الوثنية؟! ماذا تسمون سجودكم للأصنام؟!». انتفض الخوري من سؤاله، وانقض عليه بلهجة مفرطة في وثوقيتها ومتسلطة «لن نتبادل الاتهامات بالهرطقة، أنت تعرف بأن كل منا يمتلك جواباً على كل مسألة، ومهما كانت المسألة شائكة، فالجواب جامع مانع».

لم يرض بيردي عن هزيمته السريعة «نعم، بحثٌ يطول، ومع هذا أنتم على ضلال». اغتصب الخوري العربي ابتسامة هازئة، تفاقمت وصارت مفعمة بالتعالي، حينما نبر «قد أظن نفسي على هدى، فيما أنا على ضلال، أما أنت فتظن نفسك أنك على هدى دائماً. هل تعرف ما في قلبي من إيمان أو كفر؟! من جعلك قَيِّماً على ضميري وما يجيش في قلبي؟! لا تبت بأمري قبل أن تختبر إيمانك، أم أنك أقرب مني إلى الله؟!». نَفرَ بيردي هلعاً «لم أزعم أنني أقرب». جابهه الخوري بقسوة «ولا يحق لك تعليمي». دافع بيردي «لم أدّعِ أن عقلي أكبر من عقلك.» والى الخوري هجومه «إذاً، لا تتخذ عقيدتك حكماً على عقيدتي، صوابُك وخطأُك ليسا

حكماً على صوابي وخطئي، في الإيمان ليس لمخلوق سلطان على وجدان غيره، أنا أتبع هدى قلبي».

مساءً، وفي وقت متأخر، سيستعيد بيردي رباطة جأشه واتزان أحكامه، ويُقيِّم الخوري الذي ظهر في زحمة السوق وضوضائه مقاتلاً مفوهاً؛ وفي فراغ الليل وهدأته، تخايل مشاغباً مُستقتلاً، وتخايلت في أذنيه، ضراوة لهجته. آنئذٍ في السوق، تلجلج إزاءه ولم يحسن الدفاع عن عقيدته. الآن، يتكشف الخوري عن رجل عديم الكفاءة، قدم عرضاً ماكراً، كان وبوضوح عرضاً نمطياً من الصفاقة الشرقية، لا تُقيم وزناً للعقل ولا للإحساسات الروحية والمشاعر الصالحة، عدا ميله المكدر إلى التكرار. في الحقيقة لم يُغالِ في التأكيد قدر ما بالغ في التهويش، ربما لأنه لم يسيطر على أعصابه، ابتدع ذلك الصخب العابر والعقيم المرفق بشذرات في منتهى اللؤم. خاله رزيناً وحصيفاً، إذ به متأهب لمشاكسات ممطوطة ووقحة، لم يغضب من إجاباته بل من عدوانيته وخداعه. ما الذي يميزه عن أقرانه المسلمين؟! ربما تلك اللمسة المسيحية التي لم تضنّ عليه بلمحة من ورع ووداعة، شابها تصلب شاذ، تبدى جهراً في فظاظته البدوية المتأصلة. عموماً، ينبغي ألّا نغض الطرف عن المنبت الرديء، مهما كان التدين قويماً.

هذا التقييم لن يفيده أو يسعفه، لأنه لم يكن ابن لحظته، إذ إنهما بعد أن تمشيا معاً صامتين في السوق، لم يتركا بعضهما إلا بعد تعارفهما، لو أنه كان ابن لحظته لوفَّر على نفسه، قطعاً، معرفة أن الخوري يدعى بطرس البحصاوي، قادم من دمشق ليخدم في الكنيسة الأرثوذكسية في القدس. إلى هنا والأمر مقبول، أما الأمر غير المقبول البتة، فهو أن الخوري فنان أيضاً، أي يشتغل بالألوان،

أي رسام ومرمم أيقونات!!

كان قد وجّه ضربة قاصمة لبيردي الذي امتقع وجهه، وصار أبيض اللون، فاجأه أن الخوري ليس زنديقاً في بعض أفكاره وأعماله فقط، بل آثماً قلباً ويداً أيضاً، ومهما كان هذا الرداء الذي يلبسه رياء أو عن قناعة، فقد بات مشكوكاً في مسيحيته. لم يبق منه سوى مجرد عربي، والأدهى دمشقي، والأشد مرارة أن نقاشهما أغلق قبل تعارفهما بعبارة حاسمة أطلقها الخوري «أنا أتبع هدى قلبي» وفات ما فات، ولن يفتح الحديث ثانية إلا بعد أسبوع. ليته لم يضرب له موعداً الأحد القادم./

3

أعلمني كرو باتصال طرواح به في الفندق وطلبه المساعدة، وأنهما تواعدا على اللقاء اليوم في مكان أكد عليه طرواح ألّا يفصح عنه لأحد. تعهد لي كرو باصطحابه معه بعد انتهاء لقائهما إلى بيت سعاد على أن أتولى أنا الباقي، كنتُ معتمداً على سعاد في إقناع طرواح بالكف عن نشاطاته والتعاون معنا.

في الصالون، وأنا أتوقع دخولهما بين لحظة وأخرى، استغرقت مفكراً بطرواح. سأتعرف عليه بعد قليل. على التأكيد لن نختلف، ما يسعى إليه كلانا كان واحداً. لن أخدعه، سأقدم له وعوداً حقيقية، وفي المستقبل لن أخذله.

تململت سعاد، شكت من الحر، تبادلنا بلا حرارة بعض الكلمات عن الجو المتقلب، لم تجد سعاد حديثاً مشتركاً سوى انتقاد جهود غوبلان التي خالطها التحيز، ولم يكن إلّا مقدمة للإشادة بكرو.

«كرو على العكس من غوبلان، اقتصر على طبيعة عمله، التنقيب عن الآثار والتعريف بها كمواد خام، لم يتعجل عملاً دقيقاً وبطيئاً قد يمتد سنوات عديدة، وما جعله معوقاً بالنسبة له، ذائقته الجمالية».

لم أتابع حديثكِ، وإن كنت منصرفاً إليكِ بكليتي، مأخوذاً بانفعالاتك المتبدلة وأنت تمتدحين كرو لمجرد أنه يتقن عمله، أو لأي شيء مهما كان هذا الشيء. تهتُ فيكِ وتبهتُ عليكِ وأنتِ تقولين بأن كرو كان محترساً، تقولينها بإلحاح. سألتك: محترساً!! ممن؟!

«من نوازعه الفنية؛ وأيضاً ضدها، بعدم الانقياد لها. كانت اللُّقى التي يجدها تُشَكّلُ إغراءً لا يقاوم، كان قِدمها وحده سبباً لجاذبيتها، فكيف وبعضها متخم بالجمال؟!».

سرحتِ بعيداً في مديحكِ، وسرحتُ بعيداً في تخميناتي، لم يكن فرط حماستك له إلا من فرط اهتمامك به، ينبعث من كل كلمة تقولينها عن الآثار والمصادفات ونفايات الطين والحجر.. وملايين السنين.

«الألواح والأعمدة والأنصاب، توضع على قدم المساواة مع الأدوات والأشياء الصغيرة، المتخلفة عرضاً، مهما كانت تافهة، ولعلها لا تستحق البقاء، لكنها ذات قيمة كبيرة في رصد مظاهر الحياة البشرية المنقرضة».

أتأملكِ، إعجابي القديم بك يتجدد ولا يفارقني، أتلمسه حباً خالصاً استعدته، يحدث ولا ينتهي. قلتُ، عليَّ الإقلاع عن حبكِ. قلتُ، يجب أن ينتهي.

«حين يلتقط صورةً فوتوغرافيةً لنقش أو تمثال، يتجنب التصوير الفني، متحرزاً من لعبة الظل والنور، لعبة لن تكون إلا تزويراً متعمداً بتسليط إيهام غير أمين».

هل كان بوسعي ألّا أحبكِ؟! هل كان بوسعي أن أكرهكِ؟! ما أسهل أن أكرهكِ، ما الذي كنت أخشاه؟!

«.. ظلٌّ يُعتم أو يُتمم، نور يضيء أو يُضخم، خطأً، نتوءاً، ملمحاً، تعبيراً».

أترجّحُ بين الحب الأعمى والنقمة العمياء.

«هل تسمعني؟!».

لمعتْ عيناكِ بخفة ومكر، كنتِ قد أدركت سري، وفاجأتني عندما قلتِ لي بصوت قادم من السهو، وساهٍ:

«أنتَ، مهتمّ بي، وحدي».

أخذتِني على حين غفلة مني، لم أكن مُهيأً لأبوح لكِ بمشاعري.

قلت لها، ربما كنت مهتماً بها من جراء معرفتي المديدة بها، من أيام مدرسة الراهبات، كما تتبعت مصادفة أخبار حبها وزواجها وأحزانها، وأقاويل عن طلاقها ومغامراتها. انتبهتُ وأنا أقول لها إنني لم أصدق شيئاً عن مغامراتها الكاذبة، أنني كنت أنفي عنها بحرارة وحماسة أي شيء يمس صورتها الجميلة في ذهني.

«لا تقل لي إنك تحبني!!».

لم أستطع تحديد معنى عبارتكِ. هل كنت منزعجة أم آسفة؟ آنئذٍ، خيل لي أنك معتادة على تمهيد كهذا يسبق اعترافاً بالحب، وبما أنك ظننت أنني لن أشذ عن هذه الحيلة المألوفة التي سمعتها مراراً من معجبيك، بادرتِ واستبقتِ اعترافاً لم ترغبي في سماعه.

«هل ضايقتكِ؟» قلتُ غاضباً.

«لا.» صرخت باستغراب «بالعكس أنا أرتاح إليك، وأرغب في رؤيتك، أنت أكثر من صديق، هل أنا واضحة؟! افهمني، أريد من كل قلبي ألا أؤلمك».

كيف كان لي أن أتكهن أنك كنتِ عالقة بي، كما أنا عالق بك، وكنتِ تحولين بيني وبينك؟!

لم أعد أسمعها، أو ربما سكتنا واسترسلنا في صمت طويل.

جاء كرو وحيداً، وقطع حديثها أو صمتنا:

«طرواح لم يأت».

أخذ يذرع الصالون متحاشياً نظراتي المتسائلة، وقلقاً. كانت تحاكيه في قلقه، لم تنزع عينيها عنه، وهي تصب حنقها على طرواح.

«تَسَكَّعَ بين الأحزاب والمعارضة، ورفض بغباء عرضنا بمساعدته، ما الذي ينوي تخريبه بعد؟!».

«لا ينوي تخريب شيء» قال كرو، وتوجه بحديثه إليَّ «رأيته يتبعني ثم فقدته، انتظرته حسب اتفاقنا في مطعم سقراط، شاهدته يمر على الرصيف المقابل، لم يخلف موعده، لكنه لم يدخل».

«سيتصل بك ثانية.» قالت سعاد.

تقدم كرو صوبي.

«لم يدخل لأنه لاحظ أنني مراقب».

«ربما كانوا يلاحقونه.» علَّقتُ متظاهراً بالدهشة.

«بصراحة، أنتم الذين تراقبونني.» حدق فيَّ «قلت لك أكثر من مرة إنني راغب في التعاون معكم».

«على كل حال سأتحرى عن الأمر، إذا كان صحيحاً فسوف يتوقف فوراً».

هدأت أعصاب كرو، تردد لحظات، ثم حزم أمره:

«سيظهر طرواح في مكان آخر».

«في بيروت؟!».

«لا تضيّقوا عليه، قد يقدم على عمل جنوني».

«سيتصل بالأميركان، أليس كذلك؟!».

«لا، لا يفكر بهذا».

كان مصراً على حصر تحذيره في حدود التلميح.

«لماذا تدافع عنه؟!» سألتُ كرو.

«أنا لا أدافع عنه، بالعكس، غالباً ما كنت على خلاف معه، ونصحت غوبلان مراراً بقطع علاقته معه. كان يحاول مشاركتنا في أعمال التنقيب عن الآثار».

«ألم يكن النفط وحده همه؟!».

«كان سيشترط عليكم إرغامنا على القبول به عضواً عاملاً في البعثة».

«هل تعارضون في وجود شخص سوري معكم؟».

«غوبلان لم يكن متحمساً، وأنا كنت معارضاً، ليس لأنه سوري، بل لأن طرواح» توقف قليلاً، وتابع باستخفاف «بلا خبرة أو كفاءة. لدى طرواح معلومات واسعة ومتنوعة لا بأس بها، لا أغمطه قيمة معارفه، لكنها سطحية جداً، في بعض الأحيان، يتمسك بها دون التثبت منها، وطموحة أيضاً، لقد تنطح لتأكيد وجود حضارة قديمة، زعم أنها أم الحضارات!! يستطيع أن يزعم ما يشاء، لكن ما الدليل؟! وغالى كذلك في تعتيق أدلة صنفت على أنها متأخرة، كان تدخله سخيفاً لا يطاق، اختلفت معه بقوة، تصَّورْ لو أن مشاداتنا تسربت إلى صحفكم، فلن ينشر رأيه على أنه زعم ضعيف وواه، غير مقبول علمياً، بل في أن البعثة تتستر على نتائج نهائية، محدثاً ضجة كبيرة وفارغة، لا تعدو سوى أكاذيب ترضي غيرتكم القومية، تشاركون فيها بحمية وطنية وحسن نية، في حين أنها تأويلٌ مغرض ومشؤوم على العلم».

«ماذا كان رأي غوبلان؟».

«لم يأخذ بها طبعاً، اعتبرها مجرد هذر».

وكان بوده إضافة شيء آخر، لكنه لم يجد الكلمات المناسبة، فنبس بسأم:

«أبعدوه عنا.»

كاشفاً عن مبعث ضيقه ورغبته في التخلص من طرواح، مؤكداً بوضوح؛ لن يسلمه لنا إلا بهذا المقابل. عززته سعاد قائلة لي:

«لماذا لا تتفاهمان؟».

«نحن متفاهمان.» قلتُ وتريثت.

«على ماذا؟».

لم يكن هناك ما يبشر بعودة البعثة، التفتّ إلى كرو ووافقته.

«طرواح لا يحوز المؤهلات الكافية».

تلقف كرو جوابي برضا، وبادر يدلي بما يعرفه:

«حالياً، ينوي البقاء في المعارضة».

«لم يعد له مكان بينهم».

«هناك جديد، لقد قطع اتصالاته بقادة المعارضة، وانتقل إلى صفوفها الخلفية، وتوارى بين شبانهم، استقبلوه بترحاب، ووجد لديهم صدى كان يبحث عنه».

كان كرو يُروِّج صورة حاذقة وذكية لتحركات طرواح. ما جدواها؟! قلتُ نافد الصبر:

«سيجرب ولن يفلح».

«لا تستبق الأمور.»

استدار كرو من خلف سعاد، واجهني معتمداً بكفيه إلى ظهر مقعدها، مسدداً نظراته نحوي. شعركِ يلامس أصابعه، يدكِ تلتف على صدركِ وتنسحب إلى ظهر مقعدك، بطرفِ عينكِ ترشقينه بنظرة سريعة وابتسامة متواطئة وخاطفة، أصابعكِ تقترب من أصابعه، تلمسين قبضته، كنتما مواجهتي طرفاً واحداً. اعتدل بقامته منتزعاً قبضته من راحتها. نظرتِ نحوي، كأنك تسألين أو تتساءلين، ألسنا ثنائياً رائعاً؟! أشفقتُ عليك، أنا المنساق إليك، ألم أتطرف في إخفاء عواطفي نحوكِ، كما تطرفتِ أنتِ في إظهار عواطفكِ نحوه؟! تلاقت نظراتي مع نظرات كرو، أشعرني أنه يسايرها من غير ارتياح، أو هذا ما حاول أن يوحيه إليّ. كفكِ مفتوحة وأصابعك مبسوطة باتجاهه. تجاهلها ورمقني، كان إحجامه مصطنعاً، كما كان إقباله سيبدو رياء، وربما كانت نظراتي المشفقة، جعلته يتروى ويطمئنني، بتعبير مختلس، إلى أنه مجرد معجب بها، فانعتقتُ من الشك إلى اليقين. وأيضاً، مستغرباً، أو مستنكراً تهافتها عليه، أو عدم تحوطها، وكأنه لا حيلة له معها.

أنّى لي، لحظتئذٍ، أن أتأكد أو أحزر، أنه هو بالذات، ربما كان منساقاً مثلي، ولم يكن يدري؟!

دولمونت ـــــ /

: كنا على علم بأن كرو على صلة بسيدة سورية، اسمها سعاد، إن لم أكن مخطئاً؛ تُديرُ صالوناً أدبياً، هي التي رعت من قبل

علاقة غوبلان ـ طرواح، وفيما بعد علاقة كرو ـ طرواح. عمل كرو جاهداً على أن تثق به ونجح، ثم أفسد علاقتها بطرواح الذي غادرها بعد أن كان مختبئاً لديها.

: لا، لست متأكداً. إنها تخميناتي، تصرفات كرو في حينها لم تكن محيرة، علّل عدم تعاونه برغبته في المحافظة على سمعته نظيفة، وأيضاً كي لا يسيء إليكم. عذرته وتساهلت معه، لم أبخل عليه بالمعلومات والتحذيرات ليكون على بيّنة مما يجري، بالمقابل، زودنا بمعلومات صحيحة، وأخفى عنا قدراً منها، قدراً لا بأس به. كان مثلنا، وراء أوراق غوبلان، وراهن أن طرواح سيعطيها له، محاولاً الاستفراد به بإبعاده عن السيدة سعاد. حينما جرب طرواح إصلاح أموره معها عن طريق كرو، حذَّره بأن بيتها مراقب، فاستجاب طرواح لتحذيره، دون أن يأمن له تماماً. الأمر الذي لم أفهمه حينئذٍ، هل كان يريد طرواح لكم أم لنا؟! كانت هناك أشياء غامضة في أذهاننا ولم تكن غامضة في ذهنه، أعتقد أن ما شوشه وشوشنا معاً، أن أحداً منا لم يتوقع أن طرواح كان لا يحرك قضية النفط فحسب، وإنما يُعَقِّدها بتعدد الجهات التي أطلعهم عليها، وأدى بذلك خدمة للأميركيين دون أن يعرف. كنا ننظر إليه كعقبة لا لزوم لها ويجب إزاحتها، حاولنا اقتناصه لنضبط تحركاته، بيد أنه كان دائماً يسبقنا بخطوة، تداركها لم يكن عسيراً، لكن كان من الصعب التكهن بما سيقدم عليه، أو تخمين ذيول تحركاته الطائشة، كان الأميركيون ينظرون إلى طرواح بمنظار مختلف، أبعد مما كنا ننظر. /

4

تراجع قادة الأحزاب، ومعهم قادة المعارضة، وبرأي واحد: ليس هناك ما يستوجب عناء الشراكة مع الجيش، أو المخاطرة من دونه؛ فلندع الحكومة تلعب لعبتها الصغيرة، قصيرة الأمد والخاسرة. أما طرواح المنسحب من صورة اكفهرت أياماً وصفت دفعة واحدة، فقد عثر على أخرى، ولجها وتجول في داخلها بين بؤر المعارضين، يحرضهم ضد تراخي قادتهم، متهماً إياهم بمجاملة الحكومة ومساومتها.

لم يكونوا على أهبة الاستعداد فقط، بل على أهبة العمل أيضاً، باستجابتهم العارمة والصادقة، شبان صلبون ومتصلبون، مشاكسون بالسليقة، ريفيون وفقراء، طلبة جامعة وأبرياء، مغمورون ويقبعون في المؤخرة، ضاقت صدورهم بشجون السلاح، وانفرجت أساريرهم ببريق النفط، قضية فَشَتْ بينهم على أنها لا تقبل التنازل

ولا التمييع. لكن ما الذي يفعله شبان مخذولون من قادتهم سلفاً، عزّلٌ إلا من المبادئ والأحلام؟! توجهوا صوب معقد رجائهم، أصدقاؤهم ومعارفهم من الضباط الصغار المجايلين لهم، المبعثرة شللهم في الألوية والأفواج.

وكأن الضباط الصغار المبعثرة شللهم، كانوا على أهبة الاستعداد وجاهزين للعمل كذلك، في انتظار هؤلاء الذين يحملون في رؤوسهم رجاء التغيير الشامل وفي جعبتهم قضية وحدت صفوفهم، لا مراء في وطنيتها بشقيها، السلاح مجللاً بالغضب، والنفط مكللاً بالأمل، تُثبتها حكومة أنكرتها وأحزاب أدارت لها ظهرها. والآن، باتت تخصهم.

تبدت حماسة الضباط بخطوات متلاحقة، مخططات حاسمة للمستقبل القريب، ومُحكمةٌ للمستقبل البعيد، ومخططات بديلة في حال الخطر أو الفشل، ولجنة لا تهادن، تُمَثِّلُهم وتنقل احتجاجاتهم مبدئياً إلى قادة الجيش. لكن، قائد الجيش، أم رئيس الأركان؟!

أجمعوا على استبعاد رئيس الأركان، العقيد سيسطو على الفكرة والدافع، أو سيزج بهم في السجن قبل الاستماع إليهم، لم يبق سوى قائد الجيش، فاختاروه؛ اللواء سيستمع إليهم، بل ويتبادل الرأي معهم، مفسحاً لهم المجال كي يقنعوه بنواياهم، وفيما بعد بمخططاتهم. ألم يكن اللواء مدربهم في الكلية الحربية، وعَهِدوه حليماً واسع الصدر، عاملهم كأبنائه، غمرهم بمشاعر أبوية وإرشادات عسكرية ونصائح أخلاقية، وقادهم على الخرائط، وفي مناورات الحرّ والذخيرة الخلبية والدخان؟!

بالفعل، أصغى اللواء لممثلي الضباط الناقمين على الجميع ـ بعد أن استثنوه منهم ـ وحَمَّلوهم جريمة ـ لا تقل عن الخيانة ـ التسيب الفاضح في استدراك السلاح، والتعتيم الشامل على النفط. ثم، استعرضوا حركتين متكاملتين في عملية تغيير واسعة. في القطاع العسكري، توجيه ضربة قاصمة للعقيد وأعوانه. في القطاع المدني، إقالة الحكومة، وتشكيل حكومة من الحزبيين المعارضين المنشقين عن أحزابهم.

«انقلاب؟!!»

همس اللواء، مجملاً لنفسه العملية بكليتها. صححوا له ما أخطأ في جزء منه، ما سيجري ليس انقلاباً، لأنه سيتم تحت قيادته، وأشبه ـ لنقل ـ بانقلاب، لأنه ليس مطالبة بإصلاحات طفيفة؛ ستكون الإصلاحات جذرية.

وافقهم، لقد أخطأ، ما يدفعونه إليه أصبح جلياً، التخلص من العقيد وأتباعه، بينما سيسانده على الصعيد المدني، تأييد الحزبيين المتمردين، مع قدر محمود لا يستغنى عنه من الدوافع الوطنية المطلوبة في هذه الظروف، علاوة على قَدْرٍ لا يستهان به من الوهم المحض غير المرغوب فيه، خاصة في هذه الظروف أيضاً، نتيجة قلة الخبرة، بإشراك الأحزاب مهما كانت صفة الأحزاب، أو القائمين عليها أو المنشقين عنها. هذا الوهم ينسف العملية برمتها. لكنهم كانوا قد أيقظوا في دخيلته رغبات دفينة، كانت قانطة، وفي حكم العدم، وأصبحت قريبة في متناول الواقع، واشتطت متجاوزة حدودها القصوى بتأكيداتهم على الوقوف إلى جانبه في حال عزل العقيد من منصبه، شَرطُهم أن يكون الجيش رقيباً، والأفضل وصياً على الحكومة المقبلة في قضيتي السلاح والنفط.

لم يومئ بما قد ينم عن تأييد، وإلا كان في صدد مباركة ما أطلقوا عليه اسم «تغيير». وهو، مهما تلاعبوا بالألفاظ، انقلاب غير مختمر، ولا ناضج،كما لا ينبغي إجهاض الفكرة بالكامل، بل مؤقتاً، بتنظيفها من شائبة الأحزاب، وتأجيلها إلى أجل غير مسمى، هم فيه عدته. فيما، حالياً، لن يكون غض النظر عنهم سوى مشاركة في مؤامرة. هل لها اسم آخر؟! ومهما كان، ومهما يكن، فهم مهما كبروا، ما زالوا تلامذته، وإذا كانت الأحزاب لعبت برؤوسهم، فعليه بدوره توعيتهم.

«ما يحرضونكم على القيام به شأن داخلي يعني الجيش وحده، أتمنى عليكم ألا تتيحوا لهم النجاح من خلالكم، بما أخفقوا فيه مع غيركم. هؤلاء الشبان الذين يزينون لكم هذا السبيل، ما هم، أولاً وأخيراً، إلا حزبيون سرعان ما سيفيئون إلى كنف أحزابهم».

بعد أن خاطبهم بتعقل، ذيَّل كلمته بخلاصة عن تجربته الواعية، وتجارب من سبقوه غير الواعية، مع أمثالهم من الحزبيين، ودفعوا الثمن غالياً. كان سخياً بنصائحه، وسخياً بتوبيخاته. وفي الختام.. كادت أن تكون تجربة، لن تجرَّ عليكم، وعلى مستقبلكم غير الويلات، وقد وفرتموها على أنفسكم.

تراكمت الإخباريات فوق طاولة العقيد، عن تآزر الضباط وعزمهم على الاجتماع باللواء، لم يستغرب التجاءهم إليه، خشي فقط أن يصيبوه بعدوى طموحاتهم ويبرموا له رأسه باتجاه الإذاعة، مقابل رئاسة الجمهورية، منصب بات وارداً وواقعياً في السنوات الأخيرة، وليس صعب المنال، هناك قائد للجيش تسنمه، وحظي بإجماع شعبي كاسح. هذا بدلاً من المحافظة على منصب لم يحصل

عليه بوضع دمه على كفه، أو حتى بعرق جبينه، وإنما بحكم أقدميته، قُدِّمَ إليه كأعطية عوضاً عن تسريحه، ما رشَّحه له، وجوده بمحض المصادفة في الأركان صبيحة الانقلاب الأخير، ودرءاً للمنازعات بين الضباط اختاروا أقدم الحاضرين رتبة، وكان هو، وكان بلا سند ولا دراية، اللّهم، إلا إذا كانت أستاذيته في الكلية الحربية وصرير المراجع العسكرية الفرنسية، تفوقان قصف الطائرات والدبابات فاعلية. وهكذا، تسلَّم قيادة الجيش كتسوية، فضَّت مشكلة كادت أن تؤدي إلى خلافات لن تحسمها إلا الأسلحة، رضي به العسكريون والسياسيون على حد سواء، ولم تكن مؤهلاته سوى رخاوته وطيبة قلبه، وابتعاده عن التكتلات العسكرية والسياسية.

عقب اجتماع الضباط مع قائد الجيش، تواردت الإخباريات، وكان اللواء عند الجانب الحسن من ظن العقيد، صحيح أنه لم يكن حازماً كما ينبغي، وطويل البال كما لا ينبغي، إلا أنه كان صعب المراس، أشبع الضباط لوماً وتقريعاً، وأعادهم إلى صوابهم.

لكن أي صواب؟!

ساندرز ــــ / أبدى حسياني عدم ارتياحه من ظهور الضباط الشبان المباغت على الساحة. كنتُ ميالاً إلى رأيه، إذ ليس من اليسير التنبؤ بما سيحدث. ما هو حجم قوتهم أو مدى تأثيرهم؟! هل سيكتفون بالضغط أم سيتدخلون؟! وسواء كان هذا أم ذاك، فقد كثر عدد الأطراف. استحسنتُ التريث حتى تنجلي الأمور. /

أوستن ــــ / أخطأنا منذ البداية بتعاملنا مع حسياني كرجل

أعمال، لم نكن بحاجة لمن يملي علينا توجيهاته، أو ينصحنا بما نفعله، أو لا نفعله، كنا بحاجة لمن ينفذ ما نطلبه منه. طلبت من ساندرز تحويل مبلغ من المال لحساب حسياني بحجة تغطية مصاريف نفقاته، ويصر عليه في الوقت نفسه، استمزاج توجهات الضباط الشبان، عليه أن يدرك أن العمل مرتبط بالمال، وأننا نستخدمه عميلاً لنا داخل كتلة الضبط ونحن من يُملي عليه تحركاته، وأن يفهم أن ما نطلبه منه هو بالتحديد تنفيذ مهمات. /

ساندرز ــــ / أَعلمتُ حسياني بتحويل مبلغ من المال لحسابه الشخصي من حساب عمولته، وحاولت دفعه صوب كتلة الضباط، للاطلاع على آرائهم في معالجة موضوع النفط، لنستطيع تقدير أسلوب استغلالهم له في المستقبل. رفض حسياني الاتصال بهم، هذه الطريقة في العمل لم تعجبه، ولن يذهب ضحيتها، عدا أن الأمور ليست عاجلة بالشكل الذي أطرحه، لدينا فسحة من الوقت.

قطعاً، لم أتوقع، في تلك الفسحة من الوقت، أن حسياني سيبادر للعمل بالطريقة التي تروق له ومن غير أن يعلمني!! /

أوستن ــــ / تلخصت مشكلتنا مع حسياني في تلك الفترة، في أنه كان مصدرنا الوحيد لمجريات أحداث دمشق الداخلية، كان يغادرنا ويعود بلا أي خبر ذي أهمية، نبهت ساندرز إلى أن حسياني يعرف أكثر مما يصرح به، ولم يستخدم ما قبضه منه في التأثير على أحد، كل ما فعله هو أنه أبقاه في حسابه في البنك، وأبقانا في ظلام، في الوقت الذي نحن فيه متحرقون لمعلومات،

أية معلومات!! صار وضعنا متردياً لدرجة أنني أصبحت أستقي الأخبار من الإنكليز والفرنسيين، وكانت متناقضة ولا ينقصها التهويل: تشتَتَ تكتل الضباط وعادوا مجموعات صغيرة لا يؤبه بها. ثم، فجأة: تحركات غير عادية في الجيش والأجواء تنذر بانقلاب، أو انقلابات، وعلى الأصح فوضى انقلابات. الإنكليز يشيرون إلى مجموعة فلان أو فلان، وربما فلان. والفرنسيون يشيرون إلى مجموعة فلان أو فلان، ولعله فلان. بدت من تعددها خيالية وغير معقولة ولا موثوقة، وكأنهم ينقلون إلينا شائعات المقاهي والأرصفة بلا تمحيص، لم نتيقن من خبر واحد نَركَن إليه. لم نصدق أو نكذب، إذا كان هناك انقلاب واحد مؤكد من هذه الانقلابات، فسوف يباغتنا، ولن نعلم بهويته أو من سيقوم به إلّا بعد وقوعه. /

فعلاً، أي صواب؟!

إثر انصياع وفد ممثلي الضباط لتوجيهات قائد الجيش، تفرق شملهم. تابع العقيد تراجعاتهم من خلال تقارير الشعبة الثانية، واطَّلع على خلافاتهم قبل انفراط عقدهم كمجموعة واحدة ومتماسكة، والمتمحورة حول هل ينفضون أيديهم مما اعتزموا عليه نهائياً أم يعاودون الكرة مع اللواء؟ لم يتنازل أي منهم عن موقفه، وعلى هذه الحال عاد كل منهم إلى قطعته، بعد ذلك، لم يهتم العقيد بأمرهم.

ما جهله العقيد، بعد رجوع كل منهم إلى موقعه، أنه عاد إلى شلته، وهناك احتدمت الآمال والخطط من جديد، ضاربين عرض الحائط بتحذيرات اللواء الأبوية.. وكأنها لم تكن، التراجع!! ليس

إلّا العودة إلى ما كانوا عليه دونما هدف. يتصيدونه، فيما لديهم قيد العمل وفرة من الغايات تنتظر الإنجاز، والوسائل الكفيلة بإنجازها. ومتى؟! بعد أن تلاحمت كل شلة تلاحماً أقرب إلى الجاهزية، واكتفت بمَلاكِها وعناصرها وأعضائها وصارت بغنى عن غيرها.

صوَّبت كل شلة، وعلى حدة، خطواتها العملية على الشكل التالي: المُضيّ قُدماً، دون قادة، أو شركاء، وبحجة دامغة، فشل الحكومة والقيادة في قضية السلاح. أما النفط فلا ضير عليه، سوف يأتي يوم يصبح فيه واقعاً، عندئذٍ يفكرون فيه. وما تداعى، بعدئذٍ، كان عفو البصر، إذ بمتناول النظر، إن لم يكن بمرمى حجر، الإذاعة والأركان. أليس من التعسف تفرقهم رضائياً وهم على قاب قوسين أو أدنى من انقلاب يبدو من ألفه إلى يائه موجزاً باعتقال رئيس الأركان وتطييب خاطر قائد الجيش، ومسارعة الأحزاب لمعارضتهم علناً، وتباريها لتأييدهم سراً، فضلاً عن أنه إذا تقاعست شلة فالأخرى ماضية فيه؟!

واختارت كل مجموعة شرف الريادة وتركت لغيرها شرف الالتحاق أو وصمة التردد، وبات التحرك مسألة أيام قليلة، ينبغي اختصارها إلى أيام أقل.

5

دعتني سعاد إلى المنتدى، لحضور حفل افتتاح الموسم الثقافي الصيفي، وأصرّت على قدومي، الأمسية الأولى كرستها لذكرى شارل غوبلان، وسيلقي كرو كلمة تعريف وتنويه بأعمال غوبلان وأفكاره. كانت بادرة طيبة، شكرتها على الدعوة، ووعدتها بالحضور.

قبل الظهر، طلبني رئيس الوزراء إلى مكتبه ودعاني إلى الغداء في دارته الصيفية في الزبداني، اعتذرت بأنني مرتبط بموعد مسائي وأخشى أن أتأخر ويفوتني. لم يقبل اعتذاري. قال إن الغداء غداء عمل ولن يطول، وسيكون حاضراً معنا تاجر سوري يدعى رأفت حسياني.

«أظنك سمعت باسمه».

«لا».

«رأفت صديق قديم، حديثنا معه سيدور حول النفط، وجودك ضروري (وتابع ضاحكاً) أخشى أن تورطني صداقتي معه بوعد لن أفي به.»

في الحقيقة، كان يريدني شاهداً على حديثهما، احتياطاً من يوم ما.

واستعرض لمحات من علاقتهما، أيام التحصيل في مدرسة مكتب عنبر، نشاطاتهما الكشفية، مشاركتهما في الإضرابات والتظاهرات ضد الانتداب الفرنسي، إلى أن سافر لمتابعة دراسة الحقوق في باريس، وتابع حسياني تجارة أبيه في سوق البزورية؛ وتوسع بتجارته إلى بيروت وامتدت نشاطاته إلى أوروبا، كتاجر بالعمولة في مجال الاستيراد والتصدير مع مصر ولبنان وسورية. أما رئيس الوزراء فقد توظف في الخارجية بعد إنهاء دراسته وعودته من باريس، وكُلف بمهمات دبلوماسية في العواصم الأوروبية، حيث التقى بصديقه على عشاء في مطعم أو نزهة في الأرياف أو تسكعا معاً في الشوارع. أبلى حسياني في تلك السنوات نجاحاً تجارياً متواصلاً، برز في تعدد أعماله وتشابكها وتجلى في تضاعف ثروته، وأبلى رئيس الوزراء نجاحاً سياسياً تجلى في المناصب الوظيفية التي ارتقاها على عجل، ثم انتخابه نائباً في البرلمان، وتعيينه وزيراً أكثر من مرة. وشهد إخفاق خططه الطموحة التي لم تجد لها متنفساً في الحكومات التي شارك بها، كما أضاع جزءاً لا بأس به من ثروته في الانتخابات النيابية والوجاهة المتطلبة. خلال لقاءاتهما المتباعدة، أيده حسياني سياسياً وارتاب منه اقتصادياً.

خلّف حسياني في نفسي، لحظة دخوله متأبطاً ذراع رئيس الوزراء، انطباعاً بالادعاء المقيت، ربما من نظراته اللامبالية بي، وحركات يديه الفائضة مع ضحكة مجلجلة بلا سبب غير اصطناع المرح. عندما اقترب مني، كان سميناً أقرب إلى القصر، شدَّ على يدي متكلفاً أن تبدو مصافحته حميمة. بعد حين، كانت حركاته رشيقة بلا تمثيل، أما ابتسامته العريضة فقد لاحظتها، قلما تغيب عن وجهه الطفح المشرب بالحمرة، وقريبة من القلب. لم تكن ضحكاته عالية إلا لإخفاء ارتباكه وخجله باستعراضية طلية. رمقني بنظرة متفحصة:

«سمعتُ عنكَ أشياء جيدة، أرجو ألا تشكل عائقاً بيننا».

معبراً بابتسامة خفيفة عن بشاشة ذكية.

على الشرفة، قبل الغداء، دار الحديث بينهما، فضفضة عن النفس والذكريات، شيء من هنا وشيء من هناك، رفاق الدراسة وأحوالهم، أوروبا التي فقدت بريقها، مثالب السياسة، صفقات تنتزع انتزاعاً، الدنيا تتغير. كان حسياني يُعنى بالسياسة بقدر ما تعرقل تجارته أو تُسَهِّلها. لم أشارك في الحديث، بدت سهول الزبداني مريحة للنظر.

بعد الغداء، مع القهوة المرة، طرق حسياني موضوع النفط مباشرة، وبين الفينة والفينة كان يختطف نحوي نظرة. قال: النفط عملية ضخمة، لم يصادفه مثيل لها في حياته، وبالنسبة له صفقة العمر، ورغم أنه تهيب منها فقد كانت من نصيبه دون أن يسعى إليها، اختاره الأميركيون لأسباب عدة، تاجر سوري على دراية بالأعمال

التجارية الكبيرة، صلاته على مستوى واسع داخل أوروبا وخارجها، علاوة على معرفته الجيدة بالأوضاع الداخلية السورية. الأميركيون عمليون، وحرصهم على إحراز السبق في الحصول على امتياز التنقيب يوازيه حرصهم على ألا تتهدد مصالحهم في المستقبل، يريدون طرق الباب الصحيح، لكن لديهم أفكار مشوشة عن سورية، بسبب مصادرهم الضعيفة، ما يطالبون به لا غبار عليه، إقصاء السياسة بعيداً بعدم خلطها مع النفط، لا يجهلون أن توجهات حكومتهم يُساء فهمها حالياً وقد تضر بهم، لذا يأملون الفصل بينهما، إنهم لا يمثلون الحكومة، والحكومة أيضاً لا تمثلهم، ربما في المستقبل يحصل توافق أو تفاهم بينهم وبين حكومتهم، وهذا لا يعوِّلون عليه الآن. مبدئياً، من جهتهم، سيطرحون عليكم عقداً لا تشوبه شائبة. من جهتكم، المستحسن أن تكون اللاأفضليات سارية على الجميع، وكدليل على نواياهم، هم على استعداد للتقدم بعرض مفتوح يرجون منكم دراسته بواقعية، وأن يؤخذ في الاعتبار، أنهم في مجال النفط الأولون في العالم، من حيث تطور خبراتهم ومعداتهم، لن نتكلم عن مساوئ الآخرين، المحك هو السعودية والكويت، المهم عدم تضييع الفرصة في المناقشات الوزارية والبرلمانية والمماحكات الحزبية.

أصغى رئيس الوزراء بعمق، وبدا متحفظاً من غير مبرر. حاولتُ التدخل، كان لدي أكثر من اعتراض، منعني رئيس الوزراء بإشارة من يده، فيما كان حسياني يتوغل في حديثه مشدداً على اتفاقية سريعة و.. لولا أن قطعه رنين الهاتف.

سارع رئيس الوزراء إلى الهاتف، استمع مطولاً، صامتاً ومنقبض الملامح، تلفظ ببضع كلمات ورجع محتقن الوجه، لم ينبس

بكلمة، خمنت أن ما سمعه كدره، فيما لاذ حسياني بالصمت. بعد قليل، طلب رئيس الوزراء مني أن أتكلم. لم أتناول الأفكار التي طرحها، بل تقصدتُ التوقف عند نقطة ألحَّ عليها حسياني، وهي إصرار الأميركيين على مخاوفهم، وبالمقابل أن نرمي بمخاوفنا جانباً. سألته:

«هل عرضُكَ هذا له علاقة بمندوب شركة نفطية أميركية يدعى جاكساندرز؟».

«إنني أحل محله في سورية، وهو ينتظر دعوة منكم إلى لقاء عمل جدي.» التفتَ إلى رئيس الوزراء «إذا وافقت على استقباله، فهو جاهز للتباحث معك في التفاصيل».

تابعتُ قبل أن يجيب رئيس الوزراء:

«وإن لساندرز علاقة وثيقة بشخص يدعى وليم أوستن؟».

«أوستن؟! أظنني رأيته مرة».

«أظنك أيضاً، لا تجهل أنه المسؤول الأول عن المخابرات الأميركية في لبنان».

«ساندرز وأوستن أميركيان وصديقان، تصادف أنهما التقيا في بيروت.» أكمل ساخراً «ستقول لي، إن ساندرز يعمل لأوستن».

«لا أعتقد أن صداقتهما تجوز عليك، إنها وليدة الأسبوعين الفائتين».

«هل هذا تحقيق؟!» تساءل حسياني بانزعاج.

«رأفت بك، تروّ». تدخل رئيس الوزراء «معلوماتنا تقول بأنهما يعملان معاً، إنني ومنذ ظهور أمر النفط، لم أتمكن من تمييز أحدهما عن الآخر».

«حسناً، يجدر بنا ألا نخلط بينهما.» كظم حسياني انزعاجه بابتسامة ساخرة «شركات النفط ليست مطية للمخابرات الأميركية، ساندرز مزود بصلاحيات وتعليمات يعمل بموجبها، مراعياً مصالح شركته لا مصالح المخابرات، هذا أمر مفروغ منه».

«يبدو أنها متوافقة في هذه الأيام.» قلتُ باستفزاز.

أجابني حسياني بحركة من يده نافياً باستخفاف. فتابعتُ استفزازه:

«اختاروك لأنهم يعلمون صلتك بدولة رئيس الوزراء».

«سأصارحك أيها الشاب.» انتتر بغيظ «إنهم لا يحبذون شخص صديقي، أنا الذي طرحته وأصررت عليه، أريد صفقة مضمونة، ولي الحق».

تدخل رئيس الوزراء ثانية، مهدئاً حسياني:

«ضع نفسك في مكاني، كيف أعقد اتفاقاً يتم تحت رعاية المخابرات الأميركية؟! أنغلق باب الأحلاف من جهة ونشرع أبوابنا من جهة أخرى؟!».

«الأحلاف وسواسكم!! نحن نتكلم عن النفط».

«حالياً، أي اتفاق نفطي، أو غير نفطي، يستدعي شبهة بالفعل».

«هل تحاولان إقناعي بمؤامرة وعملاء أنا أحدهم؟!» تساءل حسياني باستغراب مصطنع.

«إذا جاريتك فسوف أكون أنا أيضاً أحد العملاء، ومعنا هذا الشاب».

لم يخفِ حسياني تعجبه وخيبته. قال ممتعضاً:

«كان عليك بدلاً من هذه التبريرات، الاجتماع بساندرز ودراسة عرضه بدقة، والنجاح في صياغة اتفاقية تجعل زمام الأمور بأيديكم، ضع أفضل الشروط، دون بنود سرية وتواطؤات، إنها عملية تجارية فحسب، فلتكن مكشوفة تماماً، كان هذا سيجعلك مفاوضاً مفهوماً، أفضل من مسايرة المنتقدين وتخيل مؤامرة استعمارية».

«سأكون في منتهى الصراحة.» اعتدل رئيس الوزراء في جلسته مقترباً منه «ظهراً، تلقيت خبراً من مصدر أثق به عن انقلاب في طور التحضير تُعِدُّ له مجموعة صغيرة من الضباط. قبل قليل على الهاتف، أُعلمت بانقلاب ثان تُعِدّ له مجموعة ثانية، بالإضافة إلى شكوك في مجموعة ثالثة!! طلبت منهم متابعة الاستقصاء. الآن، أنتظر اتصالاً من مصدر آخر ينفي، أو يؤكد. ما رأيك؟! ألديك علم بهذا؟».

«سمعت شيئاً من هذا القبيل».

«من الأميركيين؟».

«جزء منه عن طريقهم، والباقي سمعت به في دمشق».

«أتعتقد أنها إشاعات؟».

«حتى ولو كانت.. فهي تعطينا فكرة لا بأس بها عن الأوضاع، إنها متردية وغير سارة، وضدك».

قطعتُ حديثهما:

«لا ينبغي لأقاويل أن..»

عاجلني رنين جرس الهاتف وقاطعني؛ كنت سأحدد مصدر الأقاويل بأنها أميركية وإنكليزية لتخويف الحكومة.

تعلقتْ أبصارنا على رئيس الوزراء المصغي باهتمام بالغ، دون أن ينبس بكلمة واحدة، إلى أن أغلق الهاتف وعاد قائلاً:

«تأكد الثالث».

خيم صمت حرج. تبادلنا النظرات بارتباك من غير كلام.

«الأميركيون ضالعون.» قال رئيس الوزراء.

«لا» سارع حسياني «بالعكس، وافقني ساندرز على عدم الاتصال بالضباط».

«إنهم ليسوا بعيدين عما يجري».

«وليسوا قريبين كما تتخيل».

«أتصور» قلتُ ناظراً إلى حسياني «أنهم يبحثون عن بديل».

أكد حسياني على قولي موافقاً، وقال لرئيس الوزراء:

«لا تجعلهم أعداءك».

نهض رئيس الوزراء من مقعده، تمشى بعرج واضح ذارعاً الصالون، مفكراً بانهماك. كأنما الجو ازداد حرارة أو اختناقاً، ربما بفعل لهجة حسياني، أحسستُ فيها إنذاراً، إنذاراً غير كاذب.

توقف رئيس الوزراء، قائلاً لحسياني:

«لا أريد أن أشعر بأنني مجبر على التعامل مع أي كان».

«إنك لست مجبراً وإنما مضطر».

«ما الفرق؟!» كان صوته مجروحاً.

تصاعد صوت حسياني آسفاً:

«أرى أن تغادر إلى بيروت يومين أو ثلاثة، ريثما تتضح الأمور».

«هل هذا تحذير أميركي؟!».

«بل تقديري الشخصي».

«إلى أي حد الوضع خطير؟!».

«ليس بودي إخافتك، إنها أكثر من ثلاث مجموعات».

«كم بالضبط؟».

«أحصيتُ خمساً، قبل مجيئي».

«هل رئيس الأركان على رأس أحدها؟».

«لا».

«إنك مطلع بشكل كاف.» قال رئيس الوزراء وقد انفردت أساريره.

«لا تغبطني.» ابتسم حسياني ابتسامته العريضة «أنا أخمن في بعض ما أقوله».

«وتخمن بأنه من الأفضل أن أرحل».

«تُحسنُ صُنعاً، إذا فعلت».

«وبماذا تنصحني أيضاً؟».

«مازال في الوقت متسع للسيطرة على الموقف، لا أعرف كيف، أنت أدرى مني، لكن وحدك لن تستطيع شيئاً».

كان الحديث قد سرقنا. نهض حسياني معتذراً لاضطراره إلى إنهاء مشاغله في دمشق والمبيت الليلة في بيروت. وتبرع بتوصيلي بسيارته.

مع بشائر الغروب، توشحت سهول الزبداني بلون رصاصي خالط خضرتها الغامقة، ولم تكن مريحة للبصر. تناقشت مع حسياني، كان غير متفائل، النفط عملية متعثرة في هذه الأجواء المكفهرة، وليست كما بدت له. ساندرز متردد، وله أسبابه المعقولة، موقف رئيس الوزراء أحبطه؛ بإمكانه المناورة وفعل شيء مؤثر يقلب الأمور لصالحه، تلمحه اليوم تعباً وسئماً على غير ما عهده، ربما كان بحاجة لاستراحة طويلة.

«هل تعتقد بأننا سنلتقي قريباً؟!».

وودعني بابتسامة خفيفة.

ساندرز ـــ / عاد حسياني من دمشق ليلاً، كنت في بار السان جورج مع أوستن الذي انسحب حالما رآه داخلاً، شيعه حسياني بنظرات مستفزة، وسألني، لماذا لم يبق ويسمع مني مباشرة؟! لم أعلق، فاجأني باجتماعه مع رئيس الوزراء السوري. قبل أن ألومه على عدم استشارتي، بادرني بأن رئيس الوزراء يشك في أن النفط غطاء لتغلغل أميركي في سورية، وأنه لاقى صعوبة في تصحيح أفكاره وتليين موقفه حيالنا. دافعت بأنه متحامل ضدنا ولم يكن جاداً معنا، ومن المخاطرة تعليق أية آمال على شخص ستنفرط حكومته في غضون أيام. تابع حسياني، بأنهم في دمشق يعلمون بأوستن ولا يرحبون بأية مباحثات يقف من ورائها. وحذرني: لا تستهينوا برئيس الوزراء، ولا تخلقوا منه خصماً لمشاريعكم، هناك حزمة من الشائعات ولن يقف إزاءها متفرجاً، فلا تعلقوا آمالاً عريضة على رحيله، فكروا في شيء أفضل، تفاهموا معه وادعموه بأي شكل ممكن، الاتفاق الذي يأتي به انقلاب يذهب به انقلاب، أبعدوا أوستن عنكم لتكونوا جاهزين لما يمكن أن ينشأ.

بدا ما سوف تأتي به الأحداث غائماً. ما الذي سيتمخض عنه وضع أصبحت واثقاً من تقلبه ونتائجه الوخيمة؟! ولأي طرف نعمل حسابنا؟! ومن الذي سيفاجئنا منهم أولاً؟! ومع هذا قلت له: لن نغامر ونحترق مع رئيس وزرائكم، أما إذا نجح فسوف يفرض نفسه علينا ويجبرنا على إعطائه ما يريد. سألني حسياني، هل تستطيع الشركة بوسائطها دعم طلبات السلاح السورية لدى الحكومة الأميركية؟ قلت له: الأمر ليس بهذه البساطة، نحن وحدنا غير قادرين. قال: أقصد مجموعة الشركات النفطية العاملة

في الشرق الأوسط، المطالبة لن تكون سوريّة بل عربية. قلت، هذا وارد.

قرر حسياني العودة إلى دمشق للتباحث مجدداً مع رئيس الوزراء، لم أثبط همته، كان رأيه أن دعمنا لرئيس الوزراء سيجعله يثق بنا، إن ثقته ستكون أفضلية بالنسبة لنا، وهي فرصة جديرة بالمحاولة. ردة فعل أوستن كانت رافضة، قال لا تعطه وعوداً، لقد فات الأوان ولن تفيده مجازفة اللحظات الأخيرة. /

أوستن ـــــ / مهما كانت هوية الانقلاب القادم، فلن يكون أسوأ من حكومة بقاؤها مرهون بإرضاء الجميع، في حين سيكون الوضع الجديد هشاً بلا سند، قابلاً للاستغلال والتنازلات، منذ الساعات الأولى سيجهد الضباط إلى استجداء اعتراف، أو صمت الدول الكبرى؛ في هذا الوقت سنتلقفهم ونفاوضهم، نحن؛ أو عبر طرف آخر، مفاوضات غير فضفاضة، بل مفاوضات واضحة، محددة، وصارمة. /

ساندرز ـــــ / اقترح أوستن الاستغناء عن حسياني بحجة أنه بات وسيطاً عالة علينا ومزعجاً. أرسلتُ برقية إلى فرع الشركة في لندن، استعرضتُ فيها أفكار حسياني وأيدتها، وحذرتهم من أن أوستن يهدد مشاريعنا في سورية بأعمال ستلصق نتائجها السيئة بنا، وإذا كان من مهمة ما زالت مسندة لي فإنني أرتئي مواصلتها وحدي. كان جواب الشركة، أنها حوَّلت برقيتي إلى نيويورك. /

أوستن ـــــ / كان الفرنسيون هم المرشحون الأقدر على مخاطبة

الضباط وإبلاغهم أن الحكومة الأميركية على استعداد للاعتراف بهم، والإيعاز لحلفائها الغربيين بالاعتراف، كذلك ستطلب من أصدقائها في الدول العربية والدول المجاورة المسارعة إلى خطوة مماثلة، وهي إذ تمنحهم تغطية من الشرعية وقبولاً دولياً، ستسهم كذلك وبوسائلها بتثبيت الانقلاب في الداخل، لكن وبشرط أن يعيد الضباط تقييمهم للأحلاف العسكرية الغربية وتعاظم النشاط الشيوعي في المنطقة والنزاع العربي الإسرائيلي، بحيث تتقارب وجهات نظرنا إن لم تتطابق؛ وبذلك نمنح الانقلاب هويته، وإذا لم يكن!! فلن ندعهم لمصيرهم، بل سنشن عليهم حملات إعلامية مركزة، ونثير حلفاءنا ضدهم. /

دولمونت ـــــ /

: توليت شخصياً نقل الأفكار الأميركية إلى السفير الفرنسي بدمشق، خشية أن تكون الخطوط مراقبة، كما اجتمعت بكرو في السفارة، أصررت عليه مغادرة سورية خلال يومين على أبعد تقدير، وعدني بإنجاز مشاغله والمغادرة دون تأخير.

: لا، عقَّب السفير باستهجان على رائحة التهديد السافرة للرسالة الأميركية بأنها تزكم الأنوف من شدة وقاحتها، الأميركان يريدون كل شيء دفعة واحدة مقابل الاعتراف. لم يستسغ مفاوضة الضباط في اليوم الأول للانقلاب؛ رفض، كيف ننصحهم بأحلاف نحن غير مشاركين فيها؟! إذا كانت الحكومة السورية الحالية مرنة أقل مما يجب، فإن الضباط متعنتون مسبقاً، وأكثر مما يجب، الأميركيون يجهلون هذا جهلاً فاضحاً، التأييد الذي سيلوحون به سوف يتجاهله الضباط ولن يهتموا به ولا بحجمه

مهما بلغ، ينبغي للأميركيين معرفة أن توجهات الضباط سواء كانت متضاربة أو متناقضة، سيعلنون في بيانهم الأول عن عدائهم للأحلاف، كلازمة لا محيد عنها، وإذا تمكنا لاحقاً من النجاح مع بعضهم ـ دون الإشارة، قطعاً، إلى النزاع العربي الإسرائيلي ـ فعلينا انتظار تصفيات ستطول، لن نعرف نتيجتها إلا بعد أسابيع أو أشهر، بينما الأجدى الاتصال بهم قبل البلاغ رقم واحد، وقبل التحرك بأيام، للتحريض على تكوين كتلة متجانسة ومتماسكة. لكن، من هم؟ الضباط ذو الرتب الصغيرة!! حسناً أية مجموعة منهم؟! /

6

نزلت من سيارة حسياني في دوّار ساحة الصالحية، نظرتُ إلى الساعة، كانت الأمسية قد بدأت منذ نحو نصف ساعة، انعطفت في دخلة سوقساروجة، واتخذت طريقي متعجلاً صوب المنتدى. عند الباب صافح صوتها سمعي.

.. إزاء تمثال فينوس، أطلق الفيكونت دي مرسيللوس، صرخة ولهٍ وشوق، مفعمة برهافة رومانسيي القرن الثامن عشرة «أوه، فينوس، فتنة حياتي وذكرياتي» كانت بعد أن اضطجعت أكثر من ألف سنة، نائمة في البراري، تحت التراب، وتتالي المواسم القاحلة، قد استيقظت على صوته. لكن غوبلان، لم يأملْ على الإطلاق بحظ كحظ مرسيللوس، كان عالم آثار حقيقياً،

سعاد في صدر الليوان، تجلس إلى طاولة على طرفيها إكليلا ورد مزنران بشريط أسود، تقرأ بالعربية ترجمة لكلمة كرو.

ومختصاً أيضاً بهندسة المدن وفن المعمار

الديني والحربي، مع إلمام

ذكي بالتاريخ والحضارات القديمة.

كرو لم يكن إلى جوارها، ولا بين الحضور.

عالِمٌ تقني، لا يصف إلّا ما يفهمه بعمق ودون تزيد، متطلبٌ

مهما تكن المشاق والعوائق، متبحرٌ ومخلصٌ في مراجعته لنظريات

سائدة، وعلى استعداد دائم لنقض معلوماته المكتسبة وصياغة

معارفه من جديد.

الباحة امتلأت بالحضور أعضاء المنتدى من الأساتذة والأدباء والمثقفين، ومدعويهم من موظفي الوزارات والإدارات، وسيدات المجتمع، وشبان وفتيات من هواة الأدب.

.. والكوارث من هزات أرضية وحرائق وأوبئة وحروب،

والتخريب العنيد والوئيد للطبيعة من رياح وشمس ورطوبة

وأملاح، عوامل لا ترحم تهاجم الحجر والخشب، تقرض

المعدن، وتحتُّ الصخر، عبر آلاف السنين.

ليل سابغ، أضواء صغيرة ومشعشعة توزعت على الجدران وبين الأشجار، أغصان أثقلتها حمولاتها من النارنج والكباد والليمون،

تتسامق رغم تهدلها عالياً إلى النوافذ ملونة البلور، خمائل ورد نفرت من الأحواض، وعرائش خضراء تسلقت الأحجار السوداء والميازيب إلى درابزين السطح. فيما، عبير تراب مبلل بالماء ورائحة الليمون، ونسيم مشبع بشذا العطور الفاغمة.

.. جَارَ عليها السطو، وأتى عليها الإهمال، وحولاها إلى أطلال من الخرائب، وصارت نهباً للبنائين الذين شذبوا الحجارة، وأزالوا نتوءاتها وزودوا القصور بالرخام؛ كذلك، فريسة للمتعصبين الذين شوهوا كتاباتها وحطموا تماثيلها أو أخفوها، لأنها كافرة تمس عقائدهم.

صوت سعاد يتدفق رقراقاً برنين صاف وأخاذ، متبدلاً منخفضاً ومرتفعاً، يطفو فوق صمت منعش وراعش في عشية صيف، توشيه أصوات حبات ماء تتناثر برتابة عابثة من نافورة البحرة. **كان صوتكِ الذي لامس قلبي في المسرح لاهياً ومفجوعاً، يضرب سمعي رصيناً وثرثاراً،**

.. وستبدو مشابهة لذاتها؛ الكتابات المنقوشة على الألواح الفخارية والأنصاب الرخامية، مع الأواني والأمتعة المأتمية والأثاث الجنائزي والنقود والأختام، أو حتى مشغولات الطين الصغيرة.

فيما انسدل شعركِ متموجاً، يستر قلقكِ، ولا يخفي نزقكِ، نزق المرأة الجميلة، الحارة والمخيبة. الوجوه مصغية، حتى إلى

هنيهات السكون، لم يكن المنظر هادئاً. كنتِ تؤججينه بعينيكِ اللائبتين من جهة إلى جهة،

ما هي إلا مواد تسهم في حل طلاسم عوالم انقرضت
وتوارت في غبار القرون المتراكمة في السهوب الضائعة،
ولن تقترن بالخلود إلا بفعل معول النقاب. كان يبحث
دونما هوادة عن أضواء جديدة تلقي أنواراً كاشفة على
تاريخ وعادات الشعوب الغابرة.

وشفتاكِ الممتلئتان، تنفرجان بانشداد متوتر، نظراتك تجنح صوب المدخل وتؤوب منكسرة، تفيض بالحس ومؤرقة، تستبقين علامات سهادكِ.

.. فالتقدم في علم الآثار عسيرٌ وبطيء، وسيبدو
متراخياً، لأن أشد ما يعنى النقّاب به، التبصر في
كشوفه، ولا يُستبعد رغم دقته وأمانته، التغاضي
عن حقائق غير مفهومة في حينها.

تتلاقى نظراتنا، فترخين على وجهكِ غشاءً كثيفاً من الغم؛ رأيتُكِ من خلاله مخدوعة، مخذولة. يا لجموح العاطفة وعماء القلب!!

والتورط بنتائج متعسفة وخاطئة، مقاوماً الحقيقة.
لكن، أليس ما يميز الحقيقة دائماً، أنها هي أيضاً،
تقاومنا؟!

أعقبت كلمة كرو، شهادة لأستاذ جامعي، سرد فيها بعضاً من ذكرياته الشخصية مع غوبلان ونتفاً من أحاديثه والمصاعب التي واجهته. نوّه بجهوده وأثنى عليها. انتهى الجزء المخصص لغوبلان في الأمسية، الجزء الثاني لم يكن مخصصاً لشيء.

تبعثرت صفوف الحاضرين إلى حلقات، انضمت سعاد إليهم وغابت بينهم، تصفَّحتُ الوجوه باحثاً عنها، لم ألمحها، أردت الاعتذار منها قبل أن أنسحب، شققتُ طريقي بصعوبة بين مجموعات الواقفين بلا جدوى، لم أعثر عليها. **وكأنما فقدتكِ!!** إلى الجدران وجذوع الأشجار والأحواض أرخت خمائل المجنونة عتمة فاتحة، تخايلتْ فيها، أرواب سوداء وأحمر شفاه وبريق أطواق الذهب وخواتم الماس. **أو أنني أضعتكِ.** فتاتان توزعان شراب الورد، سيدات متأنقات، فتيات في ميعة صباهن، أدباء، شعراء، **إذ رأيتكِ،** وأحاديث تدور.. ثم جاء جرهارد وأثبت أن الآنية الأتروسكية كانت في الحقيقة آنية إغريقية حُملت من اليونان. **وربما برزتِ من الظلال، أو أن غمامة الإرهاق انزاحت عني، فوقع بصري عليكِ، محاطة بشبان وصبايا.** ألم يُرَسِّخْ إطلاق حرية العمل للمرأة عبوديتها، بمضاعفة مسؤولياتها؟! **تفصل بيننا الأضواء والزحام والمخاوف.** كانت بكل معنى الكلمة، روحاً شعرية جديدة، ولدت بعد الحرب، لا تهتم بالطبيعة، ترفض الرومانتيكية وميوعتها، والرمزية وحشوها. **لوّحتُ لكِ بيدي، أشرتُ بأنني سأذهب.** الأحرى بنا، التكلم عن إلهامات متحررة من المنطق. **رفعتِ يدك، أشرتِ إليّ بأنك قادمة.** فيما كان الباحثون عن المعادن يحطمون رؤوس وقواعد الأعمدة الرخامية الضخمة ليصلوا إلى الكلاليب الحديدية التي تثبتها، والمثال كوليزه روما. **تتحركين ناحيتي ببطء، بتؤدة.** حماقة، في سبيل

المساواة تخسر النساء أنوثتهن. يستوقفونكِ، تنظرين صوبي، وتبتسمين. أثار الجسد الأنثوي الخيال الشعري وكان هادياً في تذوق الجمال. **تتبادلين معهم الإيماءات بفتور وإعياء، وتتخلصين منهم بلباقة.** كما انتُزِعت التلبيسات البرونزية لبانتيون هادريان لصنع المدافع في القرن السابع عشر. **على وجهكِ ابتسامة باهتة.** لم تكشف عن علاقات بين الأشياء، ولم تصف ما لا يمكن التعبير عنه، كان شِعرُ محطات قطار وأنفاق، مدن ومراكب، موانئ وعزلة. **عيناكِ تشردان، تُشَرّقان وتُغَرّبان، وتشحبان.** وستفقد المرأة اللغز الذي يحجبها، وتصبح مثل الرجل بلا سحر ولا ألغاز. **أجهدُ للوصول إليكِ.** بينما فرضت الهلوسة نفسها على أنها مادة الممارسة الشعرية. **لا أفلح.** لكن أحداً لم يستطع الذهاب أبعد مما ذهب رامبو. **ولا أريد.** هل تصدق، أن هناك شعوباً اختفت دون أن تترك وراءها أي أثر أركيولوجي ينم عن وجودها؟! **تلوحين بيدك، لا تذهب.** يُعيدون المغامرة نفسها في قصائد أقل طموحاً وأسراراً. **تنسّلين من بينهم.** وأعتبر فوضى أفكاره مقدسة. **تقتربين مني، أدنو منكِ.** كان يرى جوقة طبول تقودها الملائكة. **أمسكتِ بيدي، عاتبتني على تعجلي بالذهاب. قلتُ لكِ، لم أحظ اليوم بأي قسط من الراحة.** وصالوناً في قاع بحيرة. **أصررتِ على بقائي. قلتِ سأعرّفك على بعض الموجودين.** وعربات تصعد إلى السماء.

اعتذرتُ بأن حالتي لا تساعدني على المجاملة. هزَّت رأسها، وأنا أيضاً. انتحينا جانباً في الليوان، مشرفين من موضعنا على مدخل المنتدى.

«تأخر كثيراً».

كانت تقصد كرو. قلتُ ببرود:

«سيأتي بعد قليل».

«لم يقل إنه سيتغيب عن إلقاء كلمته».

قالتها مهمومة وعادت مشتتة الذهن والبصر.

«رأيته البارحة في مطعم البرج الفضي وأبلغته بأن الشرطة كفت البحث عنه».

أومأت مستحسنة، فتابعت قائلاً:

«لم يذكر لي شيئاً عن موعد افتتاح المنتدى».

«أعتقد أن الأمر لا يهمك».

لم أقل لها إنه تجنب الحديث عنها، ملمحاً إلى أنه لم يرها إلا مرة واحدة في الأيام الماضية، وكنت عالماً بتردده عليها يومياً، وربما تعمَّد ألا يأتي على ذكرها لئلا يغيظني. خالجني أمس أثناء حديثي معه، أننا ازددنا تقارباً، أشعرني بأنه لا يخفي شيئاً عني، بدا صادقاً ولم يكن متظاهراً في مودته، وكما عهدته لم يبخل عليَّ بالمعلومات التي وصلته مؤخراً من السفارة في بيروت، وكانت شبيهة بالأخبار التي علمتُ بها اليوم من رئيس الوزراء وحسياني، أعلمني بها كرو على نحو مبتسر: الأمور متأزمة جداً في دمشق، الجيش يتأهب للتحرك؛ ونصحوه بالقدوم إلى بيروت، لكنه سَوَّفهم. لم يُخفِ عني أخبارهم، عكس ما يُرجى منه. قال إنه إذا كان متعاطفاً معنا، فلأنهم في بيروت، باتوا لا يتورعون عن شيء، وعليه على الأقل تنبيهنا. كنت واثقاً أن معلوماته غير كاذبة، وينقلها لي ليس كي يرضيني وإنما ليرضي نفسه، إلّا إذا

كان موغلاً في المكر، وأنا ممعن في الغفلة. لم أخطئ رغبته في ألا ينقطع واحدنا عن الآخر، ساعياً إلى كسب ثقتي دون مغنم أو مساومات، كان من غير ادعاء يطمح إلى تسليمي طرواح بأقرب وقت، وبدا متطيراً من اتساع ما سيجري. قلت له لن يحدث شيء خطير. سألني بلهفة: هل أنت متأكد؟! طمأنته، ولم أكن متأكداً. تركزت تكهناته حول طرواح، ترى على أي وجه سيستغلونه؟!

أمضيت مع سعاد حوالي ساعة من الزمن، روَّحتُ عنها دون أن أروّح عن نفسي. عندما هممتُ بالذهاب، لا أدري ما الذي خطر لي حتى سألتها:

«ما الشعر الذي تكتبينه؟».

«شعر شخصي، أكتبه لنفسي، أطلق فيه العنان لروحي ومخاوفي، أتعرف على ذاتي، في بعض الأحيان، أنا نفسي لا أفهمه، هل لهذا معنى، غير أنني لا أفهم ذاتي؟!».

صفنتْ طويلاً، ثم همستْ بصوت بالكاد سمعته:

«الشعر، كما الحب، مغامرة في المبهم».

الحضور يتناقصون رويداً رويداً، بين الآونة والأخرى، تنصرف عني، تودعهم وتعود بسرعة، وربما نسيتْ ما كانت تتحدث عنه، تصمت وتتأملني، كأنها لا تراني، أو تتكتم ما تعاني منه.

«أأنتِ نادمة؟».

«لا، هذا ما تمنيته، وربما حصلت عليه، لا مفر من الهواجس، لا

مهرب من الشكوك، أنا مذعورة . لماذا يهبط عليَّ كل هذا الحب بعد حرمان طويل؟! لعلي لم أعرف الحب».

«سعاد، لقد عشقتِ ولاحقكِ الرجال، وتزوجتِ، ظفرت بما لم يظفر به غيرك، لم يحظ من بين رفيقاتك، سواكِ بقصة تستحق أن يطلق عليها قصة حب».

«لا تبالغ، كانت على شاكلة القصص الغرامية الخفيفة التي كنا نتناقلها ونقرأها خفية في مدرسة الراهبات، رسائل ملتهبة وقبلات في الهواء، دموع على الخدين ولقاءات خاطفة تحت جنح الظلام».

حانتْ نظرة مني، آخر المدعوين يغادرون، لم يبق أحد غيرنا.

«ألم تفرّطي بزواجك؟!».

«صدقني، كان محنة، لم أتخلص من آثاره إلا بمعجزة.» أطرقت برأسها «أنقذتني صورة».

«صورة!!».

«سأطلعك على سر من أسراري لا أحد يعرفه».

خلتُ، ربما بسبب السكون أو نظراتكِ الحالمة، أنكِ ستأخذينني إلى دخيلتك، وتطلعيني على سر سيخص اثنين، أنا وأنتِ، لم أخطئ. من عدانا يفهم أسرارنا الشامية؟!

في يوم عيد ميلادها العاشر، تعرّفت على أمها في صورة فوتوغرافية كبيرة، مؤطرة ببرواز من خشب الآبنوس، أما التي كانت تظنها

أمها، فلم تكن سوى مربية وفرت لها الحليب والحنان. عُلقت الصورة ـ هدية عيد ميلادها ـ في غرفة نومها، على الحائط الذي تغلق عليه عينيها قبل أن تنام. كانت قد التقت بصاحبة الصورة قبل سنوات في حلم تكرر مراراً، على فترات انتظمت؛ كانتا دائماً على ميعاد لا تخلفه إحداهما: تراها إلى طرف البحرة الرخامية، واقفة تترقرق كالماء، تمد يديها نحوها، أو تسيل أصابعها صوبها، تمسها، تتلامسان، ملمسها كالماء، ولها رائحة الماء. أطلقت عليها لقب المرأة الجميلة المجهولة، لم تر أجمل منها، ولأنها لم تفصح عن اسمها، كانت المجهولة، إلا إذا كان الماء اسماً لامرأة. اعتقدتْ أن النساء الجميلات جداً؛ عادة، مجهولات ومن صنع الأحلام.

مساء يوم عيد ميلادها، تخلقَّت المرأة الجميلة في صورة، حملت اسماً ولقباً حبيباً، بدت حقيقية، وكما في الحلم انفرجت شفتاها عن ابتسامة تذيب الصخر، فيما تحلل الظلام إلى فراشات ملونة. لن تبدل أمها أثواباً وأرواباً، ستكتفي بثوب بنفسجي اللون، مخرم الكمّين يكشف عن جيد ناصع البياض، يبرز تقاطيع جسد منمنم ودقيق. جسد لم يقاوم أنفلونزا مرت على حارتهم مرور الكرام؛ أفلتت الجميع، الكبار والصغار والنساء والرجال والعجائز، عداها، كانت رقة جسدها مناعتها الوحيدة، ماتت من فرط المناعة.

سهرتْ معها حتى الصباح، وعاهدتها على أن تكونها تماماً، ستشبه أمها في كل شيء، خلا بياضها، ستشبهها في طباعها، دون أن تتنزل عن تهورها وعنادها. ومنذئذ، ستحلم بموت شفّاف كالماء وغامض، ستصفه لرفيقاتها بلا غموض، كأنها تتلمسه أو يتلمسها، نسمة عليلة تمس جسداً يتفصد عرقاً وحمّى.

سترافقها إلى المدرسة سنة بعد سنة، وتلازمها في نوبات غرامها يوماً بعد يوم، وتفارقها إثر زواجها، لم تتسع الحياة الخانقة لمرض الحنين. عندما عزمت على الانفصال، وهددت بالانتحار أو الطلاق، مالت إلى الانتحار، الأقل صخباً والأقوى درامية، لكنها آثرت طلاقاً أقسى من الموت وأرحم من العذاب المقسط. وسوف تحبس نفسها في غرفتها، تتجرع مرارة تعاسة قادمة، وشقاء حياة كانت تربض خلف الباب مدلهمة وموحشة.

وهي، على وشك أو في سبيلها، إلى عنوسة مبكرة وحكيمة، استطابت ذرف الدموع من مآق سخية، واستمرأت جروحاً أخذت تنكأها وتتلذذ، أنعشتها خيباتها، وطالعٌ وجدته مشؤوماً مذ رأت النور، وأوجاع لا تطاق تضربها ليلاً وتفتقدها نهاراً. كانت جرثومة الكآبة العصية قد استوطنت جسدها متنكرة تحت هذا الضرب من الآلام الغامضة والرهيبة، والشغف الأعمى بالعذاب الموهوم والشره المضني للشقاء المعسول.

«اخرجي إلى الحياة.» قالت الصورة.

رجتها أمها بدموع محروقة، وابتسامة رقراقة، ابتسامتها التي تذيب الصخر. الابتسامة ستؤتي مفعولها، لم تكن الكآبة أكثر صلابة من الصخر. ونجت من الزواج والطلاق والموت والأسقام السقيمة.

خرجت ولن تنطلق.

«الحياة في دمشق تمرضني، طالما تقت إلى الحب، حب مختلف، ورجل مختلف، وأن أعشق بلغة أخرى».

قريباً ستنطلق.

إلى أي مدى كنتِ تعتقدين أن حبك سيكون مختلفاً؟!

كانت على مقربة مني، حولنا كراسٍ فارغة، ووخزات ماء، أضواء كابية، ووسوسة أوراق يابسة. **كنتُ ساخطاً عليكِ، وكان يجب أن تكوني ساخطة على نفسكِ.**

«ما الذي عاقه؟!».

«لن يأتي» قلتُ بسأم.

«كرو دقيق في مواعيده».

«هذه فكرتنا عنهم».

«ترى، ما الطارئ؟!».

«إنهم دقيقون حتى عندما يخلفون مواعيدهم».

تمشيتُ نحو الباب.

«هل ستبقين في انتظاره؟!».

«قليلاً».

قلت لها، إنني سأمرّ على الفندق وأسأل عنه.

في فندق سميراميس، استفسرت عنه من موظف الاستعلامات. كان كرو قد ترك رسالة اعتذار قصيرة؛ اضطر للتغيب بسبب لقائه بطرواح وسيتصل بنا في أقرب وقت.

اتصلتُ بسعاد وأعلمتها برسالة كرو.

7

أوستن ـــ / أبرقت إليّ سفارتنا في تل أبيب عن طريق قبرص: القس بيردي ليس في إسرائيل، نعتقد أنه في المنطقة العربية من القدس.

قَلبَ خبر وجوده في القدس العربية تقديراتي. أبرقتُ لسفارتنا في الأردن، أجابوا: اتصل بالإرسالية الإنجيلية في القدس. /

ساندرز ـــ / عقب قداس الأحد، بعد أسبوع طويل أعدّ فيه بيردي سجاله ضد الخوري الدمشقي، كان بانتظار اللحظة الموعودة: خروجهما من الكنيسة، تلكؤه لأن الخوري تلكأ، توقفه لأن الخوري توقف، ثم وكأنما الخوري كان ينتظر سماعه، فأسمعه وبمنتهى الخشونة والسخرية ما احتبسه وأرهق ذهنه أياماً وليالي «هدى القلب!! ألم تقل هذا؟!» رشقه الخوري بنظرة برقت

من طرف عينه، حادة كبريق خاطف، أضاءت شعر لحيته.

لم يتوان بيردي عن توجيه الضربة التالية، التي أحسن تحضيرها «أتجوز عبادة الصور؟! أليس للرب نسجد وإياه وحده نعبد؟! هدى القلب، أيها الرسامون المتلاعبون بالقلوب، أليس هذا الكفر بعينه؟! تعبثون بالسذج، تدعونهم يُصَلِّبون ويصلّون أمام أيقوناتكم. كيف تحللون ما حرمه الله؟!» واثقاً أنه أصاب الخوري في صميم فنه الوثني وإيمانه الفريسي، لكن الخوري قال وببراءة مزعومة «المسيح، طبع بيديه ملامح وجهه على المنديل في طريق الجلجلة. الأيقونة وصية من وصايا يسوع، قريباً يحل عيد المنديل المقدس، سنحضره معاً». كانت الدعوة القريبة والمفروغ منها، تبجحاً ليس إلاّ، ملفقة بادعاء الوصية الحادية عشرة، وموثقة بعيد هرطوقي يرافقه احتفال تهريجي. دمدم «عيد شرقي دخيل». ابتسم الخوري ابتسامة هازئة تلامحت تحت شاربيه. «لا تنس أن المسيح من مواطنينا». كان التأكيد البارد، طائشاً مناكداً ومؤلماً، الخوري العربي يرمي المسيح بأنه مواطن بشري ودنيوي، يرزح تحت وطأة رعوية عربية تطولها شبهات إسلامية قوية، دونما إشارة لألوهيته المضادة لأية تابعية أو جنسية. إنما، هو منذ الأزل، وقبل كل الدهور، يسوع ابن الله الوحيد؛ وطنه، إن شئنا نسبته إلى وطن: الكون.

ولقد طاف في رأسه تساؤل شارلوت المنفطر بالحزن: لِمَ جعل الله مسقط رأس ابنه في أراضيهم؟! حينها، أجاب: إنها أراضي الله. وكان منقوصاً، الآن يستكمله: والله غريب فيها.

«اتبعني.» قال الخوري وغذّ الخطى في الأزقة الضيقة. إلى أين؟! تساءل بيردي في سره، ولحقه عن بعد، لهث وراءه كثيراً، ثم

ضاع عنه، حينما أيقن أنه ضيَّعه تماماً، وجده ينتظره أمام باب بيت، أمسك بيده ودخلاه، عبرا الدهليز الطويل إلى قاعة واسعة، على أطرافها تماثيل حجرية نصفية ومنحوتات من خشب الزيتون. كانت القاعة مشغل أيقونات، أو مشغل المحاكاة الكافرة!! غابة من الأيقونات، الصور على الجدران والحوامل، جافة وطرية:

العذراء تحتضن الإله يسوع، طفلاً، والملائكة تحف بهما. المسيح يحمل الإنجيل، أمه عن يمينه، يوحنا المعمدان عن يساره، باسطين أيديهما نحوه بحركة شفاعة وتبرك. المسيح في العالي بين الغيوم يكلأ برعايته القديس جاورجيوس وهو يقتل التنين بالحربة. المسيح ضابط الكل، عابس، عاقد حاجبيه. المسيح على العرش، يلبس أردية الملوك، ثياب مزركشة، مقصبة وملونة. المسيح على رأسه تاج مرصع بالأحجار الكريمة، وخلفه هالات من عقيق. المسيح مطروشاً بالجص والبيض والغراء والزيت. المسيح، من ورائه ورق الذهب، منفوشاً ومنقوشاً ومزخرفاً..!! يا رب اغفر.

انتصب الخوري باعتداد، مزهواً بأنه رجل الله البارع برسم ابنه، متنوعاً وبعدة هيئات. عجباً!! ما أدراه بملامحه المقدسة؟!

حتى لو كانت القسمات حقيقية فهي تختلف من أيقونة إلى أيقونة!! من أين جاء له بهذا الشعر الكستنائي الطويل المسترسل على كتفيه، الناعم والحريري كشعر البنات، أو بهذه اللحية المدورة بالفرجار، أو تلك الحواجب الرفيعة المخططة، والأهداب الطويلة المسبلة؟!

وعجباً أيضاً!! انبرى الخوري بكل عجرفة «الأيقونة ليست مقدسة

في ذاتها، الخشوع الذي تبثه نابع من قداسة المُصَوِّرِ فيها، الذين يسجدون لها لا يعبدونها، إنها سبيلهم إلى التأمل الورع، يتبركون بها ملتمسين منها قوة روحية. الأيقونة بؤرة تركيز، تستنهض الإيمان والنعمة في دخيلتهم».

لم يهتم بيردي بالمحاضرة المقتضبة والمغشوشة، ظاهرها تبريرات إيمانية، وباطنها تجديفات إلحادية، اهتم بالخوري المزيف الذي ما برح منظره يؤذي عينيه، الأحرى به، وبلا إبطاء، أن يخلع عنه مسوح القساوسة، ويرتدي شيئاً ما مغايراً، مطروشاً بالألوان، وفرشاة في يده، كدليل على انتقاله كلية إلى الفريق المعادي.

«أأنت خوري أم فنان؟!» واستدرك مصححاً سؤاله «أعني هل أنت مسيحي؟».

«أنا مسيحي فنان.» قالها بكبرياء فنية دونما ذرة من تواضع مسيحي، بلهجة تفوح منها نتانة جيفة قذرة.

ردد بيردي في سره، فنان ملعون وخوري مارق. وكاد أن يجهر بها مرعداً بملء فمه، لولا أنها علقت في سقف حلقه: من يظن نفسه حتى يكفّره؟! وشكر الرب لأنه لم يتلفظ بها.

بيد أن الله، أو كأن الله، لن يدع الخوري الفنان يغلو في غطرسته، بلا عقاب فوري. مادت الأرض به وارتمى متلوياً على كرسي القش أو تهالك فوقه، وكأن هناك حملاً ثقيلاً من الخطايا ينوء به، أو أصابه عارض وانطوى موجوعاً. رفع الخوري إليه وجهاً متقلص الوجنتين وعينين مثقلتين بالإعياء والحيرة. ترى أيّ حِمْلٍ منها؛ الذنوب أم الآثام أم الآلام، تلك التي أجهدته؟! يرتجف بأكمله، ويتضعضع بأجمعه.

«عندما أرسم فأنا أصلي، أرسم بوجيب قلبي وتمتمات شفتيَّ، طالما سعيت إلى خَطٍّ ما يتردد في روحي، رسم ما لا يدرك بالعقل، تصوير ما لا يرى بالعين. أسعى إلى نقله بريشتي وألواني وأشكالي ووضعه على القماش، أظهره بقوة وجلاء من غير أن يتبدى أو يُرى. المؤمن لن يبحث عنه، سيقرأه بروحه وقلبه. البارحة صباحاً، خذلني إيماني، فخانتني ريشتي وتنكرت لي روحي. مساءً، بكيت بدموع من دم وقهر، ورسمت مرتعش اليدين والقلب ساعات طويلة. لا أدري، بل أدري، كانت المرة الأولى التي أحسست فيها بأن ريشتي تمتح الضوء من إيماني، والله يمنّ عليَّ بأشكالي، رسمت برهبة وجزع، وتمنيت ألا أفرغ منها. انظر، أهذه خطوطي أم خطوطه؟ ألواني أم ألوانه؟! أنا خائف. أيها القس بيردي، أصغ لي، أنت الذي لم تفتنك الصور، تأمل الأيقونة التي أمامك على الحامل، لا تقل لي ما الذي تراه فيها، سأقرأه على وجهك وأعرف».

حوّل بيردي بصره نحو الحامل، لم يتميز الأيقونة تماماً، دنا منها، وتلبث إزاءها:

على الخشبة، يسوع في النزع، رأسه يميل صوب جبالٍ قِمَمُها معتمة، وسفوحها موانئ مظلمة، على أديم دياجير الظلال يخطر شراع أبيض. يسوع مفتوح العينين على وميض ينبعث من شرارة خاطفة، لا تني تندلع، لا تني تنطفئ، مبتهلاً إلى ضوء بعيد آت من الشرق وعلى مهل، تتخطفه رياح الغرب. عند قدميه، أمه مريم مروعة ويوحنا الحبيب حزين . يسوع عاكف على الموت (أنت جميل، أجمل من كل بني البشر) شعره يموج ويتموج، لحيته ناعمة وخفيفة، إكليل الشوك يُطَرِّز جبينه العريض؛ دمه زهر أحمر

(النعمة تفيض على شفتيك) يداه تلمعان بالشمع أو الزيت، عارياً إلا من مزقة رداء على وسطه، جسد ناحل، نسيج من لحم وردي شفاف، وخيوط ساذجة مرتجّة ومرتجفة، وهو في أبهة الموت، وبهرة الصحو، يصبح بشرياً، دانياً ودنيوياً، خائفاً من التلف ومتشبثاً بالحياة والألوان، شقياً بآلامه، مضرجاً بآلامه، والشمع يسيخ ويشرشر!! (يا سيدي، نجني) يمد يسوع يده ويمسكه (يا قليل الإيمان، لم أرتبت؟!) احتضار أروع من شهقة الحياة (الحقيقة هي جسد المسيح) جسد غير قابل للفساد، مبشر بالخلود، مسمر هكذا، ومبارك بالقضاء، يتماوت بلا موت، متحد بالحياة، ومتوحد بالله، الكل يأتي منه، ويتحلق من حوله، يخط مداراتهم، يخطط مقاديرهم، ينطلقون منه، ويرتدّون إليه، شهداء وأبرار، خطاة وخونة (وكما أنك فيَّ، يا أبتِ، وأنا منك، فليكونوا هم أيضاً فينا، ليؤمن العالم بأنك أرسلتني) السماء والسحاب والأشجار والهواء تترنم بمجد الخالق.

أنا المُقَمّشُ بالشك والسوء، وأنت أيها المسربل بالحق والطهر، نورني بنورك.

أهو جنون الطلاء أم روحه المريضة وأنفاسه الملتهبة؟! توارى بوجهه عن الخوري، وقبل أن يعترف له بأفكاره الموسوسة، فرّ هارباً منه بعد أن زعزع صوابه بأيقونة رغم جمالها، لم تجذبه أشكالها وألوانها، ولم تعتوره إزاءها مشاعر زائلة أو أحاسيس عابرة، بل هيمنت عليه بهواجس أرسلت به إلى دخيلته وعميقاً، وبغتة إلى الله، وجعلته يتذوق لفحة النور والخلود.. أم زيف النور والخلود؟! وبمجرد لحظة سرمدية، أو أقل!! تُرى أخير أم شر ما يحيق به؟! لم يؤخذ بمدى تأثير الأيقونة إلا عندما التجأ ناشداً

السكينة والأمان في كنيسته الإنجيلية:

وكأنما ريشةٌ خَطَّتها بالأسود الغامق، ورسمت المصلين بالأسود الفاتح، متناثرين متباعدين، رؤوسهم مطأطئة وأكتافهم متهدلة، مشنِّفين آذانهم إلى قس يقرأ فصولاً من العهد القديم، يتسمعون بهلع إلى عذابات الجحيم، عيونهم ترمش وشفاههم ترتعش، لا يلتفتون يمنة ولا يسرة، يُخفون مللهم ولا يُخفون جزعهم وفزعهم، يختلسون أنفاسهم اختلاساً. يطلب القس من الله الرحمة والبركة لجميع الأمم، فيتنفسون الصعداء.

ظلام في القلوب المغلقة على العذاب والضجر، الفجور وهباب النار. ربِّ، أنجدني بنعمتك الإلهية.

أنا أيقونة اللايقين. /

أوستن ـــــ / اتصلتُ بالإرسالية الإنجيلية في القدس، وتلقيت منها رداً سريعاً، مختصراً وجافاً: لا علاقة لنا بالمبشر القس كارل بيردي.

أثار الرد استغرابي وشكوكي، كيف يعمل بيردي، تحت غطاء التبشير، من غير صلة مع الإرسالية في بيروت أو القدس؟! هل انكشف أمره للعرب؟!

لم أحاول تكهن المزيد قبل المزيد من المعلومات. /

ساندرز ـــــ / واصلَ بيردي فراره إلى بيروت، دبَّج رسالة إلى شارلوت، ذيَّلها: لم أعد أصلح للهداية، بلغ بي الشك أنني

هجرت كنيستي، أغوتني أيقونة فاقعة الأصباغ ما زلت تحت تأثيرها.

لم يفكر بطلب النصيحة أو المشورة من إنجيليي بيروت (ليسوا سوى ليبراليين متدينين وأنصاف علمانيين) رغم أنه في تلك الأيام المضطربة، على الكورنيش، والأمواج تتكسر برفق على الرصيف، والضباب الخفيف يتلاشى في الزبد، راوده الحنين إلى بوسطن، لم يضعف، كان العهد قد بعُدَ بها، والوعد قد بَعُدَ به، لفظها، كما يجدر به تماماً، من غير حسرة.

وسوف يُفاجئ شارلوت بالشخص الذي سيتذكره في غمرة يأسه: الشخص الذي أستطيع باطمئنان طرقَ بابه، والجدير بطلب المعونة والإرشاد منه، لا أظنكِ نسيته، القس بيرج!! تذكرتْ شارلوت القس العجوز الذي جلس إلى جوار إرنست على الحافة ذاتها، سقط إرنست الشاب، ونجا بيرج بشيخوخته وهزاله. هل تصدقين، ما زال على قيد الحياة؟! ما زال على الحافة منذ ذلك الحين!! واستعادت شارلوت صرخة بيردي قبل حوالي عشرين سنة: بعد هذا الزمن، بيرج حياً!! وثانية كان تعجبه عجيباً، لم يكن من الممكن تفسير بقاء بيرج حياً إلا على أنه معجزة، عمره تجاوز المائة وعشر سنين!!

بيد أن بيرج كان قد التحق بقافلة حجاج اتخذت طريقها قبل أقل من أسبوعين إلى الأراضي المقدسة، أي في الوقت الذي غادر فيه القدس، كان بيرج قد وصل إليها، هذا إن وصل إليها حياً يرزق، إذ لم يبق من بيرج الذي يعيش على الكتب المقدسة والخبز والماء، سوى هيكل هش العظام، وعينين كليلتين، ويدين تتلمسان الهواء.

إما أنه يعاكس الأقدار، أو أن الأقدار تمتحنه!! سيان، وانطلقا معاً هو والمنيّة، يتعقبان بيرج، دعا الله طوال رحلته ألّا يسبقه ملاك الموت بخطوة، من مدينة إلى مرفأ، من مرفأ إلى قرية، إلى أطلال معبد، ومدفن قديس، نهر يقوده إلى بئر، وساقية إلى بركة، وكنائس وأديرة، وقلاع ومغائر؛ متأثراً آثار القس الذي لم يترك وراءه سوى همسات وانية لخيال يتقصف، ومع كل خطوة يلفظ رمقاً ضئيلاً من حياة تتخافت، وتتضاءل إلى خيطان عنكبوت. قبل أن يلفظ الخيط الأخير، عثر عليه في سيناء، المحطة النهائية، دير القديسة كاتارينا.

عصراً، ظهرت الأسوار العالية للدير وحدائقه الخضراء، دخله من بابه المنخفض، رحب به أمين الدير، واستقبله الرهبان اليونانيون بالضيافة المعتادة، حساء أرز وبلح مجفف. وقادوه عبر أدراج حجرية متآكلة وسلالم خشبية مخلّعة إلى غرفة عالية من الغرف المخصصة للحجاج والمسافرين. مساءً، قدموا له الطعام المعتاد، شيء ما خال من اللحم. كان متعباً، قبل أن ينام ويحلم، ألقى نظرة على الليل، كان قريباً جداً، ونجومه قريبة مغشاة بسحب سوداء منذرة. صباحاً، في طريقه إلى الصلاة أطل على مسجد المسلمين الصغير. مسجد في دير!! في كنيسة التجلي، صلى، لم يسجد أو يتضرع للأيقونات الأربع المؤطرة بالخشب المحزز، السيد المسيح، الأم العذراء، القديسة كاتارينا، القديس يوحنا المعمدان. وفي الأرجاء المتخمة بالهبات الثمينة، سيلفحه بريق الثريات الخمسين الذهبية والفضية المتدلية من السقف الخشبي المزركش بنجوم تلمع على خلفية خضراء.

وهَبَّتْ نسائم التضحية؛ إلى يسار المذبح صناديق مزينة بالفضة،

تحتوي على بقايا القديسة كاتارينا، يدها اليسرى وجمجمتها متوجة بتاج ذهبي مرصَّع بالمجوهرات. هبَّتْ نسائم الشهادة.. والخرافة، نسائم بعثت بها سيرة القديسة الشهيدة من عوالم الإيمان والوهم؛ كان اسمها دوروتي، عاشقة للفلسفة (أي أنها وثنية) احتقرت أباطيل العالم وتحولت إلى المسيحية (وكأنما يكفي أن تتعمد لتصبح مسيحية) حشدَ لها الإمبراطور مكسيموس أكثر من خمسين فيلسوفاً ليبينوا لها تهافت إيمانها، لكن روح الله أنطقتها بالحق (الأغلب بالعقل، أي بالفلسفة) فأخرست الفلاسفة، انتصاراً لمجد إنجيل الرب، ونجت بأعجوبة (لا بد من أعجوبة) من عذاب العجلة. ومع هذا قضت شهيدة (لتصير قديسة) قطعوا رأسها ودفنوها في الإسكندرية. بعد خمسة قرون، رأى راهبٌ الملائكة ينقلون جسدها إلى إحدى قمم سيناء، نادى رفاقه الرهبان، صعدوا إلى القمة ووجدوا جسدها دافئاً، نقلوها إلى الدير، وحملت قمة الجبل والدير والكنيسة اسمها.

تاه صاعداً نازلاً على الأدراج، بين ممرات الدير المتشابكة، أرهقته خواطره التشكيكية، استرسل معها ناقماً على نفسه. ما الشيء الجدير بهذا العناء الذي تكبده؟! خسائره أكبر وأصعب من أن تحصى بالأيام أو بالأشهر، بل بالسنوات، وربما عمر بأكمله، ضل طريقه، الأصوات ضللته. استند بظهره إلى جدار البئر، مرسلاً نظرة وداع مقهورة على حياة كانت برمتها ضياعاً، من حوله أشجار المشمش، إلى الجوار خضار وأزهار وكرمة عنب؛ في العالي، الرهبان بقفاطينهم البدوية المشغولة من وبر الجمال وشعر الماعز، شعرهم الخشن يغطي قذالهم، انتحى كل ثلاثة أو أربعة منهم ركناً في المماشي المسقوفة من الدير.

هنا، في الساحة الداخلية من الدير، تنتهي حياة لتبدأ أخرى، هذا ما خطر له. لكن لم تكن حياته تلك التي ستنتهي، بل حياة الشيخ الهرم، الذي لم يتميزه للوهلة الأولى، الشيخ الفاني النازل على الدرج الحجري، معتمداً بيده على راهب، وبالأخرى على عكاز، يظلع بمشيته، يمر من أمامه، كأنما كي يتبينه بوضوح.. القس بيرج، وقد أوغل في العجز والعمى، قليل الشبه بشيخ بيروت، ابن الثمانين، وعديم الشبه بأسطورته. ناداه بصوت واجف ومبحوح، فلم يلتفت، الراهب يقوده نحو بوابة الدير. ناداه ثانية بصوت واجف وأجش، توقف الراهب، ومال بيرج برأسه إلى الراهب متسائلاً عن سبب توقفه. كان بيردي قد جاورهما، ألم تسمعني؟! مال بيرج بأذنه نحو بيردي: سمعتك مرتين، أنا في عجلة من أمري. قال بيردي: أنا أيضاً في عجلة، ألاحقك منذ أكثر من شهر، لا بد أن أسألك شيئاً. رد بيرج: لا تسألني، لدي مشوار لا أستطيع تأجيله. قال بيردي: دعني أرافقك. مدَّ بيرج يديه، تلمس صدر بيردي ووجهه، ثم أمسك بساعده: هل أعرفك؟ رد بيردي: أنا أعرفك. تأبط بيرج ذراع بيردي، رافقني. وارتد الراهب عائداً على أعقابه.

بدا له أن بيرج اغتنم فرصة وجوده في سيناء لزيارة كنيسة إيليا وبئر وصخرة النبي موسى، وخصوصاً جبل طور سيناء حيث تلقى موسى ألواح الشريعة. اعتقد أن أحدهم ينتظر بيرج خارج الدير كي يأخذه أولاً إلى عين موسى ليشرب قليلاً من الماء الزلال النابع من تحت الصخر الأصم. في الخارج، لم يكن أحدهم أو دليل أو عربة أو دابة في انتظاره، فقط جبال الغرانيت الرمادية الشاهقة والكتل الصخرية الضخمة وأودية مكسوة بالحصى، ودروب غير معبدة.

بيرج منطوٍ بجذعه، رأسه إلى الأمام، يقوده أو يجره إلى خلاء وقفار، مضيا فيها دونما كلمة. بيرج يضرب في الأرض كرجل عتيّ في الثلاثين من عمره، مشنفاً أذنيه للشمس ولفضاء لا يراه. بعد ساعة من الزمن، توقف وكأنما سمع صوت تلك الهنيهة التي مرت وأسدل فيها الأفق ستاراً متجهماً من السكون الرهيب، بوقع مباغت وقاطع، بات يفصلهما عن إيقاع أنفاسهما، لا تبدد صرامته أصوات احتكاك أقدامهما بالأحجار والحصى، وهما يمشيان ويتعثران فوقها بالإصرار نفسه. هناك، في أبعد نقطة من الأفق، وأبعد من مد النظر وامتداده، أو أبعد نقطة من السماء والأرض، لاحت سحابة صغيرة بحجم قبضة اليد.

بأصابع جدّ ناعمة، ضغط بيرج على معصم بيردي ضغطة خفيفة، يستحثه على الكلام، آن الأوان أو قارب الأوان على النضوب، ينبهه إلى أن ملاك الموت يمشي معهما، حذاءهما، الكتف إلى الكتف، يترقب علامة تظهر في السماء. هرع بيردي قائلاً: أنا أشك بكنيستي. قبل أن يشرد عنه بيرج إلى الذي بات يمشي، لصقهما، وتكاد أنفاسه تطبق على أنفاسهما. تساءل بيرج، ما الذي رأيته بقلبك؟ براريَ تترامى شاسعة وخاوية، يجففها رعب قاس. همس بيردي، أنا مرعوب. براري تنغل فيها الرتابة والكرب، تعلوها السحابة الصغيرة الآخذة بالاتساع. قال بيرج: لا ترتعب. تتضخم وتتلوى أطرافها، تغطي الأفق، من خلالها تندلع ومضات برق. انكمش بيردي: رأيت كنيستي جحراً كئيباً مظلماً، ويسوع مضرجاً بدماء من ألوان، عينيه مغرورقتين بشمع سائل. أقدامهما تُغرّز في رمال عميقة، والعتمة تتسلل في عز النهار. قال بيرج: أهذا ما رأيته؟! رمال تتذرى من قمم الكثبان، الريح تهب باردة، ترشق ظلاماً ضارباً إلى الصفرة، والضوء شحيح. قال بيردي: لعل

الشيطان هيأ لي ما رأيته. تعصف الريح، تصبح رملية، وتتواصل عنيفة. قال بيرج: دع الشيطان في حاله. ترتفع الكثبان كأمواج عالية، رذاذ الرمل يلسعه. سارع بيردي: هل كان الله؟! خبط لا يتوقف، السماء تسوَدّ، ووابل مطر.

حبال المطر تغسلهما، بيرج ورقة في مهب الريح، أسنانه تصطك، شفتاه تزرقّان، على وشك أن يتفكك من تلقائه ويتقطر إلى حبات مطر. ينحني بيرج بجذعه، مديراً ظهره للعاصفة، يهتف بصوت ضعيف، بملء فمه، يسمعه بيردي بوضوح، الريح تحمل كلماته ولهاثه وحشرجاته: أفنيتُ أكثر من حياة رجلين، وأنا أجري وراء الله، وجدته مراراً وفقدته مراراً، لم أفرح عندما وجدته، ولم أحزن عندما فقدته، كانت غبطتي في البحث عنه أضعاف زهوي بالعثور عليه، وغالباً ما أضعته والتقيته في سبل مختلفة، اكتشفت أنني لم أشك لحظة في وجوده، بل كنت أشك في وجودي أنا، الله يجربنا، لا أحد ينجد الآخر بتجربته، لم يكن عذابي سوى في تبين مراده، أضناني وأشقاني، لم أفهم لِم كل هذه الأديان والمذاهب والفرق، حروبها وانشقاقاتها، قتال الصلبان وتقاتل الأهلّة. ما مراد الله؟!

الرمال تلفهما بمآزرها، وزوبعة هائلة تلفلفهما، يتلفلفان فيها مع الفراغ، تدور ويدور ويدوران، تنساح صفحة الأرض على صفحة السماء، الشمس سخام قاتم، الزوبعة تشد وتشتد، ترمي ببيردي أرضاً وجانباً، الزوبعة هالة فوق رأس بيرج، وعلى وشك الالتحاق بها. قبل أن يغيب بيرج عن البصر، وبيردي عن وعيه، تمتم: يا إلهي، بيرج قديساً!!

استيقظ بعد يومين على هدوء سابغ، فوق فراش دافئ، في غرفته بالدير، وراهب يعتني به. وسوف يقول له بأنهم عثروا عليه ومعه بيرج

ميتاً، على هذه الحالة: قاعدان أو متقوقعان، ظهركما إلى صخرة تحتميان خلفها، بيرج ممسكاً بياقتك بكلتا يديه وبقوة، مدنياً فمه منك، وكأنه يهمس في أذنك، فمه ممتلئ رملاً، وأذنك ممتلئة رملاً.

الرمل أسكتَهُ، والرمل أصمّكَ. ما الذي كان يقوله؟! وما الذي كنت تصغي إليه؟!

من الغرفة المطلة على باحة الدير، تتبع ساهماً الرهبان يمضون إلى صلواتهم، ويتناوبون أعمالهم اليومية في الدير، مجيلاً بصره بين الأسوار والحدائق ومدافن الرهبان. على هذا الوقع الداني والواني، السقيم والعقيم، تخلص من حمّى السحابة السوداء والغروب المحترق والشمس المترمدة، ليهوي في أتون شهقات الشك وزفرات الأسئلة، وعاصفة سقطت على أفق اختفى نهائياً، تُبرِقُ، وعلى قصفها أرعدتْ صيحة بيرج، تُلحُّ على رؤيا. ما هي؟! أيحظى بها؟! هل تسعفه سنوات قليلة أخرى بأن يكون أحد شهودها؟! ألم يُسِرّها له بيرج كي يتأهب للقائها؟!

أيقن بيردي أن ما سمعه من بيرج لم يكن وهماً، أو أضغاث عاصفة، أو هلوسات احتضار. ألم تأت به الروح القدس من بوسطن إلى بيروت، وتجرجره من مكان إلى مكان، بعد أن أربكته بالموت وأنهكته بالتجربة، وأرسلت به بعيداً، إلى هذه البقعة المنعزلة من العالم، إلى لحظات محسوبة بثوانيها، ليسمع سؤالاً كان زوبعة ومن فم الموت، اعتلج في داخله، ولم يدرِ كيف يعبر عنه، ليس سؤالاً شخصياً، بل سؤال يضطرم في التاريخ والدنيا والعالم أجمع؟!

ما الذي يريده الله؟!/

8

خلافاً لظني وظنه، التقيت ثانية مع حسياني، في وقت كان أقرب مما ينبغي، كأن هناك ما جدَّ ليلاً. دخل إلى مكتبي صباحاً، بعد أن حاول مقابلة رئيس الوزراء، ولم يتمكن بسبب انعقاد جلسة الوزارة الأسبوعية، أبلغني أن ساندرز وعده بأن شركته ستتحرك مع الشركات النفطية الأخرى، وتعمل على دفع الحكومة إلى النظر بطلبات السلاح السورية، أما من جهتنا فعلينا التمهيد لما سيحصل، بإثارة موضوع السلاح في اجتماعات مجلس الجامعة العربية، كي تتبنى الدول العربية المنتجة للنفط، بمؤازرة من الدول العربية الباقية مطالبة الحكومة الأميركية ببيع السلاح لسورية. وأبلغني بحرص ساندرز على التفاهم معنا دون شروط مسبقة، على أن يحلَّ رئيس الوزراء مشكلته مع الجيش أولاً. تركني حسياني على أساس عودته بعد أيام، ريثما تهدأ الأمور تماماً.

لم يُظهر رئيس الوزراء على عرض ساندرز أي رد فعل. بدا لي وكأنه يعيد ترتيب أولوياته، وأن النفط وحسياني يقبعان في مؤخرة حساباته.

«ربما غادرتُ إلى بيروت.» قال.

أما، متى؟! فلم يكن قد اتخذ قراره بعد.

«ذلك يعتمد على..» همهم، عاقداً حاجبيه «استمعْ لنشرات الأخبار».

كان لا بد من بعض التحضيرات أو المزيد من الترتيبات.

في نشرة أخبار الظهيرة، الخبر الرئيسي: انعقاد جلسة الوزارة برئاسة رئيس الوزراء، ثم أخبار دولية. لكن في موجز نشرة أخبار العصر، كان الخبر الأول: تلبية لدعوة رئيس الوزراء اللبناني، سيقوم رئيس الوزراء، غداً صباحاً، بزيارة مدتها يومان إلى الجمهورية اللبنانية، على رأس وفد رسمي.

أكد النبأ الأحداث الجسام القادمة على عجل، خلال اليومين القادمين!! وأن رئيس الوزراء اختار الانسحاب، ولن يقدم على عمل سوى تسمية أفراد الوفد الرسمي، وحزم حقائبه.

عزمت على الاتصال به، لمعرفة إذا كنت من عداد أفراد الوفد المرافق، حينما رن جرس الهاتف، ظننته هو، إذ به كرو، كان صوته ضعيفاً، وكأنه يتكلم من مكان بعيد، رجاني موافاته إلى الفندق خلال ساعة من الزمن، لا أكثر، الجلبة تطغى على صوته، لم يكن يتكلم من مكان بعيد، إنما كما يبدو من سوق.

استوضحته. هتف، الأمر عاجل وضروري. تلقفت من خلال الضجيج المنبعث من السماعة، نداءات باعة: هريسة، كازوز، شعيبيات. ونداءات سفر: حمص، حماه، حلب. وانقطع الاتصال. كان كرو يتكلم من كراج سفريات!!

دَلَّني موظف الاستعلامات على غرفة كرو، وتابع قائلاً:

«مسيو كرو ينتظرك، صعد منذ قليل».

كانت غرفته في الطابق الثاني، نقرت على الباب مرتين دون مجيب، أعدتُ الكرة ثالثة، لبثت قليلاً ثم أدرت أكرة الباب، طالعني مستلقياً على السرير بكامل ملابسه، ناديته مقترباً منه، كان مغمض العينين، مشعث الشعر، نابت الذقن، قميصه متسخ، مقطع الأزرار، وبنطاله ممزق عند الركبتين.

ناديته ثانية، لم يرد، لكنه غمغم فاتحاً عينيه، كانتا حمراوين ومنتفختين. تمتم، لم ألتقط ما قاله، ولم أعبأ، وكأن الفرنسي المهذب أفرط في الشرب، أو تعثر بشريط أسلاك شائكة. انحنيت عليه:

«هل تشاجرت مع أحد؟!».

اتكأ بساعده على الفراش، جلس بصعوبة، وجهه أصفر، خدوش على رقبته، فتح فمه، وارتجفت فكاه:

«لا».

كان كرو قد تعرض إلى محنة قاسية من جراء حسين طرواح!!

مساء البارحة، حوالي الساعة السادسة والنصف. ظهر طرواح، من غير موعد، في مطعم البرج الفضي، بدا مرهقاً. سأله كرو عن أحواله، كانت إجابات طرواح مختصرة ودالة على سوء وضعه، اضطر إلى تغيير مكان إقامته عدة مرات، وغيَّر أيضاً قناعاته مراراً بهؤلاء الذين استقبلوه بحفاوة وأكرموا وفادته، ثم قيّدوا تحركاته، أشعروه أنه شخص غير مرغوب فيه، وأهملوه. في اليومين السابقين لاحظ رجلاً يتعقبه، تمكن من الإفلات منه بالتخلي عن مأواه الأخير. حالياً، هو بلا مأوى ومهدد بالقبض عليه.

جرَّب كرو إقناعه باللجوء إلى الشرطة، طرواح لم يقبل، كيف يُسلم نفسه لهم وهو هارب منهم؟! فعرض عليه أن تتدبر سعاد أمره، احتج بأنه على خلاف معها، هي ناقمة عليه تظن أنه خدعها، وهو ناقم عليها لأنها كانت أسوأ من الآخرين، ألم تنبذه حينما كان بأمس الحاجة إليها؟! طلب طرواح من كرو إقراضه مبلغاً من المال لتسديد نفقات إقامته في فندق على مقربة من سوق الهال، فندق رخيص وغير معروف، سيختبئ فيه عدة أيام. أعطاه كرو ما يحمله من مال، وقال له بأنه سيعرفه على صديق مؤتمن (كان يقصدني) باستطاعته مساعدته. وافق طرواح، كان خائفاً ومحترساً، يتفحص الداخلين إلى المطعم، ويكشف بين الآونة والأخرى طرف الستارة يراقب الحركة في الشارع.

بارحا المطعم بعد هبوط الليل، تجنبا الشوارع الرئيسة والأماكن المكتظة بالمارة، تعمد كرو ألا يتركه قبل أن يوصله إلى الفندق الذي سيقيم فيه، ليتأكد من صدقه. عند جسر فكتوريا، قال لطرواح بأنه مضطر للتوقف قليلاً في فندق سميراميس للاعتذار عن موعد. انتظره طرواح على الرصيف المقابل. كرو أراد فعلاً

الاعتذار عن تأخره على موعده في المنتدى، لم يتصل بسعاد لئلا تلحف عليه بأسئلتها، ولا وقت لديه يشرح لها الموقف. ترك رسالة اعتذار في الفندق (توقع أن تسأل عنه سعاد أو أنا) رجع إلى طرواح، لم يجده، ظنه هرب، أو هو مختبئ في الدخلة الضيقة المؤدية إلى سينما روكسي، تبين وهو يتقدم في الدخلة المعتمة سيارة، سرعان ما فتحت أبوابها وخرج منها رجلان أمسكا به، جراه إليها ودفعاه إلى داخلها، تملص منهما دون جدوى، حشراه في المقعد الخلفي، إلى جوار طرواح معصوب العينين ومسدس ملتصق بصدغه. بربر كرو بالفرنسية، يوهمهم أنهم أخطأوا به، لم تنقذه فرنسيته، نهروه، عصبوا عينيه، وانطلقت السيارة بهم.

بعد ساعتين، أو أقل، من الهدير والمطبات والمنعطفات، أنزلوهما من السيارة، ودفعوا كلاً منهما إلى غرفة، يفصل بينهما حائط، سمعهم كرو من خلاله يستجوبون طرواح، لم تكن أصواتهم واضحة إلا عندما تعلو بالشتائم، تقطعها صرخات ألم. تراءى له، حينما لم يعد يسمع شيئاً، أن طرواح باح لهم بما يعرفه، فكفوا عنه. بعد قليل، دار لغط وعلا صراخ، كانوا قد عادوا إلى استجوابه. بعد ذلك، لم تعد فترات الصمت سوى استراحات صغيرة. عند الصباح، تركوا طرواح دون أن يحصلوا منه على ما يريدونه، وباشروا استجواب كرو الذي تفادى التكلم بالعربية (كان كرو يفهم العربية بشكل لا بأس به ويتكلمها بعسر شديد) وأجابهم بالفرنسية، تحمل التحقيق المضني، لم يكن يعرف شيئاً مهماً (كان الشخص الذي حقق معه يتكلم الفرنسية بشكل جيد) وأنكر النزر اليسر الذي يعرفه. أشبعوه ضرباً وإهانات، تظاهر بالإغماء، وشارف أكثر من مرة على الانهيار، ما جعله يصمد هو

أن طرواح ما زال يقاومهم على بعد أمتار منه، ويتعين عليه دعمه بنفيه وإنكاره وصمته، بالإضافة إلى خوفه على سعاد، لهذا حرص على ألا يزج باسمها. عندما أغمي عليه، فقدوا الأمل منه، وانصرفت جهودهم كلها إلى طرواح، ليصحو (لا يتذكر عدد المرات) على أصوات تعذيب وسباب استمرا طالا وطالا، وفجأة فاصلة سكون، غفا إثرها غفوة عميقة، صحا بعدها وسبح في السكون نفسه، سكون طويل أسلمه مرة أخرى إلى نوم طويل. حين أيقظره قالوا له بأنهم سيطلقون سراحه، هددوه بالقبض عليه إذا أعلم أحداً بما حصل، وأعطوه مهلة حتى منتصف الليلة لمغادرة سورية.

على الطرف الملاصق، بدا من السكون الشامل، أن طرواح استسلم لهم أو قضى نحبه تحت التعذيب. أركبوا كرو سيارة ورموا به في منطقة مهجورة، مشى حوالي نصف ساعة، وجد نفسه في مدخل درعا، أوقف باصاً متجهاً إلى دمشق، عند وصوله إلى الكراج، اتصل بي.

«هل أنت متأكد أنها درعا؟!».

«إنني أعرفها.»

لم أطمئن. كان يخرج حوائجه من الخزانة.

«ما الذي تفعله؟!».

«سأرحل الليلة».

«أرادوا إخافتك، على التأكيد لا ينوون القبض عليك، أفلتوك لأنك أجنبي، خشوا أن تطالب بك السفارة».

«لا يبدو عليهم أنهم يعبأون بسفارتي، لم يتركوني إلا بعد تأكدهم أنني لا أعرف شيئاً».

انتقى بنطالاً استبدل به بنطاله الممزق، ثم قميصاً. لاحظت وهو يخلع قميصه مقطع الأزرار، جروحاً على ظهره، تفرست فيها، خدوش سطحية. خطر لي خاطر كتمته، لاحظني. أمعن النظر إلى ظهره.

«ضربوني بعصا فيها مسمار.» قال وهو يستعرض ظهره أمام المرآة «أو ربما كانت خمشات أظافرهم، لم أعِ تماماً».

حدست أمراً غامضاً، فلم أرغب في سماع أي تفسير.

«طرواح هو الذي يهمهم، وليس أنت، سنوكل مسؤولية حمايتك إلى الشرطة».

«الشرطة لن تنفع، الذين قبضوا عليَّ من العسكر، رغم أنهم يرتدون الملابس المدنية. كان الشخص الذي استجوبني ضابطاً ذا رتبة عالية، تميزته من أسلوب إصداره للأوامر وانصياعهم له، تكلم الفرنسية بطلاقة، واتهمني بالتجسس».

«لا تخمن.» قلت بعصبية «أسألك البقاء.»

«ماذا لو وقع انقلاب؟!».

«بإمكانك الالتجاء إلى سفارتك».

تهالك جالساً على طرف السرير، كان متوتراً جداً، شمر بنطاله عن قدميه؛ علامات حبال مشدودة على الكاحلين، ضم كفيه إلى

بعضهما، ودفع بمعصميه إلى وجهي؛ آثار دماء وسحجات على رسغيه.

«انظر جيداً، ألا ترى؟! كنت مقيداً على هذه الحالة طوال يوم كامل. أسمعوني شتائم فاحشة، نكلوا بي، آذوني بإشاراتهم البذيئة، هددوا باغتصابي. لا أدري ما الذي فعلوه بي، ربما من شدة هلعي، تخيلت أنهم هددوا باغتصابي، أو أنهم اغتصبوني فعلاً. لا أريد أن أعرف، لا أريد». أخفى وجهه بين ذراعيه «لا، ربما لم أتخيله.» نشج، ثم رفع رأسه «لا أطيق البقاء لحظة أخرى».

وجمتُ، أحسست بغضب شديد، وخجل قاهر، ووصمة عار. كان إصراره على المغادرة أمراً لا رجعة عنه، كما كان ثنيه عن الرحيل أمراً ضد إرادتي وفوق طاقتي.

«هل ستبقى في بيروت؟».

«قد أسافر إلى باريس».

أودع حقائبه في قسم أمانات الفندق على أن يعود ويأخذها بعد ساعة من الزمن. على الرصيف، لم أودعه، قلت له بأنني سأذهب إلى بيروت غداً وسأحاول رؤيته. قال بأنه لا يعرف بالضبط أين سيقيم، ربما نزل في فندق النورماندي. فتذكرت غوبلان.

لم أحتمل البقاء طويلاً مسمراً إلى غضبي وخجلي، انطلقت بلا هدف، تمضني شكوك أثقلت كاهلي وضاق صدري بها. كنت في مهب الليل والظلام المطبق، نهباً لخواطر متناقضة، تتلاطم في ذهني، بحاجة إلى تبديد أو ترتيب، وعاجز عن كليهما، سواء

بشكل مقنع أو مقبول. كيف جاء طرواح لرؤية كرو مساء من غير موعد؟! كرو أصلاً لا يأتي إلى المطعم إلا ظهراً ليتناول غداءه. لماذا يترك كرو رسالة لي ولسعاد في الفندق، فيما كان سيعود بعد فترة قصيرة، مشوار الطريق إلى سوق الهال؟! وقصة اعتقاله وتهديده بالاغتصاب أو.. وتلميحه إلى موت طرواح ودرعا وكراج درعا!! دهمني إحساس قوي، لم أخطئ لمحاته الصاعقة، إحساس لم يعد غامضاً، كان جلياً: هناك قدر كبير من الكذب والتمثيل المتقن في الحادثة التي رواها، ثمة ما يريد إقناعي به، وجهد ألا يبدو مقصوداً، ولم يكن إلا مفتعلاً. تمنيت لو أتمكن من تأجيل سفره ولو يوما واحداً، وخشيت أيضاً أن تكون دوامة الظنون تسخر مني، أو أن تكون ظنوني حقيقية، كنت تواقاً إلى شخص أفضي إليه بما يساورني، يوافقني عليها أو يردني عنها، لا أن تبقى حبيسة أوهامي أو صدق تخميناتي. نظرت إلى ساعتي، كانت قد تجاوزت العاشرة ليلاً، لا بد أن كرو غادر سعاد منذ قليل.

فاجأتُ سعاد بقدومي في هذه الساعة من الليل، وفاجأتني بتأهبها للسفر. كانت منشغلة بترتيب حوائجها القليلة داخل حقيبة السفر الصغيرة؛ لا تلحق تغلق الحقيبة حتى تتذكر ملهوجة شيئاً ما نسيت إيداعه داخلها، أو تتكلم بالهاتف تؤجل مواعيدها إلى يوم قادم ومن غير تحديد. اختلستْ نظرة نحوي وقالت:

«دقائق وأفرغ لك».

بعد دقائق سينتهي، ربما، كل شيء، بيننا، ليتني لم أحضر.

«سأذهب، لا وقت لديكِ»

«لا تذهب، سأسافر غداً صباحاً».

كانت للمرة الثانية، تطوي بلوزة وتفردها ساهية، منهمكة بالتفكير بشيء آخر.

«لِمَ لم ترافقيه؟!».

«هو نفسه غير متأكد من لحاقي به».

«بل متأكد».

رمت البلوزة من يدها.

«أنا لم أعزم بعد».

«لكنك وعدته».

اتهمتكِ، أشعرتكِ بأنك خذلتني، ولقد فهمتِ. حدّقت فيّ طويلاً وبحنان. قلتِ بصوت بائس:

«**إنه ينتظرني**».

لم أصمد إزاءكِ، إحساسي بالاختناق كان تمزقاً بين حبي لكِ وخوفي عليكِ. كيف تقنعيني بأنكِ يجب ألا تخلفي موعدك معه، وتطلبين مني موافقتك على ما تفعلين؟!

«أين ينتظرك؟»

«في شاليه على شاطئ السان ميشيل».

«قال بأنه سينزل في فندق النورماندي!!».

«غيّر رأيه».

كنتِ في حالة يرثى لها، بحاجة إلى من يشد أزرك. وأنا بودي أن أحبطكِ.

«كم سيطول غيابكِ؟».

«سأذهب بسيارتي وأعود في اليوم نفسه».

«سعاد، لماذا تلاحقينه؟!».

«أريد التيقن من شيء».

«ألم يكن مقنعاً؟!».

«أموري تعنيني وحدي».

أسبلتِ جفنيكِ مغمومة، كان قد ترك لك تساؤلات تبادرت إلى ذهنكِ بعد ذهابه، أشبه بتلك التساؤلات التي تركها لي.

«أنا لم يقنعني، كذب علي».

«ألا ترى كم أنت متحامل عليه؟!».

لم أعبأ باتهامكِ ولا بتحاملي، كان لدي الكثير مما أريد قوله.

«سأستبعد ظنوني، سأذكر شيئاً أنا متأكد منه، تظاهر كرو بأنه كان يكلمني من كراج سفريات درعا، فيما كان يكلمني من كراج سفريات حلب حماه حمص، كي لا يجلب انتباهي إلى أنه كان راجعاً من موقع البعثة. أليس هذا تكذيباً لادعائه السخيف والباطل عن احتجازه في مكان قريب من درعا؟!».

«وفِّر مزاعمك».

«لقد استدرج طرواح إلى موقع البعثة بحجة تدبير مأوى له، وما دبره كان كميناً، أوقع به وسلمه لهم».

«لم يسلمه لأحد.» قاطعتني ثائرة «بالعكس، أعطى مختطفيه معلومات خاطئة ونجا بنفسه. هل اختلق قصة تعذيبه؟!».

«ليست العلامات التي على يديه ورسغيه وكذلك جروح ظهره، سوى خدوش أحدثها بأظافره. لقد رأيتها، أقصد تعمد أن يريني إياها».

«أنت مصمم على عدم تصديقه».

بدوتِ وحججك تتداعى، متنمرة وتائهة، تجهدين في استجماع أفكاركِ المشتتة، تحاولين نفي ظنونكِ، لا ظنوني، كان همي دفعكِ إلى الحيرة، إلى الحقيقة.

«أخفى عنكِ الكثير».

شحب وجهكِ، فلم يذهب تحاملي سدى. ألم تكوني غايتي؟ تمهلتُ ريثما تحسمين أمركِ. راودني أنك تخفين عني أسراراً ترددين في البوح بها.

«كرو لم يكذب. في المطعم، ائتمنه طرواح على أوراق غوبلان، فأخذها منه وأودعها في الفندق، إنها بحوزته».

«سيسلمها إلى سفارته في بيروت».

«أنت مخطئ».

«أو سيبيعها».

«سأعود به وبها».

«سيسافر إلى باريس، مهمته انتهت».

كان هجومي مستميتاً ودفاعكِ مستميتاً، ولم يكن لأي دليل أن يجدي معكِ، أو معي، إزاء عنادكِ فقدت أعصابي وثرت عليكِ.

«حبيبك الفرنسي لعب بنا جميعاً».

«أنت تكرهه».

«سأكرهه دائماً».

لم أخف حقدي عليه، بل وبالغتُ بكل وسعي، توقعتُ وأنا أصرخ في وجهكِ متألماً منكِ، أنكِ ستطردينني، لكنكِ فاجأتني، وجنتاك تخضبتا بالأحمر وعيناكِ باللون الزهري، وعلى وشك البكاء، تهتفين بي، ترجيني.

«لا تحبني بهذه الطريقة».

اجتاحني غضب هائل، واكتسحني خوف شديد، ولّيْتُ وجهي عنكِ، كنت مكشوفاً لكِ، لم أدرِ أنك كنتِ تعلمين بأنني أحبكِ، في تلك اللحظات أحسستني مجرداً من كتماني، أعزل ومفضوحاً، وأحبكِ حتى الجنون، وأنني أسأت إليكِ، وحطمتُ في داخلكِ يقيناً صلباً، تمنيتُ الاختفاء عن بصركِ. وإذ أتجرأ على النظر إليكِ، تتصدع في عينيكِ نظرة حانية، كنتِ عاتبة عليَّ. هل

تركتِ لي طريقة أخرى أحبكِ فيها؟!

«أن أحبكِ، لا يعني لكِ شيئاً».

«أنا وأنت تأخرنا، ربما كان ما يحدث، يحدث بالرغم مني، لكنني أريده أن يحدث هكذا، أريده ولن أمنعه. صدقني، لقد أردتك، وأنا لم أختر بينكما».

بشكل ما: الكلمة التي تمنيت سماعها منكِ، لم أسمعها، لكنها قيلت، وتلفظتِ بها.

«لا يستطيع أحد أن يحبكِ كما أحببتك أنا».

«لا تخبرني، ولا تحبني».

«إبقي».

«ودّعني».

انفلتُّ خارجاً دون أن أودعها.

9

لم أظفر برئيس الوزراء في بيته، تفقدته في نادي الشرق وفندق الأوريان بالاس وبيوت معارفه المقربين، ولم أجده. كانت الساعة تقارب الثانية بعد منتصف الليل، نمت إلى جوار الهاتف مهلوساً. صباحاً باكراً، قصدت بيته، كانت سيارته إلى جوار الرصيف والسائق ساه، مطرق برأسه على المقود. تمشيت قليلاً بجانب السيارة إلى أن خرج رئيس الوزراء، لم أعهده منشرح الأسارير هكذا، تأبط ذراعي متكئاً على ساعدي، كان قد قضى ليلته بطولها سهراناً، اعتقدَ بسبب اتصالاتي الليلية أنني سأرافقه إلى بيروت. سردت عليه ما حدث دون الإشارة إلى ظنوني القوية بكرو، ولم آتِ على ذكر سعاد، وارتأيت التخلف في دمشق كي أتفقد موقع البعثة.

ركبت معه السيارة إلى السرايا، كانت سيارات الوفد المرافق

مصطفة في الساحة، صعدنا إلى مكتبه، اتصل بالملازم رئيس شرطة مخفر المرجة، وطلب منه مرافقتي مصطحباً معه عدداً من العناصر. ثم أكد عليَّ اللحاق به إلى بيروت إذا تطلب الأمر إعلامه به. قلت له، سآتي في جميع الأحوال.

لدى نزولنا كاد أن يتعثر على الدرج، لولا أن أدركته، لاحت عليه مظاهر الإرهاق واضحة. قلت له يلزمك الكثير من الراحة. ابتسم بوهن قائلاً، إنها رحلة استجمام يخالطها القليل من العمل. ثم قال بأنه التمس من نظيره اللبناني، اختصار رسميات الاستقبال لحاجته الشديدة إلى النوم، على أن يبدأ العمل غداً، أما اليوم فهو غير مرتبط إلا بدعوة عشاء على شرفه في دارة منزل رئيس الوزراء اللبناني وبحضور لفيف من المسؤولين اللبنانيين ورجال السلك الدبلوماسي.

«هل ستبقى هناك طويلاً؟».

«لا، يومين بالتمام والكمال».

كان تأكيده الجازم إلى عودته القريبة دليلاً على أنه لم يُضع وقته، طوال ليلة لم يذق طعم النوم خلالها.

كانت الليلة الفائتة، الليلة الأكثر تقلباً والأشد إظلاماً والأطول في حياة رئيس الوزراء، رغم أنها انقضت قبل الفجر بقليل وعلى ما يرام، ربما لأنه حسب، في مطلعها، أن ما ينوي القيام به سينجزه في غضون ساعة من الزمن لا أكثر، لكن خيَّبتهُ بدايتها بعد نصف ساعة من الزمن لا أكثر، إثر اجتماعه بفخامة رئيس الجمهورية الذي استقبله في بيته بلا حفاوة وبامتعاض بالغ، ملبياً رغبته حينما أصر على مقابلته.. على انفراد.

اعتقدَ الرئيسُ، أن رئيس الوزراء سيطلعه على ملخص للموضوعات التي سيتباحث فيها مع رئيس الحكومة اللبنانية، ملتمساً منه بعض التوجيهات العامة، مكفراً عن خطئه بعدم استشارته قبل قبوله دعوة؛ كانت بوضوح مبيتة منذ زمن لزيارة لبنان. وجاء الآن، قبل ساعات معدودات، يبرر ويسوغ فعلته، بلفتة مرائية، ليست أكثر من رفع عتب.

لم يكظم فخامة الرئيس غيظه. بينما أفسح رئيس الوزراء بصمته، المجال له ليعبر عن حنقه بجلاء بات غضبة، في فرصة قلما تجود بها الظروف العادية. مثلاً، ألا يُعدُّ تجاهلاً للأصول المرعية، أنه كرئيس للجمهورية، لم يتبلغ خبر الزيارة إلا من الراديو مثل جميع المواطنين؟! ماذا لو لم يسمع موجز نشرة أخبار العصر كما لا يسمعها أغلب المواطنين؟! أيضاً، لم يكن استدراكها متأخراً، وليلاً، إلا تصرفاً أخرق خالياً من اللياقة

الاجتماعية وأبسط آداب الزيارة، كي يعلمه بدعوة عاجلة، متفق عليها منذ أسابيع. ثم، ما لزوم إعلامه!! مطلقاً ما اختزنه ضده منذ زمن طويل.

كان الرئيس بهندامه الأنيق الكامل (لم ينس أو يتنازل عن محرمته الحريرية المقلمة التي تبرز من جيب جاكتته العلوي، وعطره المفضل جان ماري فارينا) وطلعته السمحة، وقامته الضئيلة ونحوله المزمن، رمزاً وطنياً مضيئاً وصلباً، لم يمالئ السلطات الفرنسية إبان الانتداب، ولم يحاب الأحزاب والجيش بعد الاستقلال، راسماً حياديته بنزاهة مثالية لا نظير لها، فارضاً مهابته بتمسكه بالدستور، مجبراً أعتى منتقديه تطاولاً ووقاحة على احترامه. وبما أن رئيس الوزراء كان أحدهم وإن لم يكن أكثرهم تطاولاً ووقاحة، إلا في سره، فقد سمح لنفسه، وبالتكتم نفسه، بالتمادي الآن في انتقاداته قليلاً: ما استقامة الرئيس المبالغ بها سوى تزمت دعائي، أصبح عقبة لا تسمح له بمناورات يقتضيها منصبه، يطفو بادعاء وتبجح فوق الأحزاب والجيش، بريئاً منهما، لا يتنازل إلى خوض معترك سياسات مدنسة بالمنافع، حيث تعقد التحالفات وتدور المساومات المشبوهة وغير المشبوهة، لولاهما، لم تكن هناك سياسة ولا سياسيون، غافلاً عن أنه بات جاهلاً جهلاً مطبقاً بأصول صنعة يقف بمنصبه على رأسها. وعلى سبيل المثال لا الحصر، هل يعقل ألّا يدري بأنه هو بالذات، كرئيس للجمهورية، مدينٌ لتلك المساومات المشبوهة، التي دارت بين الأحزاب والجيش والسفارات العربية والأجنبية، من دونها، لم يتربع على سدة الرئاسة ويلعب أدوار الحاكم والحكم والحكيم، إلّا لأنه لن يأخذ جانب أحد؟ فتركوه لرسميات رئاسة الجمهورية.

دون غضاضة، كمرؤوس نجيب وعاق، لم يتنصل رئيس الوزراء من ذنب أصبح ملموساً. ألم يعتدِ على هذه الرسميات بالذات؟! ابتلع برحابة صدر ما تفتق عن الاعتداء من تعنيفات ووخزات امتدت إلى ماضيه الوظيفي الدبلوماسي وأساليبه السياسية المتعثرة والانتهازية، انتقادات كانت بمجملها، مهذبة وأخوية، لا تخلو من إنصاف وبعض التجني، وبلا مراء لمصلحة البلد، لكن غير واقعية وليس هذا وقتها.

عندما انقطع سيل الانتقادات، أمسك رئيس الوزراء بزمام الحديث؛ إن الزيارة للبنان لم يخطط لها سابقاً، ولا تعدو في جوهرها سوى نشاط اجتماعي، أو زيارة شخصية هدفها شكلي تماماً أو بلا هدف على الإطلاق أو.. من الأفضل التكلم عن السبب الذي حدا به إلى مقابلته في هذا الوقت غير المناسب، وهو للأسف أمر في منتهى الأهمية والخطورة.. كي يسأله ممارسة نفوذه وتأثيره، إن لم يكن صلاحياته الرئاسية، لإنقاذ البلد قبل فوات الأوان!! لم يترك، بعدها، فرصة للرئيس الذي تكدرت ملامحه الطيبة سوى أن يتساءل بقلق ويتسمع مبهوتاً، فيما كان يرسم له وبفظاظة نذر الكارثة القادمة على عجل، وكلها فاقت توقعات الرئيس السيئة والأسوأ.

«لا، ليست حشوداً عراقية ولا هجوماً إسرائيلياً. لا تتحزر، إنها نفسها، ما نحن متخوفون منه على الدوام وحاولنا تجنبه باستمرار. وبصريح العبارة، انقلاب، نعم انقلاب، على مستوى غير مألوف، لا مثيل له، مغاير لما شهدناه، أوسع وأشمل، بالضبط متعدد، أو بشكل أدق، عدة انقلابات، سينقسم البلد من جرّائها إلى عدة بلدان، وربما تعرضنا إلى حرب أهلية داخلية بين أخوة في السلاح، لا يمكن التمييز بينهم!! لماذا؟! لأنهم متشابهون. هل

تدفعهم غيرتهم الوطنية على البلد للاتفاق على حقن الدماء؟ لا تسألني، أشك في هذا، لا الاتفاق يجول في أذهانهم، ولا الوفاق ضمن خططهم. من هم؟ إنهم، ولا ضرورة للتحديد، الضباط الذين لا نعرفهم بأسمائهم. من يعرفهم؟! حسناً، ومن غيرهم؟! الضباط اليافعون، وكما نقول أولادنا وفلذات أكبادنا، ضباط مراهقون، مستاؤون ومتهورون، لن يعدموا أحزاباً تحتضنهم، ودولاً شقيقة تناصرهم، ودولاً غربية تتسابق لكسبهم».

تكشَّفَ للرئيس ما أفجعه وتعدّى تصوراته المرعبة، الضباط الصغار الذين أخفقوا ـ يا لعدم النضج وقلة الدراية، بل يا للتهور ـ في الإعداد لانقلاب واحد يجمع صفوفهم، تمزقت جهودهم إلى أكثر من انقلاب، وهذه الانقلابات أضحت على وشك، سواء تزامنت أو تلاحقت، والمصادفة وحدها هي التي تتحكم بتوقيتها، وإذا نجا البلد ـ بمحض المصادفة ـ من واحد، فما حاله إزاءَ البقية!!

كان في ذهنه وصميم قلبه، بلد صغير، ما تبقى من بلاد الشام، سورية الصغيرة، التي ضاقت حدودها، وأيضاً كأنما فاضت أراضيها على ضباطها، ولن يهدأ ضميرهم الوطني إلا بتفتيتها إلى خمس دويلات، كما خطط الاستعمار وتخطط الصهيونية، ما فشلت به فرنسا، يتبرع الضباط لتنفيذه لحساب الصهيونية العالمية. سورية الصغيرة الفتية، معقل العروبة، الساعية دون كلل بعد طرد الفرنسيين بدماء شهدائها، للتصدي بثبات للمؤامرات الخارجية، ها هم، حماة الديار عليكم سلام (أي حماة، وأي سلام؟!) الذائدون عن حدودها واستقلالها، على شفا تدميرها!! وبرزت من ملامحه المذهولة، عيناه الصغيرتان مغرورقتين بالدموع.

«أتغادر البلد في هذا الوقت العصيب؟! لقد واجهنا خطوباً أشد

وأدهى».

لم تحجب دموعه نظراته اللائمة، ولم تُخف استعراضاً كان بلا كلام: أراض نائية وقاحلة نُفيا إليها، أغلال قُيّدا بها كالمجرمين، وسجون جُرجرا إليها والقيود تثقلهما، وتنكيل أصابهما وإهانات لم توفرهما، وهروبهما ليلاً مشياً على الأقدام عبر حدود سايكس ـ بيكو.

بيد أن رئيس الوزراء كان أدق، ووضع تلك الذكريات التي بدت جميلة وطريفة ولا غبار على وطنيتها، بل وأشبه بسيران متعب، في مكانها الصحيح والمجدي.

«كانت مفخرة في زمن الأتراك والفرنسيين، وتقبلناها بطيبة خاطر، أما هذه فلا يعرف مداها إلا الله، ولن نكسب سوى شماتة الشامتين».

«ليس عذراً، الأجدر بنا التكاتف معاً، وطنيتك في الميزان».

كان لا بد من تنبيه الرئيس إلى أن وطنية كل منهما ستكال بمكيال مختلف.

«فخامة الرئيس، لا تشغل بالك، أولادك الضباط سيسترضونك، ولن يمسوك بأذى. أما أنا، فالأسطوانة نفسها، سوف يتهمونني بما يطيب لهم، عميل فرنسي، أو إنكليزي، إن أجارني الله من العمالة للصهيونية».

ضرب الرئيس صفحاً، ودفعة واحدة، عن مثالب رئيس الوزراء ومساوئه.

«طالما كنتَ فوق الشبهات».

«لن يكتفوا بسجني، بل..».

ساءه ذكر واقعة لم ينسها أحد بعد، إعدام رئيس وزراء كفؤ من عائلة مرموقة، صبيحة اليوم الأول للانقلاب.

«لا، لن يتكرر.» قال الرئيس الذي تذكر.

«ما الذي تغير، أو سيتغير؟ سأكون رهين ضراوة الموقف. من سيمحص دوافعي السياسية حين تضطرهم الظروف لإرهاب خصومهم، أو من يتعثرون بهم؟ سعيد من ينجو بجلده. فخامة الرئيس كل شيء على حاله، تخيل لو كنت مكاني».

«أهذا خيارك؟».

لم يدعه يجيب عن سؤاله، معقباً باستهانة:

«أما أنا فباق».

مومئاً باستهجان إلى خيانة رئيس الوزراء الذي حمَّله مخاطر الانقلابات كلها، وفرَّ ناجياً بجلده منها، ولَّى وجهه عنه، رافعاً كتفيه بأنفة، منهياً محادثتهما.

لكنها لم تنته، لم يعن رئيس الوزراء بحديثه السابق سوى توطئة الحل الناجع الذي سيتركه وراءه وكان سبب مجيئه.

«رأيي، إطلاع رئيس الأركان على ما يجري، وتأمره بالتصرف فوراً».

كان الرئيس يفكر في اتخاذ إجراء يطوق الانقلابات في مهدها،

على غرار ما ارتآه رئيس الوزراء، لكن ليس الشخص الذي اقترحه.

«رئيس الأركان، لا، بل قائد الجيش».

إصرار الرئيس على اختيار اللواء كان قاطعاً، إنه رأس القوات المسلحة، أما مرؤوسه العقيد، فتابع له. أصبح العقيد واللواء محوري خلافهما، رئيس الوزراء لم يتراجع عن رأيه: العقيد مسيطر على القوة الفعلية الضاربة في الجيش، بينما اللواء في الواقع مغلول اليدين، سلطته صورية، ليس بإمكانه اتخاذ الإجراءات الفعالة الكفيلة بالسيطرة على الضباط، ولن يأخذوا بأوامره، إلا في حالة واحدة؛ بمساعدة العقيد الذي لن يمد له يد العون. لذا، لا خيار، الأسلم تخطي اللواء، العقيد ـ ولنعترف ـ هو صاحب القول النافذ في الجيش.

كذلك لم يتزحزح الرئيس عن رأيه، وتشبث بموقفه: عدم إضعاف مركز اللواء على حساب العقيد.

«ثم، إنني محرج من اللواء، يزعم دائماً ـ ومعه حق ـ أننا نهمله. الأحرى بنا دعمه في ممارسة صلاحياته كاملة، سأتيح له فرصة وأساعده على استغلالها».

«لا الموقف ولا الوقت، يسمحان لنا بتجربة شائكة جداً، إنها عملية تحتاج إلى جرَّاح خبير».

اعتقد أنه بتلميحه إلى عملية جراحية تنقذ مريضاً بين الحياة والموت، واستخدامه لتعابير تنم عن تشخيص واحتراف ومؤهلات ومهارات استثنائية، يُخمد مخاوف رئيس الجمهورية، لكن كان تأثيرها، وكأنه أثارها.

«لا تنس، كانت مخاوفنا الحقيقية وعلى الدوام، رئيس الأركان، لا أستبعد كونه وراء هذه الانقلابات، أنت تعرفه».

«لو كان.. لما كانت هذه اللخبطة».

تذرع الرئيس بصحيفة سوابق العقيد الانقلابية، فيما تذرع رئيس الوزراء بالعناية الفائقة التي يتطلبها الموقف؛ ولم تجدِ، فألقى بنصيحته الأخيرة، كنداء أخير:

«فخامة الرئيس، في هذا الظرف، علينا نسيان مخاوفنا القديمة إزاء مخاوفنا الحالية، وتجاوز بعض الشكليات من أقدمية وغيره!».

ولم يجد أيضاً أذناً صاغية.

بادر الرئيس، ومن غير إبطاء، بالاتصال بقائد الجيش، أيقظه من نومه، وأمره بموافاته إلى بيته، حالاً.

«حالاً؟!».

«وبالملابس العسكرية الكاملة».

انسحب رئيس الوزراء خائباً، وقد خرج عن طوره؛ هل هناك قائد جيش في العالم يأوي إلى بيته قبل الغروب، ويخلد إلى فراشه مساء، ويشخر قبل منتصف الليل؟! حشر جسده بغيظ في المقعد الأمامي إلى جوار السائق، كأنه لم يفعل شيئاً سوى أنه زاد الأمور الملخبطة لخبطة.

«إلى أين؟!» تساءل السائق.

ألقى نظرة على الشارع المظلم، يُوَدِّع معالم سيطول غيابه عنها إلى ما شاء الله، طلب من السائق التجول، دورة واحدة في حي أبي رمانة، ومنها إلى البيت، وحزم الحقائب. لكنه، ومن غير أن يدري، تفاءل بلا مسوغ، لماذا؟! هل يُكذب اللواء ظنونه؟! مستحيل. وتخيل من غير سبب، أمراً ينبغي التأكد منه. طلب من السائق العودة.

«إلى الرصيف المقابل لمنزل فخامة الرئيس».

قبعا في السيارة المطفأة الأضواء، أخذ من السائق سيجارة وضعها في فمه دون أن يشعلها. حينما رأى اللواء قائد الجيش بملابسه العسكرية الكاملة ينزل من سيارته ويدخل منزل الرئيس، لم يتمالك نفسه، أشعل السيجارة، ورمق من خلال الدخان الأنوار المتلألئة في النوافذ.

لم يستطع اللواء، في عجلة ارتدائه لملابسه، تَكَهّن الأمر الذي لا يحتمل تأجيلاً حتى الصباح، سوى أن هناك إنذاراً بهجوم إسرائيلي مبيّت على الحدود. عند تقاطع جسر فكتوريا، تذكر أن الجبهة ساكتة إثر المناوشات الأخيرة مع الإسرائيليين، وضباط الهدنة يُجْرون اتصالاتهم لوضع ترتيبات جديدة أطول عمراً للحفاظ على وقف إطلاق النار. عدا ذلك، فلا ميزانية الدفاع التي فات وقتها، ولا حفلة تخريج الدفعة الجديدة من الضباط التي لم يحن وقتها، تقضان مضجع الرئيس ليلاً.

أنبأه مظهر الرئيس الوقور، المهموم والمتجهم، بأمر جلل، كان كما يبدو علة أرقه؛ وأيضاً قلقه، وهو ينهي إليه، ثلاثة انقلابات..

ولعلها أربعة، غامزاً بخشونة من قناته، دون ذكر اسمه: مشغول بالوساطات والترفيعات والمآدب وخطابات التأبين وإزجاء الشكر، وفي النهاية، آخر من يعلم.

تنفس اللواء بارتياح: لا، ليس آخر من يعلم، بل الأول، ويعرفها برمتها وتفاصيلها. قالها باستخفاف ودعة، جعلت الرئيس الدمث، عف اللسان، يخرج عن سياق مناورته المرسومة.

«لو كان لدينا ناطور للجيش لأطلعنا على ما يجري منذ اللحظة الأولى. أم أنك تتستر عليهم؟!».

أَنِفَ اللواء من الرد عليه، وانبرى مضيفاً إلى معلومات الرئيس المتواضعة للغاية، ملاحق عن إخباريات تشير إلى خمسة انقلابات.. ولعلها ستة. أبطل مفعولها، واصفاً إياها بأنها من قبيل اللغو الصرف، إن ما تجمَّعَ لديه من أسماء للضباط المشاركين، كان عدداً غفيراً، لو صدقنا الإشاعات، فلن نجد بديلاً عن حلّ الجيش بعد تفريغه من ضباطه ـ ربما ـ كافة. ورمى (بصفته ممثل السلطة العسكرية) بوجه الرئيس (بصفته ممثل السلطة المدنية) بتساؤل اتهامي:

«هل هذا هو المطلوب؟!».

«ماذا لو كان واحد منها صحيحاً؟!».

«كاذبة، كلها، دون استثناء».

استخف الرئيس بنفي اللواء القاطع، كان بتجربته إن لم يكن بحسه، يعرف أن الانقلاب تسبقه عادة بشائر من أقاويل متناقضة،

وكي يحالفه الحظ، تنفيه جميع الجهات المسؤولة التي سينقلب عليها، وما يسمعه الآن، هو وضع مشابه ونموذجي، إشاعات صحيحة ولا يهم إن كانت كاذبة، قائد الجيش ينفيها بثقة وشطط، وما يلغي أية عدوى أو تأثير لهذه الثقة المفرطة ويرجح صحة الشائعات، والتي، هي، غير مزعومة على الإطلاق، ولن تكون.. اعتزام رئيس الوزراء على الفرار صباحاً باكراً؛ على التأكيد، لن يفر من مجرد أقاويل طائشة، وبلا سند، بل من وضع محتدم، في ذروته، قابل للانفجار في أية لحظة، في وقت يبدأ بالتحديد بعد مغادرته الحدود السورية.

إزاء قائد الجيش المستريح لزهوه، اضطر الرئيس امتثالاً لضميره الوطني، وخلافاً لأخلاقياته المتشددة، إلى الكذب بجسارة، مرفقاً معلوماته المؤكدة بتحذيرات غاضبة من داخل الجيش، وسافرة من خارجه: أوقفوهم وإلا.. لكن لم يرفّ جفن لقائد الجيش المطمئن لغفلته. فأردف الرئيس أكاذيبه، بأكاذيب دبلوماسية: إخباريات من مصادر مطلعة لها علاقات بسفارات عربية وأجنبية. فاجأت اللواء فعلاً؛ ففيما أفلحت (السفارات) في زعزعة يقينه، أطارت (الأجنبية) نعاسه وصوابه، هؤلاء لا يلقون الكلام جزافاً، وجعلته ينفض عنه حسن نيته، السفارات الأجنبية!! دليل ما بعده دليل.

وأجهز عليه الرئيس مصوباً نحوه إصبعاً مرتجفة، بالضبط إلى زيه العسكري.

«ستخربون البلد».

استغل الرئيس تهاوي دفاعات اللواء، وانطلق متوعداً الجيش الذي لم يعد له من عمل إلا التدخل في شؤون الحكم، متهماً ضباطه

الكبار المشرفين على تأهيل طلاب الكلية الحربية، دفعة إثر دفعة، للانقلابات فحسب؛ شاتماً الضباط الصغار الذين لم تفقس عنهم البيضة حتى يأخذوا سمت الإذاعة والأركان، صاباً جام غضبه على قيادة الجيش السادرة في غيِّها أي في نومها. ثم أقسم بأغلظ الأيمان، أنه في حال حدوث انقلاب، أي انقلاب، مهما كانت هويته، تقدمية رجعية وطنية استعمارية، ملكياً أم جمهورياً، يمينياً كان أم يسارياً، أو ما شاء لهم تسميته، فلن يبقى في الحكم لحظة واحدة، سيترك منصبه دونما عودة. وختم هجومه، موجهاً الإصبع المرتجفة، ذاتها وثانية، إلى صدر اللواء، لكن ـ هذه المرة ـ إلى الأوسمة العسكرية:

«إذا قبلت أن تكون واجهتهم العسكرية، فأنا أرفض أن أكون واجهتهم المدنية. تريدون الحكم!! خذوه، الحكم ليس وجاهة، إنه مسؤولية أمام الله والشعب والوطن».

كانت غضبته مخلصة وانفعاله نظيفاً. لم يملك اللواء إلا أن يقسم بشرفه العسكري، ويُشهد الله على أنه غير مشارك في أي منها، ولن يساهم في أي تغيير نحو الأسوأ، أو نحو الأحسن؛ تلك صفحة طويت، ولن يتعاون إلا مع السلطة الشرعية؛ هذا متفق عليه، وتعهد القيام بواجبه كقائد للجيش، يحامي عن الدولة والحكومة والدستور والوطن ضد الأخطار الداخلية والخارجية، حتى الرمق الأخير.

لم ينه الرئيس المقابلة إلا بعد إزاحة العقبة التي ستعترض اللواء:

«أما رئيس الأركان..»

«ما به؟!».

«إذا تلكأ أو اعترض على تنفيذ الأوامر، فلا تتردد بإقالته».

انصرف قائد الجيش ليباشر العمل على الفور، لكنه توقف عند العقبة الأولى التي ذللها له الرئيس قبل قليل، العقيد رئيس الأركان!! في الواقع، هو، العقبة الأولى والأخيرة، من دونه لا يستطيع تحريك فوج ولا كتيبة، أو إيقاف ضابط، أو حتى نقل عسكري من قطعة إلى أخرى. فكيف بتقطيع أوصال الجيش؟! وحتى لو ذهب إلى مكتبه، فما الذي سيفعله سوى إيقاظ الحاجب وعسكري السنترال واستدعاء المراسل، ثم الاتصال برئيس الأركان، عسى أن يجده في مكان ما؟! هذا أقصى ما يستطيع فعله الليلة، لا أزود ولا أنقص. لا بأس، سيبحث عنه بواسطة الهاتف، ومن البيت.

قبل أن يتصل، وضع في ذهنه تصميماً سريعاً لمراحل العمل، عمل لن يبتدأ أو يكتمل إلا بمشاركة العقيد، وكي يقنعه، سيصور له أجواء الخطر الداهم بمقدمة عاصفة، مركزة وعنيفة، يلقيها على أسماعه ببلاغة تكتيكية، مضمونها، لوثة الانقلابات التي استشرت في الجيش، وتخرج على إيقاعها أجيال من الضباط، منهم من فاته الانقلاب الأول، ولم يفته الثاني، وسيكون له نصيب في الثالث؛ ولهذا، لم يعودوا قانعين بالصفوف الخلفية في الجبهة على الحدود. هم، في الوقت الحاضر، يخططون لتحركات، هي انقلابات، وأعني ما أقول بالحرف الواحد، عدة انقلابات، لا تستهن بشبان لا تنقصهم التجربة، لديهم خبرات سبقت، ولا تعوزهم الروح الاقتحامية؛ كانوا في مقدمة المقتحِمين، ما سيقدمون عليه لا يعدو سوى أنهم سيكررون ما فعلوه مرة، لكن في انقلاب خاص بهم، هم قلبه وقالبه، خطأك، استصغارك ضباطاً

صغاراً بالرتبة فقط. مهلاً، إذا كان من انقلاب سينجح، فأنا لست مطلوباً فيه إلا للبقاء في منصبي، أما أنت فعلى رأس قائمة المطلوبين في أي انقلاب، أللهم، إلا إذا كان انقلابك.

هل سيجحد العقيد جميله، أم سيقبل التعاون معه، ولو إلى حين، شاكراً تحذيره وصنيعه، تربطهما معاً، دون توان، خطة عمل عاجلة، دور العقيد فيها مرؤوساً يعمل تحت إمرته؟!

لكنه لم يجده في بيته، ولا في الأركان، ولا حتى في نادي الضباط، خطرت له السريانا، رفع السماعة وأعادها، ثم رفعها وأعادها. كان ترده صدى لسؤال تردد في رأسه. ماذا لو لم يكن في إثر انقلابات فعلية، وإنما في إثر تهاويل الرئيس الذي أقام الدنيا وأقعدها في خمسين دقيقة وركّب من مخاوفه انقلابات ستتم بلمح البصر؟! ماذا لو كانت غير حقيقية، أو حتى حقيقية؟! ألن يضيع الحابل بالنابل، وأية مآس ستنجم عنها؟! ضباط في مقتبل العمر، لم يتعدوا طور التلمذة بعد، حديثو خيلاء ومثالية ووطنية.. وانتهازية؛ أحلامهم الوردية تحرير فلسطين!! أنؤدبهم بالقضاء على مستقبلهم؛ برميهم في السجون والشوارع؟! لغوا بالانقلابات، ما الجديد في الأمر؟! مجرد أماني تراود من كان في يفاعتهم ورُتَبهم، وهي جناية العقيد وأمثاله عليهم. لِم العجلة؟! غداً، سيعالج أمرهم بمنتهى الروية، أما الليلة، فسيدعهم؛ إذا حدث الأسوأ فسيطيحون بالعقيد، وإذا مرت الليلة بسلام، فسيجرب غداً مع العقيد، في حال بدر منه تهاون، فسوف يستعمل صلاحياته.

من مكمنه في السيارة، حينما رآه خارجاً من منزل الرئيس، توقع رئيس الوزراء أن اللواء سيتخذ طريقه صوب الأركان، وسرعان ما

سيتحول المبنى خلال دقائق إلى غرفة عمليات ضخمة. عند مفرق الأركان، بدا وكأن اللواء أخطأ منعطف الأركان، مستديراً بسيارته إلى بيته، ربما نسي شيئاً، أو سيتزود بشيء. اشتعلت الأضواء في النوافذ المطلة على الشارع فترة وجيزة أصبحت طويلة جداً، ثم انطفأت، تلتها ربع ساعة، لم يظهر اللواء. كان اللواء قد نام.

نقم على الرئيس، لم يسمع نصيحته، وندم على التجائه إليه، قرر العودة إلى بيته والاستسلام لغفوة حتى الصباح أسوة بهما. تاه شارداً، والسيارة تسلك شوارع لا تؤدي إلى فراشه، طويلة ومتعرجة، وأزقة ضيقة، تطرد النعاس وتثير الهواجس، وبلا نهاية، كهذا الاختناق، بلا نهاية. ماذا لو..؟!

انعطفت السيارة في نزلة الجبخانة (هل تحدث مع نفسه بصوت سمعه السائق، أم زلَّ لسانه؟!) وتابعتْ في شارع بيروت.

تلامحت من بعيد أضواء السريانا، كأنها دعوة يدعو نفسه إليها، وعليه الإحجام عنها، حماقة قد لا يغفرها له أحد. كانت بجلاء خطوة رعناء، يجب ألا يقدم عليها، مخطئاً على أكثر من وجه، اختار أسوأ مكان، وأسوأ توقيت، وأسوأ رجل. ما الذي يرجوه من شخص هو خصمه، وكان نقيضه، مذ لمع نجماهما؟!

قبل أن يتراجع، أقنع نفسه وبتهور أنه مرغم عليها. أمر السائق بالالتفاف والوقوف على رصيف السريانا، إلى الجانب المظلم منه. نزل من السيارة، أخذ شهيقاً عميقاً، في الداخل ليس هناك ما ينعش، وتقدم بثبات.

لم تكن السريانا قد بلغت أوج رحلتها الليلية بعد، على الرغم من تطريب مواويل المطربة سهام وتقصعات الراقصة نيران، ما زالت السريانا متمالكة وعيها في أجواء النسيم وضوء القمر وعلى وشك الملل. بعد فاصل سكون، أخذت تستعيد نشاطها على وقع الطبول البعيد والعميق، الفرقة الإيطالية تستهل استعراضها بلوحة بطيئة وممطوطة، تمثل فيها الفتيات الشقراوات بتلوي أيديهن شيئاً ما أقرب إلى السباحة أو الطيران، سواعدهن تتداخل وتتشابك، أجسادهن تهتز كحوريات البحر أو الفراشات، يعتصرن بطونهن ويمسدنها، تبرز عظام صدورهن، أشبه ببائسات يتضورن جوعاً، بأجساد هزيلة ولامعة وأسمال براقة، يرتعشن بشهوانية مثيرة، مع قشعريرة باردة مفاجئة، ربما من قرصة البرد الخفيفة.

الاستعراض لم يشد العقيد، بريجيتا لم تظهر بعد. كانت طاولته البعيدة عن الأضواء تقع إلى الجانب الأيمن من المنصة المستديرة، جوار خميلة دفلى؛ بحيث إذا مال العقيد جانباً أو إلى الخلف حجبته أغصانها عن الأنظار. كان بقميصه النصف كم وعينيه الحادتين نصف المغمضتين، يشرف مشرئباً برأسه على المائدة العامرة بالمشروبات والمازوات والأحاديث الجانبية، وحوله أصحاب ومعارف؛ صديقٌ قديم من أيام التحصيل المدرسي في حمص، وآخر من أيام اللهو في حلب، وواحد لا يعرفه أو نسيه، عَلِقَ به منذ أيام وحان الوقت كي يطلب منه خدمة، ورفيق صبا أعاد إلى ذاكرته أياماً خلت في اللاذقية، وزميل سلاح تقاعد لأسباب صحية، لم ينبس بكلمة ويبدو متوعكاً، ورجل ظريف

التقاه قبل شهرين في السريانا من الشوام المعتقين، احتفظ به إلى جواره، ومنذ ذلك الوقت لم يفتر عن النميمة، أصبح دليله ولزوم مائدته، يسعفه بتعريفه غمزاً ولمزاً، على الجالسين إلى الطاولات المجاورة مع فضيحة ما لها علاقة بأصلهم أو فصلهم، بوظائفهم أو تجاراتهم.

اقترب العقيد بأذنه إليه، ليس كي يسمعه بوضوح، بل لأن بريجيتا فتاة الفرقة الأولى ظهرت مع ضربات الصنوج وتراجع إيقاع الطبول، تتلوى كأفعى، تدنو من الأرض، وبحركة رشيقة تنقلب على بطنها، مقوسة ظهرها، ملقية برأسها إلى الخلف، وشعرها انفلت مروحة على كتفيها، ترتدّ واقفة، تبرم في مكانها، وتجمّد على حين غرة، كتحفة من عاج، شعرها يُكمِلُ دورته ملتفاً حول وجهها وصدرها، ترشقه بنظرة حارقة من خلل قناع شعرها، يردّ عليها بابتسامة دافئة، فيما كان البارحة مجرد رجل وسيم دعاها إلى طاولته، فتح لها زجاجة شمبانيا، وافتتح معها علاقة سخية وحارة.

انحنى صاحب الملهى على العقيد، أسرَّ في أذنه شيئاً، وأطار من رأسه خَدَر العرق وعيني بريجيتا المخضبتين بالسواد.

«أأنت متأكد أنه هو؟!».

«ومن لا يعرفه؟!».

«لماذا لم يشرفني إلى هنا؟!».

«هل تمزح؟!».

لم تكن أكثر من أسئلة يداريان بها دهشتهما العارمة من دخول رئيس الوزراء متلطياً إلى مكان وصفه دائماً بالموبوء، وبذل عفة لسانه السليطة لإلغاء ترخيصه!! هل هو الشخص نفسه، قابعاً ينتظر في حجرة تبديل الراقصات لملابسهن؟! رئيس الوزراء الثري، المحافظ المصقول، والرجعي اللامقبول، يغامر بسمعته في جحر من ملهى، متغاضياً عن تزمته الخبيث وتدينه المعسول، مُقْدِماً على مأثرة لا صلة لها بالترفيه ولا بنزوة مارقة، وإنما لأمر.. ما هو؟! تخيله محشوراً بجسده الضخم، محتقناً بأنفاسه، مزنوقاً بين أوراق التين، ومهما يكن فقد أثارته جرأته.

ألقى نظرة على بريجيتا الضائعة وسط عجيج الرقص، هناك استعراض آخر في الداخل ويجهله تماماً، فيما هذا الاستعراض يعرفه وشارف على نهايته، بعد قليل سينفرج خليط الراقصات عن بريجيتا تقفز عالياً، وتختتم العرض مبسوطة الذراعين ومفسوخة الساقين. نهض من مكانه، ومن فرجة داكنة بالأكتاف والصدور العارية، أومأ لها برأسه.. سأعود.

قال لصاحب الملهى، أن يُصر على وكيل الفرقة عرض تابلوه إضافي، وفي حال تأخر، أن يمنع الراقصات من الوصول إلى حجرة تبديل ملابسهن، ويشغلهن بمجالسة الزبائن.

«هكذا؟!» نبهه صاحب الملهى «دون أن يستروا أجسادهن».

«أو حتى كما خلقهن الله.» أتبعها بضحكة وهو يبتعد «مجالسة إكسترا».

وكانت في انتظاره مجالسة دبل إكسترا: رئيس الوزراء قاعد على مقعد قصير، متكئاً بساعده إلى فترينة الماكياج، ممدداً ساقه فوق

ترابيزة صغيرة، حوله العري الكامل موحشاً ومفرغاً من بريقه، يتكامل بخفة مع العالم الجواني المبعثر موجزاً بخرق الحشمة الأخيرة لنساء يقاومن الاستسلام بالدلع، فيما تناثرت شطحات الإغراء بإهمال كلي، وبلمسات موحية حتى في أعقاب السجائر المزنر زيقها بأحمر الشفاه. يرمق المرآة، متضائلاً بكبريائه، بلا غرور، وإن ببقايا عجرفة مهزوزة، يُخربشُ كعادته، مستعيضاً بقلم الكحل عن قلم الحبر، وبمغلف علبة جرابات نسائية عن دفتره الصغير.

تقيَّدَ العقيد بآداب الضيافة ودعاه إلى طاولة منفردة في الهواء الطلق. رد عليه، شاحطاً خطاً إثر خط، معدداً أعذاره؛ وكلها لأسباب صحية، بالإضافة إلى:

«الموسيقى وجلبة الزبائن ستشتت انتباهنا».

عقب العقيد مجيلاً بصره في أنحاء الحجرة، ومتظاهراً بالحرج:

«لكن.. هنا!!» أي أنها لا تناسب مقامه.

وافقه رئيس الوزراء مخففاً عنه الشرح والتظاهر بالحرج:

«ليس بالمكان اللائق.» أي ليس باليد حيلة.

«كان من الممكن الاتفاق على مكان مناسب.» أي مكان سري ومحترم، لا تطوله شبهة.

«سمعت أنها فرقة جديدة، قلت لنفسي أقتطع بضع دقائق من وقتك، نتشاور في بعض الأمور.» أي لن يطيل عليه.

«شاهدتُ العرض البارحة.» أي أن الوقت مفتوح على مصراعيه.

ومع هذا، بدا للعقيد أن المكان بانكماشه يُحدِثُ انقباضاً ليس هذا وقته، لا يتسع إلا لمشاورات خانقة، ستكون بالضرورة متساهلة، ولا يتيح متنفساً مريحاً لمشاورات يجب أن تكون متباعدة ومتحجرة.

«إنها المرة الأولى التي نتكلم فيها على انفراد.» نبس رئيس الوزراء.

انزعج العقيد، ما يقصده رئيس الوزراء واضح، ليس التخفف من حذرهما، بل وعلى وجه الخصوص، إنها المرة الأولى التي يتاح فيها لكل منهما إعطاء انطباع صريح للآخر، دون مزايدات وبلا وطنيات. لم يفته أن رئيس الوزراء يحاول من مكمنه البليد مساعدته، بتجنب النظر إليه مواجهة، وإنما من خلال المرآة، عَبْرَ حاجزٍ يضفي غلالة على نواياهما، أو أنه بحكم ضيق المكان، توفر المرآة إمكانية معقولة لبدء حديث دونما رسميات، يفضيان فيه بأفكار متحررة من عبء مظاهر القاعات الواسعة، لا تسمح بها مقابلة متفق عليها ومرفوضة مسبقاً، وبما أن رئيس الوزراء بادر بخطوة لا شك في جرأتها، فقد جاء دوره كي يبدي تجاوبه، إن لم يكن تقديره أيضاً، بعبارة لم يجد غيرها، ولا تؤخذ بحرفيتها.

«أنا تحت أمرك».

عندئذ، فَرَشَ رئيس الوزراء صور الأوضاع الراهنة في البلد: في قطاع الأحزاب.. (كانت لدى العقيد الصورة المفككة والمهلهلة نفسها، لكن ليس بهذا التشويش المتعمد) في القطاع العسكري.. (معلوماته تفوقها ومن زاوية ملموسة، ومدروسة بدراية) ثم، بيت القصيد، الضباط الذين تجهل ما يدبرونه.. (على الأصح، لا

يجهل، بل يعرف الحقائق لا البهارات) وانقلابات بالجملة.. (معلوماته عنها تفصيلية، بالأرقام والأسماء والرتب، ما يقولونه، وما يتهامسون به، وبالحرف الواحد) وعلى حين غرة (لم يفاجأ، كان على استعداد) كان الوضع ميؤوساً منه تماماً، رغم أنه ختمه:

«أعتقد أنك ستجد حلاً».

القصة نفسها؛ جملة التقارير التي لا وزن لها عن انقلابات مرتقبة وظاهرة للعيان، وللوهلة الأولى؛ محكمة ومرعبة، لو تبصّر فيها دولته، المخضرم بالاستقرار والقلاقل والمناورات والانقلابات، لوجدها متداعية متضاربة، وخائرة القوى، كل منها لا يؤكد الآخر قدر ما يلغيه، لكن إكراماً لمخاطرته فقط، وليس لتواضعه ونزاهته الحاليين (من يستطيع أن يضمنهما؟!) لن يتمزمز بتخويفه، سيرفق به ويطمئنه دفعة واحدة على مصيره ومصير حكومته.

«إن أياً منها مقضي عليه بالفشل».

«إذاً، أنت تجهل ما يجري!!».

قرر العقيد وضع حد لتعالم رئيس الوزراء، بأسلوب حازم وواقعي:

«بل أعرف، وأعرف أن لأي ضابط أن تحدثه نفسه بانقلاب، لن أحاسبه على الشبهة؛ وفي الوقت نفسه، لن أتسامح مع أي ضابط تُسَوِّل له نفسه القيام به بالفعل. كن على يقين، سأفرمه دونما رحمة أو شفقة».

«هل تنتظرهم حتى يقلبوا الطاولة عليك وعلى ضيوفك؟!».

«لا تبالغ، لست بهذه الغفلة».

أزعجته إشارته إلى الطاولة والضيوف، كانت تلميحاً إلى أنه كان قبل قليل سادراً في لهوه. تابع بحدة:

«لدي إخباريات تزيد على سبعة انقلابات، لو محصتها لوجدتها جعجعة على الورق. مَنْ وراءها؟! شلل من صغار الضباط، وكل شلة تنم عن الأخرى، إذا صح أنهم في سبيلهم إلى الإقدام على عمل ما، فلن يكون هذا العمل في أسوأ حالاته إلا عصياناً في القطعة أو تمرداً على تنفيذ الأوامر. ما الذي بوسع كتيبة في الجبهة أن تفعله؟! أوحتى فوج في حمص أو لواء في السويداء؟!».

بدت ثقة العقيد بتفنيداته كاملة، تمنع أي جدل. لكن، كان ثمة ثغرة، وهي مجرد رؤية حالكة، خطرت لرئيس الوزراء، كان وهو يبسُطها، مؤكداً عليها بشدة، غير متشدد وأكثر استهانة من العقيد.

«أنا لا أعبأ بهذه الانقلابات، ولا أيها يسبق، بالعكس، ما أتمناه أن يسبق واحد منها وينجح فعلاً، بيد أن ما أخشاه، وهذا من كثرتها وسوء تنظيمها، أن تتحرك مجموعتان في وقت واحد، ومعهما تتحرك أو بعدهما وربما قبلهما بقليل مجموعة أخرى، وإذا أخذنا بالحسبان أن القطعات الموالية لك، أثناءها، لن تقف موقف المتفرج. كما، أيضاً، لا ينبغي أن ننسى الآخرين، أصحاب المفاجآت، ألا تعتقد بأنهم سيحاولون أن يجدوا لأنفسهم مكاناً في هذه العجقة؟! ما الذي سنحصده سوى اصطدام وحدات الجيش بعضها ببعض، واشتباكات طائشة ودموية، بلا هدف إلا محاولة كل فريق التغلب على الفريق الآخر؟! أي فوضى!!».

تريث ريثما تكفهر خيالات العقيد بفوضى المجنزرات والدخان

والدماء وأشلاء الجثث. وقال:

«أُحملك المسؤولية بكاملها.» ثم أعفاه منه بأخرى «أطالبك بانقلاب كبير ومحسوب، يسبق انقلاباتهم ويبطلها، إنها مسؤولية وطنية».

قالها وعصف به ندم، داراه بواقعية، هل ترك رئيس الجمهورية وقائد الجيش له خياراً ثانياً، سوى العقيد الذي طالما حذر ــ هو بالذات ــ منه ومن أساليبه، علناً في البرلمان واجتماعات الحكومة؟! ها هو، بمنتهى الواقعية، يقدم له الأسلوب نفسه سافراً وكأنه الوطنية بعينها!! لكن، في هذا الظرف الاستثنائي، أليس من الحرص العمل بوعي على انقلاب سليم وأبيض، لا يخلف ضحايا، اللّهم، إلا بعض الموقوفين في السجون، لفترات قصيرة، ولدواع زجرية؟!

انصرف العقيد بكليته إلى خصمه الذي شجعه على حل، كان نهاية المطاف دائماً، وزينه له على أنه الأول والأمثل، مبرهناً على أن الدواء من جنس الداء، ورغم أن إحساسه بالزهو عَقَلَ تفكيره للحظات، فقد عاجل يُحدد ما يُرجى منه دون تزويق.

«إنك تحرضني على القيام بانقلاب».

يُشهِدُه على أقواله بإعادتها على مسامعه ثانية. تلكأ رئيس الوزراء، هَالَهُ الوصف الحقيقي للواقعة: تحريض!!

«ربما كان الأمر لا يحتاج».

قاصداً، فقط، إبعاد الوصف بالذات، لكن العقيد كان مصراً على

هذا الوصف بالذات:

«لا يحتاج!! أم لا مفر منه».

«إذا كان بالإمكان تلافيه، فلا بأس».

أحس العقيد بالغيظ، رئيس الوزراء يخادعه، إذا واصل تعقبه على هذا المنوال، فسوف يواصل رئيس الوزراء تراجعه ويسحب معه كل كلمة قالها. تساءل ساخراً:

«لحسابكم؟!».

كان رئيس الوزراء على مستوى الموقف:

«لحساب الوطن».

أي لقاء لا شيء. وحمّل العقيد نفسه مغبة مراوغة بدأها واستغلها رئيس الوزراء على أكمل وجه، أما ما يجب البت فيه فوراً، دونما مراوغة فهو:

«سمعتُ أنك بصدد مباحثات نفطية مع الأميركان».

«إنهم حتى الآن، لم يتقدموا بعرض صالح للتباحث حوله».

«أرى أننا سنختلف بشأنهم».

«لماذا نختلف؟!».

«نحن نريد السلاح».

«ونحن أيضاً».

«أنا لا يهمني مصدره، حتى لو كان الشيطان».

وجدها رئيس الوزراء فرصة سانحة كي يستأصل خلافاً مقبلاً:

«الشيطان لن يفيدنا في النفط».

«سوف يفيدنا في السلاح».

«سنستبعد الشركات المستقلة لهذا السبب».

«والروس؟!».

«سنلوّح بهم للأميركان ليقبلوا بشروطنا».

«الأميركان كالإنكليز والفرنسيين يعدون ولا ينفذون».

«سنطالبهم بضمانات».

جزم العقيد بأن رئيس الوزراء يحاول تقييده بموافقة مسبقة هي اتفاق شفوي يطلق له حرية العمل، وقبل حين كان يرجوه خدمة ليحافظ على منصبه!! ثم لم يتورع عن انتهاز الفرصة لتكديس مكاسب للمستقبل. سارع يجتث الاتفاق قبل إلزامه به:

«أقول، وبتفويض كامل من الضباط، النفط سيخضع لتقديرات الجيش».

تحت الضوء الذي بات مبهراً لعينيه، التقط رئيس الوزراء الخلل الذي حصل فجأة، وانطبع على المرآة: لم تكن صورتاهما إلا انعكاسات لوجهين فاقعين ومتربصين. قال بضيق:

«ألا يسعنا التباحث بهذا فيما بعد».

«لا».

أجال بصره المتعب في أرجاء الحجرة التي أصبحت كئيبة مغبرة وسيئة التهوية، مبعداً عنه اتفاقاً وخاتمة، مروحاً عن غمه، بمشهد تداعى من تلقائه؛ بلوزات ضيقة، أرواب واسعة وهفهافة، ريش ملون، كشاكش حريرية، دانتيلات ومخرمات، علب هدايا مفتوحة ومرمية على الأرض، باقة ورود يانعة، ستارة في الزاوية.. لِم الستارة؟! نظارات نسائية سوداء، أمشاط مقصبة، لطخات أصبغة، روائح عطور وزيوت وكريمات، رَجْعُ موسيقى خائرة وصرخات استحسان منتشية، شعرة طويلة وشقراء.. هل صاحبتها طويلة وشقراء؟! كأن خيالاتهن الملساء حرضته على التلصص على آثارهن وظلالهن، ولعلها المخلفات المتبذلة في وكرهن حضته على التفكير بهن، فيما البقايا المبتذلة تستعرض حيل الإثارة والخلاعة، وخدعة الجمال الصارخ وسيماء الاستهتار المتكلف. وكلها، لا تتستر على ورود سوف تذبل، وهدايا مؤقتة وزائلة، وشهوات ستنضب. وكلها، تفضح تجاعيد الزمن الجامح، والتصابي اللاهث، والدلال المبطن بالاحتراف، وزنخ العرق. وكلها، تتضاءل إزاء ذل الرضوخ والنكران الساقط؛ دون أن تخفي ألاعيب المساومات المتسامية، والإحساس المضني والمتفاقم لتلك البشاعة المتكاملة لإنسان يبيع جسده ولا تسلم روحه.

ودَّ أن يقول شيئاً بلا معنى، أدار بصره، استلفتت نظره علبة مكشوفة تحتوي على نجوم براقة من ورق أو ربما من مشمع لامع، وبمقاسات مختلفة. تساءل يرطب كربه بفكاهة:

«هل لديهن عَلَمٌ يمثلهن؟!».

كبت العقيد ضحكة كادت أن تفلت منه:

«إنها لستر الحلمات والصرّات والفروج».

«هناك ما يخفونه إذاً».

ضربته قشعريرة، لقد بالغ في التعري. وبعصبية، أخذ يخربش بقلم الكحلة فوق سطح القاعدة البلورية لفترينة الماكياج، خطوطاً تتراكب أشكالاً لقبعات عسكرية وأوسمة تداخلت مع طراطير مهرجين. وكأنما لسعه شيء ما، انتبه، لقد شوّه لمعة البلور وصفاءه، تناول فوطة مدعوكة كانت مرمية على مقربة منه، مسح بها آثار عصبيته، لم تمح، صارت مشحة سوداء مهلهلة، أفلت الفوطة من يده متوتراً، تناولها العقيد بأطراف أصابعه، نفضها وفردها، استعرضها أمام ناظريه: حمالة أثداء شفافة، وكيلوت من خيوط. بهت معتذراً:

«ملابس داخلية!!» احمرَّ وجهه خجلاً «لم أتميزها».

«ليست داخلية، إنهن يظهرن بها».

مدّ رئيس الوزراء يده إلى جيبه، وأخرج محفظته.

«سأترك لهن شيئاً».

«لا داعي سأعوضهن».

قالها راسماً على وجهه ابتسامة عريضة، وكأنه سيعوضه أيضاً.

لم يكن مزاج رئيس الوزراء المعكر مواتياً لتلميحات يتراشقان بها، ربما وبالكاد يسمح بمجاملة سريعة يُظهر بها إعجاباً استجد رغماً عنه، ويستدعي تملقاً مبتسراً ومتحفظاً لا بد منه، لا يثقل من وطأة مودة عارضة لن تدوم. كان واثقاً أن العقيد المهيأ

لمواقف معقدة وشبه مستحيلة، لن يخفق في الساعات المقبلة، بل بعد أيام، عندما ستواجهه مواقف صعبة فعلاً، سيسهم هو من طرفه في جعلها مستحيلة تماماً، بحيث لن يكون العقيد كفؤاً لها.

كذلك، لم يغب عن العقيد، أن هذا السياسي القذر، الذي كانه في ذهنه، لم يكن مقرفاً إلى الحد الذي كان يتصوره، بل طلياً إلى حد ما، وكريهاً بقدر لا يمكن التكهن به بالضبط، إذ لا يمكن أن يتغير خلال أقل من ساعة، لكن يبقى ذلك السياسي الفطن المتمرس بتراجعات تسعفه بمهارة على النجاة من مآزقه السياسية على حساب غيره، ولن تكون على حسابه، ولعله من الصواب ترويض حساباته على أن ارتباطه به ليس سيئاً أو خالياً من الفائدة، وإنما جيدٌ، ليس لأنه مؤقت، بل لأنه موقوت. متى ينفجر؟! المهم ألا يُمنِّيَ نفسه بمؤازرته لا فعلاً ولا قولاً. لا، لن يأمل منه شيئاً.

ترافقا، عبر الباب الخلفي، إلى الممر الخلفي إلى السيارة القابعة في العتمة، تبادلا تمنيات خافتة لم تخطر لهما تحت الأضواء. أحس رئيس الوزراء وهو يهبط بجسده على المقعد الخلفي براحة البال، والسائق ينزل بالسيارة عن الرصيف لم يلتفت إلى الخلف، أسند رأسه وأغمض عينيه. إلى متى سيدوم اتفاقهما قبل أن يحنثا به ويعودا إلى ما كانا عليه، متربصين الواحد للآخر؟!

والسيارة تغرب عن أبصار العقيد، شرد عنها وعنه وعن عودته متثاقلاً وطلبه من صاحب الملهى إطلاق سراح فتيات الفرقة؛ ومغادرته دون توديع أحد، منطلقاً في ليل تشقق عنه رماد خفيف، وظلال هاربة، أعادا إلى ناظريه مشهداً كان سعده

ونحس الآخرين، مطابقاً، وقد توشح بمسحة داكنة، فيما كانت خطته تتسلسل على نحو غير مطابق، مبعداً عنه إغواء انقلاب كبير يتسع لاستعمال جميع صنوف الأسلحة، بمجزرة.. مجزرة على الورق.

في الأركان، كبداية لا محيد عنها، استنفر القطعات الموالية، تلاها باستدعاء كبار ضباط الألوية والأفواج من ثكناتهم وبيوتهم إلى اجتماع عسكري عاجل؛ إنهم ـ بالمناسبة ـ ما يطلق عليهم مجموعة الضباط العقلاء، الذين لا يستغني عنهم جيش ولا دولة، لا يتعاطون السياسة، ولا يتدخلون بشؤون الحكم، ولا تجمعهم برجالات الأحزاب سوى المناسبات والأعياد القومية والوطنية، القلة الصامتة، الجدية والمتجهمة، التي لا تفصح عن غضبتها إلا في ذروتها، بعرائض نظامية ترفعها حسب التسلسل إلى قيادة الجيش، مطالبة بإصلاحات أو تعديلات أو إعادة نظر، يستجاب إليها دون تلكؤ. أولوياتهم: الانضباط العسكري، المشاريع التدريبية والجاهزية القتالية. يؤيدون الانقلابات بعد استتبابها، ولا يستنكرون برقيات تأييد لم يرسلوها، ولا يشجبون الانقلابات المخفقة إلا بعد فشلها الساحق. ودائماً، لولاهم، لما أصبح نجاح الانقلابات أو إخفاقها واقعاً ملموساً. ثم، لا يمكن اصطيادهم، أو الإيقاع بهم، إلا من جراء مخالفات مسلكية فادحة، أو هزائم منكرة، كانت غالباً نادرة الحدوث.

افتتح العقيد الاجتماع بعرض خريطة شاملة للأوضاع، موجزة ومتردية: حكومة عاجزة وأحزاب تتطاحن، وأبعد قليلاً؛ العدو الإسرائيلي على الحدود. لم تتبدل ملامحهم بفضول أو غضب.

أليس الجميع وعلى رأسهم الجيش يساهمون بإضعاف الحكومة؟! وما الذي تفعله الأحزاب إذا لم تتطاحن بسبب وبلا سبب؟! أما العدو الصهيوني فنحن نكفي البلد شره؛ ما الجديد في حالٍ كان متوازناً على هذا المنوال؟!

بلفتة مباغتة ومدروسة، وجّه أنظارهم إلى الحال الذي لم يعد متوازناً، إلى الجائحة القادمة: الضباط الأغرار!! يظنون أن تخرجهم من الكلية الحربية يُعَبِّدُ الطريق أمامهم إلى الحُكم (يجعله سالكاً للاستيلاء على السلطة). إن بحوزته أدلة لا تدحض (بعثرها على الخريطة، وكادت أن تغطي الخريطة) على انقلابات (في أطوارها التي تسبق ساعة الصفر) على وشك الإقلاع إلى الإذاعة والأركان. والى هجومه على الضباط المغامرين منددأ بهم، عالة على الجيش، مصيبة على الوطن، يتنطحون لانقلابات، المريع أنها عشوائية (أي سفه وإسفاف!!) حتى أنهم لم يفكروا بأدنى قدر من التعاون أو التنسيق فيما بينهم.

بعد أن صعقهم، استثارهم: كيف ننقذ بلداً سيصبح في غضون يوم وليلة، أو يوم أو ليلة، إن لم نقل خلال ساعات، ميداناً لجيش يتقاتل مع نفسه، والمستفيد الوحيد العدو الإسرائيلي؟! استصرخهم: منعاً لسفك الدماء، وحفاظاً على وحدة الشعب والجيش.

استغاثاته، لم تلق آذاناً مغلقة. أظهر الضباط لياقة عالية إزاء الخطر الداهم؛ على مستوى كان أعلى من المستوى المتدهور. تباروا بحمّية مقترحين القضاء على الفتنة في مهدها وتقويض الانقلابات على الأرض، مبرهنين على انصياعهم الكامل لنداء الوطن والأوامر التي كان ضارب الآلة الكاتبة قد أنهى لتوه نقلها إلى الورق

مروّسة بـ (سري للغاية) و(تُسلم باليد) وقعها العقيد وأسلمهم إياها، كل بدوره وبيده: تنقلات القطع العسكرية، لوائح الضباط المنقولين والمعتقلين، وتحت الإقامة الجبرية.. على أن يوافوه بمراحل التنفيذ أول بأول.

بيد أنهم لم يغادروا (كما لم يتوقع) متزاحمين نحو الباب وبالسرعة المطلوبة، تلكأوا يتبادلون النظرات متهيبين. تيقظ العقيد (لماذا؟!) خمَّن، أنهم لن يخرجوا خالي الوفاض، وهي فرصة كي يطلبوا شيئاً لأنفسهم. استعجلهم:

«لقد انتهينا».

تشجع أقدمهم رتبة:

«إن العسكر..»

دار في خلده أن العسكر يُعدّون لانقلاب أيضاً. زفر بغيظ مقاطعاً:

«هذا ما ينقصنا».

بهت الضابط وأمسك عن الكلام، فحثه العقيد محبطاً:

«ما بهم؟!».

ورفع الضابط عريضة آنية، دبجها شفهياً وبإجماع كامل:

«إن العسكر الذين يقع عليهم عبء الحروب وويلاتها؛ من حفر الخنادق والنوم في العراء والحرمان من المبيت، إلى القتال القريب بالسلاح الأبيض والتعرض لقصف المدافع الثقيلة والخفيفة وقنابل الطائرات القاذفة والمقاتلة، دونما حماية أو وقاية، هم أول من

يستشهد أو يؤسر، وآخر من يكافأ، هذا إذا تذكرنا أن نكافئهم، إنهم جسم الجيش وقاعدته العريضة، المغبونة والمجهولة، والدليل هو أن الجندي المجهول كان دائماً وبلا استثناء من صفوفهم وحصتهم. هل سمعت بضابط مجهول؟!».

سؤال بقي معلقاً للحظات، ريثما أردفه الضابط بقول مأثور، لعله لنابليون، وبما معناه، أن الجيوش تمشي على بطونها!! لم يستطع العقيد الربط بين الانقلابات والمشي والبطون، فضلاً عن الجندي المجهول والضابط المعلوم، غير أن القول المأثور، سينجلي مغزاه ومرماه، ملخصاً بخاتمة مقتضبة، أعقبت مقدمة مستفيضة.

«إن المذكرة المرفوعة في الشهر الماضي بخصوص تحسين طعام العسكر، قد أهملت في القيادة، كما المذكرات السابقة».

«مستحيل.» هبَّ العقيد غير مصدق «لقد وقَّعتُ على قوائم الإطعام الجديدة منذ أسبوعين، بيدي هذه.» ورفع يده هذه عالياً.

«نعم» ردد الضابط بآلية «حُسِّنَت قوائم الإطعام، أما الطعام فبقي على حاله».

«وما حاله؟!».

«كمية قليلة ورديئة».

وعدهم العقيد بتحسين الطعام، اليوم، دون إمهال، أو إهمال.

أبلغه معاونه، في بدء الدوام الرسمي، أن اللواء يطلب حضوره إلى مكتبه فوراً لأمر ضروري وعاجل. قال العقيد: اختلق عذراً، وألغ

المقابلة، أو أجّلها إلى أجل غير معلوم. اختلق المعاون عذراً، ولم يتمكن من إلغاء المقابلة إلى أجل غير معلوم أو معلوم. وحتى الظهر لم يفتر اللواء عن الإلحاح على حضور العقيد الفوري، والمعاون يستنفد العذر تلو العذر. بينما كان العقيد غاطساً في تلقي الاتصالات من الضباط القادة، الذين أبلوا بلاء حسناً: الضباط المناوبون احتجزوا في قطعاتهم، ضباط المبيت اعتقلوا من السيارات والباصات، الضباط الخطرون تحت الإقامة الجبرية، الضباط المنقولون سُيّروا إلى قطعاتهم الجديدة، والذين مانعوا سيّروا إلى سجن المزة العسكري، أما من لاذوا بالفرار فقد صدرت بطاقات بحث عنهم.

في الوقت نفسه، عقد العقيد عدة اجتماعات مع ضباط الشؤون الإدارية ومتعهدي تموين الجيش، أوسعهم شتائم وهددهم بعقوبات عسكرية ميدانية. إزاء ضيق الوقت، قبل صاغراً، السماح لهم باستدراك نقص الأرزاق من أسواق الهال والعتيق والبزورية، على نفقة الجيش.

حينما أعلن المعاون أن اللواء بات مرابطاً أمام باب مكتبه، كان يتلقى أخبار الإجراءات الأخيرة: الضباط المستسلمون ومعهم الذين قبضت عليهم الشرطة العسكرية، صدرت بطاقات بكَفٍّ البحث عنهم، القلة المتبقية الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة؛ هائمون على وجوههم بلا حول ولا قوة، القطع المنقولة تمركزت في مواقعها الجديدة. وأصبح الوضع في استقرار وأمان كاملين. عندئذٍ، سمح لقائد الجيش العابس، الذي أبى التزحزح عن بابه، بالدخول. لم يلتفت إليه، كان يتابع على الهاتف بعض اللمسات النهائية.

فاض الغضب باللواء وكاد أن يتفجر من مرأى العقيد مشغولاً عنه بالتهاتف مع ضباط الأرز والبرغل والعدس، حريصاً على توافه الكميات، مشرفاً على حسن توزيعها، مدققاً محتويات وجبة الغداء وما سيقدم لكل جندي ومجند أسوة بأي ضابط متطوع مهما علت رتبته: كمية مضاعفة من اللحم والأرز المفلفل بالسمن العربي مع تفاحتين وحز بطيخ إضافي وقطعة مبرومة، ولا تنسوا قطعتي البقلاوة. آخذاً على عاتقه مهام رقباء الجيش وعرفائه!!

عندما فرغ له، كان اللواء قد فرغ له تماماً. أخذ بتشفٍّ يخرج من جعبته الانقلاب تلو الانقلاب، ويرشقها في وجه العقيد، خلال دقائق كان قد أحاطه، ومن كل صوب بالدبابات والمدرعات، موجهة سبطاناتها إلى الأركان.

«فيما أنت لاه عنها!! لم تنس حتى قطعتي البقلاوة».

أصغى العقيد إليه ساهماً، أفكاره منشغلة بوجبة العشاء، لكن وبما أن اللواء ذكر قطعتي البقلاوة دون إخفاء شماتته، اضطر العقيد إلى لفت نظره إلى أن الجيوش تمشي على بطونها، بحيث بدا للواء أن العقيد ما زال سادراً في غفلته، مُسَهّلاً دون أن يدري احتلال العاصمة ببطون ممتلئة بوجبة مضاعفة.

استطرد اللواء، مشفقاً على العقيد، منبهاً بأسى إلى الانقلابات:

«لن يكون غيرك طعماً لها».

مؤكداً، إزاء ابتسامة العقيد الجوفاء، ما يعنيه بشكل لا يدع مجالاً للتنبؤ بعكسه:

«إنهم يطلبون رأسك».

وبدلاً من أن تشكل الصدمة التي أعدها له الليلة الماضية، ردة فعل مذعورة أو اعترافاً بالجميل، تكشفت ابتسامة العقيد الجوفاء عن ابتسامة صفراء، لم يُقَدر اللواء مدى لؤمها إلا عندما طرق العقيد موضوع الانقلابات نفسها باستخفاف مريع، على أنها أمر أصبح في حكم الماضي، أما الحاضر!! وأطلعه على الأوامر الصادرة قبل الصباح، والمنفذة خلال الصباح، والمنتهية تقريباً مع ذيولها عند الظهر. وهي الآن، الانقلابات، مجرد هباء.

احتاج اللواء إلى رباطة جأش مؤلمة وحكيمة، ليس كي يفهم أنه جاء بعد فوات الأوان، محذراً من انقلابات لفظت أنفاسها، وإنما ليطوِّع طموحاته الخجولة على الانقلاب الذي جرى في داخله عنوة وقسراً، بدلاً من إقالة رئيس الأركان من منصبه، أو الشفقة على الإطاحة به، بات عليه إزجاء التهنئة له على إنقاذه البلد من هذا المرض الوبيل؛ ويشيد أيضاً، بكل ما يكرهه في شخص العقيد، قوة الشكيمة والحنكة وروح المبادهة الجريئة، وهي لا تعدو سوى الخبث الباطني الذي يحوك المؤامرات والمؤامرات المضادة، والانقلابات والانقلابات المعاكسة. اختار كلمات تهنئته بعناية واتزان:

«لقد قمتَ بواجبك».

لم يسمع العقيد مديحه، رن جرس الهاتف، انكب على السماعة مصغياً، ملامحه تتقلص، عيناه تجحظان، شيء ما غير متوقع أفشل خططه، وكأن هناك انقلاباً فلت منه. من خلال السكون المخيم، والمباغتة التي عقدت لسان العقيد، التقط اللواء من سماعة الهاتف

صوتاً يعيد الكلام متذمراً:

«نعم، الكمية كبيرة، لكن النوعية سيئة جداً».

لدهشته، خرج العقيد عن طوره مزمجراً ككلب جريح، مفلتاً عصبيته: لم تحبطه الانقلابات قدر ما أحبطه ذلك التحسين للطعام، المستعصي دائماً على التحسين.

فرصة جاد بها الهاتف، انتهزها اللواء، وأعفى قريحته من الاسترسال في مديح متكلف لا يستحقه العقيد. استعاد ثقته وانتقاداته الجمة، وأنحى باللوم على ضباط الأركان:

«لا تتحسن نوعية الطعام من تلقائها، أو من وراء المكاتب، أو بواسطة الهاتف، بل بالقيام بجولات تفتيشية على القطعات، جولات مفاجئة ودورية، ليس المهم إصدار الأوامر، المهم مراقبة سلامة تنفيذها».

وافقه العقيد، وفي دخيلته أضمر له، أهذا الرجل يتربع على قمة الجيش؟! إنه رجل زائد.

10

ساندرز ــــ / كَتَبَ بيردي:

(لا يفتأ الله يعود بي إلى هذه البقعة المقدسة من الدنيا، أورشليم القدس مركز الأرض ومبعث النور)

في فلسطين، سيتحزر مراد الله طويلاً ويتنبأ بأسلوب رؤيوي مجسم وقاطع:

(في هذا الشطر من العالم، سيحدث شيء عظيم)

يعلن لنفسه ويُبلغ شارلوت:

(الرب ادخرني له، الرب سيقودني إليه، لأرى وعده يتحقق)

يتطلع إليه بإيمان وشغف لا حدود لهما:

(لا أريد أن أكون شاهداً عليه، ولا أطمح أن أكون جديراً به، أتمنى أن أكون جزءاً منه).

استيقظ بيردي متأخراً جداً على الصدى الذي خلفته حرب عالمية ثانية، اكتوى البشر بنارها ست سنوات، إبانها؛ كان غائباً عن خرابها وقتلاها في هياكل الكنائس وفضاء الأديرة. استيقظ، مستعيداً لياقته التكريزية، على نحو هجومي، في رسائله الآتية من تل أبيب وحيفا ويافا، وكأنه يبشر بحرب عالمية ثالثة، تأتي على هذا الشطر من العالم تدمره وتحييه، بحدث جلل، يحمل في طياتـه وعـود العصر السعيد.

يشهد، على الشاطئ، بشائره رؤي العين، في السفن والمراكب والزوارق، حاملة اللاجئين غير الشرعيين، عائدين إلى أرض صهيون، من أوروبا والبلدان المجاورة، بأعداد كبيرة، بلا تأشيرة دخول أو جواز سفر، من غير استئذان الإنكليز أو العرب، خارقين الحصار البحري البريطاني؛ تقترب سفينة المهاجرين من مياه فلسطين الإقليمية، فتندفع المدمرات البريطانية صوبها، تنذرها بالعودة من حيث أتت، السفينة لا تتراجع، والمهاجرون وقد لاحت اليابسة، يابسة ليست رمالاً وأصدافاً وحصى، وإنما أرض الميعاد المنشودة، يقفز بعضهم إلى البحر، يسبحون إلى الشاطئ، لا يردعهم تهديد ولا يصدهم وعيد عن هدفهم، غير عابئين بنيران الرشاشات، تحاصر القوات البحرية الإنكليزية السفينة وتسوقها إلى جزيرة قبرص، تحتجز ركابها في معسكرات بنيت خصيصاً لهم بعد أن فاض معسكر عتليت في فلسطين بالمقبوض عليهم من المهاجرين.

على طول الشاطئ، لا يكاد أسبوع يمر دونما إنزال سري أو

أكثر، وغالباً ما تنجح سفينة أو قارب في الهرب من الدوريات البحرية والرسو على ضفة، ينزل ركابه تحت غطاء الليل، ليختفوا في المستوطنات اليهودية القريبة. بالإضافة إلى اليهود القادمين من العراق ولبنان وسورية، يتسللون عبر الحدود، يتجنبون المخافر ودوريات الجيش التي تجوب هضاب الجليل، يجتازون حدود فلسطين الشمالية، ويشقون طريقهم إلى مستوطنة كفار جيلادي، أو من أقصى الجنوب إلى مشمار هايردن، أو ينطلقون من الساحل اللبناني بواسطة زوارق الصيد إلى نهاريا أو شوفيفي زيون على ساحل الجليل الغربي.

على أديم زرقة السماء، وصفحات الأرض الخصبة، والأثير المبهر، المباركة بمجد الخالق، نقش ميثاق الله، المعقود مع الشعب المختار، الله يعيدهم إلى فلسطين من الشتات، يتجمعون فيها تمهيداً لتنصيرهم، فقيام إسرائيل وولادة الدولة اليهودية، وتشييد هيكل سليمان فوق أنقاض المسجد الأقصى، فأرمجدون الرهيبة حيث سيعلو الدم أعنة الخيل، وظهور المسيح المنتظر، المسيح يقيم مملكة الله على الأرض، ويحكم العالم من أورشليم، وتبدأ الألف عام السعيدة، إلى نهاية الزمان، إلى يوم الدينونة.

(الرب، يُهيء لوعده. الرب، سيبرُّ بوعده).

ألم يُسَخّر لليهود حرباً كبرى، ومعسكرات اعتقال، وهتلر، ومحرقة. وأنعم عليهم بالكراهية بلا حساب، من كراهية الألمان والبولونيين والنمساويين، إلى كراهية الهنغار والروس والرومانيين واليونان والطليان.. باختصار، أوروبا كلها، التي عمدت بعد أن نظفت يديها منهم، إلى إنقاذهم من النازيين، وأودعتهم في معسكراتها الباردة، المعتمة والقذرة، موفرة لهم الطعام والأمان.

كتبَ إلى شارلوت مبهوراً بمكيدة الرب: المنظمات الخيرية الصهيونية الأميركية تتبارى راصدة الأموال لنقل اليهود إلى فلسطين، دون أن تدري أوروبا الظالمة، أن الله يسَّر لليهود الظلم والظالمين كي يرحلوا عنها. انظري، برهان الرب؛ العالم المنتصر من الشيوعيين المعادين للإمبريالية، والإمبرياليين المعادين للشيوعية، إلى الديموقراطيات الجمهورية والملكية والديكتاتوريات الجمهورية والملكية، بالإضافة إلى الكاثوليك المحافظين والمتطرفين، والأرثوذكس المتزمتين، والبروتستانت المصلحين، ومعهم الحاقدون على اليهود والمتنفسون الصعداء منهم، اتفقت كلمتهم كلهم دونما استثناء، على مساعدة اليهود بالتخلص منهم، حتى هؤلاء الذين يشعرون بالذنب والذين لا يشعرون بالذنب، لم يبخلوا عليهم وبأريحية، بالمال والسلاح والسفن، أصبح تسهيل أعمال شبكات الترحيل قضايا حياتهم الكبرى، أسرفوا عليهم بالعطف والتعاطف والمعلومات السرية، ومعونات بلا حساب، ومن أجلهم خرقوا الأنظمة والقوانين والتشريعات.

شارلوت، ما دمنا جئنا على ذكر العالم، فلنستثن منه، المسلمين والمسيحيين العرب، بلا أدنى شك، حكم هؤلاء على أنفسهم بالشر والزوال والجحيم، العرب معارضو الله، حلفاء الشيطان. هذا، دون أن يدري هؤلاء، أو هؤلاء، أنهم، إنما ينفذون إرادة الرب!!

(الرب يقود التاريخ نحو نهايته، نهاية العالم الحاضر، إلى يوم هو يوم العالم أجمع).

يلتقيهم في المستوطنات، ينتظرون ربما مثله، ويأملون الكثير من المسيح المنتظر. لكن ما الذي يؤمل منهم؟! آثار القهر والتعذيب

والمجاعة الطويلة ظاهرة على أجسادهم المهشمة، ذكريات الاحتضار تنزف من حدقاتهم الغائرة، لم يطأوا أرض الميعاد إلا بعد أن خضعوا للابتزاز، كلفهم شراء ما تبقى من حياتهم جناية عمرهم المخبأة في حرز حريز، دفعوه لعملاء الترحيل لمجرد أنهم بقايا بشر لا فائدة منهم. هاربون من دعايات الموت، وفي دواخلهم حنين إلى الموت هناك، حيث كانت حياتهم المفتقدة؛ طفولتهم، شبابهم، غرامهم الأول.. كلها تحولت إلى دموع في مآقيهم، عادوا بعد نجاتهم من معسكرات الإبادة إلى بيوتهم في وارسو أو ميونيخ أو فيينا أو.. ولم يعثروا على أثر لعائلاتهم وأقاربهم وأصدقائهم، وجدوا غاصبين لأملاكهم، بادروهم بطردهم، منهم من لم يستطع مواجهة الحياة فاختار الموت الذي تخطاه في معسكرات هتلر، والذين رجعوا إلى زملائهم في معسكرات الترحيل، عادوا معطوبين في أموالهم وأرواحهم، أحقاد مريرة تتآكلهم، يصبّونها على أوروبا التي تخلت عنهم وأسلمتهم لمصيرهم الأسود، كانوا ينظرون إلى ديموقراطياتها وإشتراكياتها باحتقار ممزوج بكراهية مطبقة، نابعة من المهانة الشنيعة الطويلة، وإذا كانت تمد لهم يد العون، فهم لا يدينون بشيء لشعوبها التي تكفر عن جرائمها.

حقدهم لن يطول أوروبا ولن يضيرها، سينفّسون عن كراهيتهم، ويطلقونها في وجوه الفلاحين العرب، منتحلي أرض الميعاد، الذين لم يمنحوا فلسطين سوى الجهل والفقر والانحطاط.

أما الشبان الطلائعيون البولونيون من اليافعين اليهود، فستتهافت على ترحيلهم المنظمات الصهيونية، إنهم الطلائع المجيدة التي ستخوض معركة أرمجدون الرهيبة، بعزيمة توراتية لا تنثني. هؤلاء:

سيدفعون العالم نحو نهايته المحتومة، ويكتبون بالدم والإيمان، يوم نصر إسرائيل، ونهاية التاريخ.

كان بيردي متفائلاً ومتلهفاً، في تلك الأيام التقى ثانية بصديقه الخوري بطرس البحصاوي./

أوستن ــــ / زودني ساندرز ببعض المعلومات دون أن يقصد، ولم يخف عني شكوكه ببيردي؛ إبان المفاوضات الجارية بين السلطات البريطانية والطرفين العربي واليهودي لوقف إطلاق النار في القدس، وقع حادث اعتداء على بيردي، لم يكن سوى محاولة قتل!! ولولا أن صادفه موظف من القنصلية الأميركية لقضى نحبه على خط التماس.

طلبتُ من سفارتنا في إسرائيل معلومات تفصيلية عن محاولة قتل بيردي، حددتُ وقوعها، في الأشهر القليلة قبل الانسحاب البريطاني من فلسطين، مع إشارة إلى أن موظفاً من قنصليتنا في القدس أسهم بإخلائه إلى المستشفى.

أجابت السفارة: تَابعَ روبنشتاين قضية بيردي بشكل دقيق وواسع. لا نستطيع مساعدتك. ملف بيردي يخص روبنشتاين.

وكان ردي: روبنشتاين لم يعد في المنطقة. الاتصال به متعذر.

أجابت السفارة: أزعجنا روبنشتاين بما فيه الكفاية. حاول معه. الأمر لا يعنينا.

شرحتُ لهم، ببرقيات عاجلة ومطولة، أن الاتصال بروبنشتاين ليس

متعذراً بل مستحيل، مركز إقامته في برلين، لكنه بالفعل بلا عنوان، يتنقل في أوروبا متخفياً، يقود عمليات سرية ضد الشيوعيين في شرق أوربا.

استجابت السفارة أخيراً: موظف قنصليتنا في القدس نقل بيردي الجريح إلى مستشفى هداسا في الجانب اليهودي. لم تتمكن الشرطة البريطانية من التحقيق معه. كان في غيبوبة وتحت العلاج. شهود عيان قالوا بأن خورياً عربياً اعتدى عليه والتجأ إلى كنيسته. بعد صحوته أنكر بيردي حادثة اعتداء الخوري العربي عليه. ورفضت الكنيسة العربية تسليم الخوري للشرطة. كذلك تدخل رجال دين مسيحيون. قيدت الحادثة ضد مجهول حرصاً على سمعة الكنائس الشرقية إزاء اليهود والمسلمين.

ما الذي أضافته السفارة إلى معلوماتي عن بيردي سوى خوري عربي ومزيد من الغموض؟! كان لا مناص من روبنشتاين.

بعد أكثر من محاولة، عَلِقتُ بروبنشتاين في بروكسل، ألححت عليه، فأعلمني بأنه عندما ترك المنطقة كان بيردي يعمل تحت علم الأمم المتحدة في وكالة غوث اللاجئين، الأونروا، بالضفة الغربية، الجزء الفلسطيني الذي ضمه الملك عبد الله إلى مملكته شرق الأردن. صعقني الخبر، اكتفى روبنشتاين بهذا القدر، لم يكن راغباً في الخوض فيه، زعم أن الهاتف ليس وسيلة مأمونة لإيصال معلومات سرية لن تفيدني. لم أنخدع بتمنعه، كان روبنشتاين المتخفي في عواصم أوروبا ومدنها، قد استأثر بما يعرفه، وحجبه عني أنا المسؤول عن المنطقة التي ينشط فيها بيردي!! بعد جدال طويل وتلميح برفع أمر الملف إلى الوكالة، قبل روبنشتاين بالنزول عن معلوماته، أو عن جزء منها، ووعد

بإرسال تقرير مفصل عن بيردي، وبأقصى سرعة. /

ساندرز ـــ / في أورشليم القدس، سيشهد بيردي العودة المظفرة من أرمجدون مصغرة، عن تلك التي يُعّد الله لها في السماء، عقب الهجوم اليهودي البطولي الجريء على قرية عربية واقعة على بعد أقل من خمسة كيلومترات من مقر حكومة الانتداب البريطاني في القدس، قرية دير ياسين، مأوى الإرهابيين العرب ومستودع أسلحتهم وذخائرهم. سيشهد ذلك الموكب الرهيب القادم من هناك:

موكب نصر مؤزر بحراسة رجال منظمتي إيتسل وليحي، طاف وسط أرجاء الأحياء اليهودية؛ موكب من ثلاث شاحنات حشرت فيها الغنائم البشرية، مائة وخمسون أسيراً، من الرجال والشيوخ والنساء والأطفال العرب، تتهادى في جادة الملك جورج، يرافقها المقاتلون الشبان اليهود البولونيون الطلائعيون، بسواعدهم المشدودة ووجوههم الملوحة بالشمس والوعيد، كل منهم داوود نموذجي، مدججين بالبنادق والرشاشات والقنابل اليدوية، قبضاتهم تصلبت بقوة على سبطانات وأخامص أسلحتهم، ولدى أي بادرة سيضغطون على الزناد ويملأون الفضاء بالنار والجثث؛ نظراتهم حديدية، تلمع بشرر الرب؛ قاماتهم فارعة وجباههم عالية وعضلاتهم مفتولة، مكتوية بشظف اكتسبته من معسكرات الاعتقال وفيافي التشرد، متمرسون بخبرة القتال حتى آخر رمق، وخبرة البقاء على قيد الحياة في الظروف المستحيلة. إلى جوارهم، شابات جميلات ومسلّحات، وجوههن مضيئة، يتسمن بعذوبة ملائكية، لقد صدعن بأوامر الرب. جماهير اليهود على الأرصفة والشرفات، يلوحون بقبضاتهم عالياً، يُنذرون الأسرى

بنقمة الله العاجلة والقريبة، يصفقون ويصفرون ويهللون للمقاتلين: بوركتم، بوركت سواعدكم، بوركت أسلحتكم.

يا جنود الرب، إلى أرمجدون الكبرى. /

أوستن ـــ / لم يكن تقرير روبنشتاين التفصيلي سوى أنه عزم على إغلاقه ثانية، وعلى هذا النحو:

قبل نشوب الحرب العربية الإسرائيلية، قام بيردي بنشاط واسع شمل لبنان وسورية والعراق مشجعاً اليهود العرب على الهجرة إلى فلسطين. طلبت السفارات الأميركية في المنطقة تحذير بيردي من الترويج للهجرة لئلا يحرج موقفها مع الحكومات العربية، وعززت الإدارة الأميركية تحذيرها بشدة، وأكثر من مرة، خشية اعتقاد السلطات العربية أن بيردي مدسوس من جهاز مخابراتها (في ذلك الوقت كانت الإدارة متحيزة لليهود سراً، وغير متحيزة علناً) لم نكن في حاجة إلى عملاء طيبين ومفضوحين من أمثال بيردي. لم يغفل روبنشتاين تحذير بيردي (الأغلب، طلب منه الاحتراس وبسط عليه حمايته) وأنقذه مرة من العراقيين.

في تلك الآونة، تجلت دعوة بيردي الدينية وجاهر بها، بالإصرار على هجرة اليهود إلى أرض إسرائيل تمهيداً لاعتناقهم المسيحية. لم يُنظر إليه إلا على أنه واحد من المهووسين بالمسيحية الصهيونية، الموسوسين بالتنبؤات التوراتية، لم تشفع له نداءاته إلى ملكوت الله، إلا على أنها تخدم القضية الصهيونية. ما الضرر؟! لن تضيق به أرض إسرائيل، ستضيق به أرض العرب هائلة الاتساع، في حين ستلح الوكالة على حصر دعواته التبشيرية

بالمسيحية الإنجيلية وتحت إشراف إرساليته، وفي حال خالف التعليمات، فينبغي تسفيره فوراً. كانت الإرساليات قد نفد صبرها منه، بات بيردي يشكل تهديداً لمهماتها الروحية وضياع جهود سنوات طويلة؛ خافت أن تعمد الحكومات العربية إلى إنهاء أعمالها.

راقب روبنشتاين بيردي في بيروت، ثم من دمشق إلى عمان، وأضاعه في القدس (غض النظر عن نشاط بيردي المكشوف، كان باستطاعته القبض عليه وإيقافه في بيروت أو عمان) حينما سمع بتجدد نشاطاته، كانت الإرساليات قد أعلنت عدم علاقتها به، وعثر عليه أخيراً طريحاً في مستشفى هداسا، سأل القنصل التدخل لدى اليهود لإطلاقه، وطلب من البريطانيين طرده إلى بيروت، اقتراحاته لم تؤت مفعولها، كان بيردي قد خرج من المستشفى (لم يقترح إبعاده إلى بيروت إلا بعد أن علم بخروجه من المستشفى) وأضاعه ثانية في القدس. تزعزعت ثقته ببيردي لأنه لم يعترف بالرجل الذي اعتدى عليه، في حين شهد عدة شهود بأنه خوري عربي يدعى بطرس البحصاوي!!

لماذا تستر بيردي على الخوري العربي بطرس البحصاوي؟!/

ساندرز ــــ / التقى بيردي بالخوري بطرس البحصاوي بين حاجزين، فوهات البنادق المسلطة من خلف متراس عربي، والنيران المنصبّة من أعالي البنايات اليهودية. فيما، على مرمى البصر، المدرعات البريطانية تجوب الشوارع في الأحياء العربية، ومن فتحاتها وقممها تبرز مدافع برن. احتميا بجدار على مقربة من جمعية الشبان المسيحيين، كان تبادل إطلاق النار متواصلاً

منذ الصباح بين باب الخليل العربي وشارع مونتفيوري اليهودي، يخالطه بين الحين والآخر أصوات قذائف مدافع الهاون.

طوَّحَ بيردي بيده عالياً إلى دخان بعيد، قاتم وهائل. ثم صوبها نحو دخلات وأزقة فارغة يصفر فيها الرصاص، وانتقل بيده مشيراً إلى حطام عربة، أنقاض بيت، وتوقفت عند جثة رجل ميت.

«إرادة الرب تتحقق.»

لم يشاركه الخوري البحصاوي رؤيته ولا الرب نفسه، كان عابساً، ملامحه متكززة بتجهم كالح، لم يبد عليه، في صمته المشوب بالاحتقان، أنه كان يعير أدنى إجلال، أو اعتبار، لوعود الرب البازغة من قصف المدافع ودوي انفجار الألغام ورشقات الرشاشات. بيردي لم ينتبه، كان مستبشراً، ولا يتذكر كيف اندفع وبتشدد إيماني مفاجئ، ومناكف، يشيد بجنود الرب، أبطال معركة دير ياسين.. معركة كان الله طرفاً فيها.

«قتلوا الشيوخ والنساء والأطفال.» زمجر البحصاوي «الله لا يغدر بأبنائه».

كان في تقطع صوته قَذْرٌ سقيم من الألم الذبيح، لا يخلو من جهل فادح، وتجاهل رؤيوي؛ ببساطة، لا يدرك أن القتلى سواء كانوا ضحايا أبرياء أم لا، ما هم إلا وقود للزمن الذي يسبق الزمن الألفي السعيد، الزمن الذي يسبق انبلاج الأبد.

«الرب يريدها.» هتف بيردي.

مستعيداً الصيحة الرهيبة للحروب الصليبية، معيداً إلى ذهن

البحصاوي وذاكرته، الأساقفة والملوك والنبلاء، الفرسان وتابعيهم، التجار والحرفيين، الصناع والفقراء، الرعاع والمتسولين.. والرهبان؛ مستعيداً المشهد، كأنهما في داخله، في ساحة كليرمونت، والبابا أوربان الثاني يستعجل النبوءة قبل أن يحين موعدها بعدة قرون.

«الله أوصانا ألا نقتل النفس الحية، الإنسان الذي مثلنا.» قال البحصاوي حابساً أنفاسه وضابطاً أعصابه «أيها الأخ بيردي، أنت مأخوذ بترنيمة شيطانية».

قطعاً للجهل والجدل، استعان بيردي بسفر يشوع «يُقتل بحد السيف، كل من في البلدة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، ويحرق بالنار كل ما فيه!».

أكمل البحصاوي من السفر نفسه والإصحاح نفسه «ما عدا الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد» وأضاف من عنده ساخراً بقسوة «واستثنى اليهود أيضاً البقر والغنم والحمير».

أومأ البحصاوي بلؤم وسخرية شنيعة إلى النهب البشع الذي قام به جنود الرب، إيماءة لم تكن في محلها ولم يلتفت بيردي إليها، كان يفكر: المسكين البحصاوي مشغول بالتوافه، أين هو من هذه الأحداث العظيمة؟! أحداث ما زالت في بدايتها، ألا يعرف بأن اليهود سيطهّرون أرض إسرائيل من العرب، قرية قرية، ولن يتركوا لهم أثراً، ولو ضئيلاً، في القدس؟! المسيح قادم، القتل والذبح مشيئة الله.

بيردي الذي فكر، وأعلن أفكاره بطلاقة، بوغت بيد البحصاوي ترتفع عالياً، وكفه العريضة تهوي ثقيلة على وجهه بقوة، وتخلّفه جاحظ العينين، منصرعاً ومذهولاً، دونما فكرة واحدة على

الإطلاق، ملطوشاً دونما خوف، وغير مصدق!! البحصاوي منفعل جداً، يرغي ويزبد، حاقد كلية، هاجم عليه، يبغي استلال روحه من فمه أو عينيه، يقبض على شعره بكلتا يديه، يشده نحوه بعنف، يصرخ ممروراً، ويضرب له رأسه بالجدار المحتميين خلفه، دون توقف.

لن يصحو من ذهوله إلّا عندما رشم الدم قفطان البحصاوي الأسود، أدرك أن الدم دمه، وتذكر أن الخوري الذي ما يزال يضرب له رأسه بالجدار بقوة ودون كلل، هو خوري عربي!! وأنه ارتكب حماقة بنسيان أصله البدوي الهمجي، حماقة بات، بعد كل هذا الدم والحقد، من المستحيل تداركها أو إصلاحها. الأرض تنسحب من تحته، السماء تنقضّ عليه؛ و ـ هذا ما وعاه بلحظة ـ انقلب في قاع أسود مخضب بالأحمر القاني.

أنكر بيردي الاعتراف بأن الذي اعتدى عليه وأحدث في رأسه ارتجاجاً في الدماغ وجرحاً غائراً مدروزاً بعشرين قطبة هو الخوري بطرس البحصاوي.

«أعرفه، البحصاوي، إنه من رجال الله، أما الذي ضربني فلم أره في حياتي».

ولن يعترف. لم يكن يكذب، لم ير البحصاوي في حياته بهذه الهيئة من قبل، كان شخصاً آخر. /

أوستن ـــ / يَفصِلُ روبنشتاين بين مرحلتين، الأولى: عمل فيها بيردي لصالح الإسرائيليين من غير تكليف منهم أو صلة بهم. الثانية: انفكاك ارتباطه بالتنبؤات والرؤى، وارتباطه بالخوري

البحصاوي، ارتباطاً لم يكن معزولاً عن الحرب الدائرة بين اليهود والعرب، تمكن فيه الخوري البحصاوي من تجنيد بيردي للعمل مع الأردنيين، وسواء كان خلافهما مزعوماً أو أكبر من حجمه، فقد سوّي في المستشفى.

يوحي روبنشتاين في تقريره، أن الخلاف كان بين عميلين؛ ومع قليل من الإفصاح، إذا كان بيردي قد حيره، فلأنه جاسوس مزدوج، من غير أن يخفى أمره على الإسرائيليين والأردنيين، والأرجح أنه كان ينقل الرسائل بينهما (بين الملك عبد الله ورئيس الحكومة الإسرائيلية بن غوريون) لم يتعرضوا لبيردي في تلك الفترة لأنه كان يلعب دوراً معتبراً وجيداً في تخفيف التوتر بين الطرفين المتنازعين، وبقبول منهما، من غير إثارة شكوكهما، بسبب تقواه وإن كانت متطرفة. ويزعم روبنشتاين، أن بيردي لم يعمل لنا، ولم يعن شيئاً لنا نحن الأميركيين (أي للوكالة) لقد حشر نفسه في صراع شكّل فيه الجزء المسالم والمشوش، الواهم والساذج (بمعنى، تركه لهما) ربما أفلح في ترتيب قناة بينهما مبكرة ومبتكرة؛ والأهم، مستمرة.

روبنشتاين لم يقنعني، رغم أنه استغل مهاراته المخابراتية، بتشخيص بيردي معقداً، ممسوساً بمجد الله، أو بشيء له علاقة بالله والصهيونية معاً، مضافاً إليهما، براعة مرسال دبلوماسي محنك، وفي الوقت نفسه جاسوس من طراز رفيع.

إذا كان!! فلحساب من عمل فعلاً؟!

تشخيصٌ بالغ روبنشتاين بتصميمه وتركيبه على هواه. بيردي لم يكن جاسوساً مزدوجاً، بيردي خدع العرب وأقنعهم (بتخطيط من

روبنشتاين) بأنه عميل للأميركان وعلى استعداد للعمل لهم، بينما كان في الحقيقة عميلاً للموساد. لذلك، لم تكن وظيفة بيردي في الأونروا إلا تغطية على عمل لم يعد التبشير كافياً لتغطيته بعد طرده من إرساليته؛ وما كان لتوظيفه أن يتم لولا توصية من روبنشتاين (الصهيوني) وتدخل من السفير الأميركي (المتعاطف مع الصهيونية) وتزكية من جمعيات إنسانية أميركية (صهيونية) بترشيحه للعمل في الأونروا.

بيردي يقدم خدماته للدولة اليهودية، وروبنشتاين يقدم خدماته أيضاً للدولة اليهودية، بحماية بيردي ـ إلى الآن ـ بتضليلي، حتى وهو في أوروبا يطارد ـ كما المفترض ـ عملاء الشيوعية.

وستؤكد حصيلة تحرياتي اللاحقة، حصيلة توقعاتي السابقة. وافاني رجالنا في عمان بالتالي: استقال بيردي من الأونروا. لا أثر له في القدس العربية، ولا في الأردن. حركة النقل الجوي والبري لم تسجل مغادرته إلى العراق أو سورية أو لبنان!!

أنا أعرف، وروبنشتاين حينما سيسمع الخبر (إن لم يكن قد سمعه قبلي) سوف يعرف، أن بيردي اجتاز الحدود (ربما بتدبيره أو مشاركته) متسللاً إلى إسرائيل. /

ساندرز ـــ / لمَّا أنكر، أو كذب، أو لم يكذب، كان جرح رأسه الغائر قد خلّف جرحاً مفتوحاً في روحه، أوقعه بين الله المنتقم الجبار، المحارب ناشر الرعب والدمار؛ والله الرحوم الشفوق العطوف، غافر الذنوب والخطايا. لِمَ اتخذ جانب الأول؟!! تساءل في غمرة الأصوات المتضائلة بالنبوءات

والمتخافتة بالكراهية؛ وتلاشت كلها بظهور البحصاوي، وكأنه عاد ليجهز عليه؛ لم يكن يجهل أن الخوارنة، حتى في أيام الهدنة، يحملون المسدسات تحت أردية الكهنوت، ربما بعد كلمتين وتقطيبة، سيفرغ مشط مسدسه في رأسه. أم أنه جاء ليعتذر؟! أو أنه، وقد لاح كسير النظر والخواطر والفؤاد، جاء يطلب الغفران!!

لا هذا ولا ذاك، رغم؛ كم بدا مفجوعاً ومتفجعاً!! جاء يروي لبيردي المعصوب رأسه بالشاش، مأساته، دير ياسين:

قبل طلوع الفجر، في الساعة الخامسة، انقض مقاتلو اتسل وليحي على قرية دير ياسين، فتحوا نيرانهم وأعملوا التقتيل في سكانها، نجا من هرب منهم، ومن بقي لينقذ أباً أو أماً أو أخاً أو ابناً أو جداً أو جدة، فقد حاصرته النيران وحصدته القنابل في مجزرة استمرت دون هوادة إلى ما بعد الظهر. تبعثرت الأجساد أشلاء في الحقول، على عتبات البيوت، مذبوحين وممعوسين ومبقوري البطون.

كان إرهابيو شتيرن والأرغون يطلبون من الأهالي فتح أبواب بيوتهم، يسألهم الأهالي الأمان ويحلفونهم بالوصايا العشر ألّا يقتلوهم، يحلف المقاتلون، يفتحون لهم الأبواب، فيفتحون عليهم الرشاشات، أو يذبحون أفراد العائلة أو يعدمونهم أمام بعضهم بعضاً، وإذا تمنعوا، يقتحمون المنزل أو ينسفونه دون النظر لمن في داخله؛ ينهبون المؤن والأثاث والمواشي؛ أما المقاتلات المسلحات فيسلبن الأسيرات الأساور والخواتم والنقود، وأغطية رؤوسهن المزينة بالعملات الفضية والذهبية، يفتشن ملابسهن الداخلية، ويمزقن آذانهن وهن ينتزعن أقراطهن.

بيردي الذي استرجع موقعه على الرصيف في جادة الملك جورج؛ بيردي الذي سمع ولم يتخيل، سيعود إلى، أو سيغيب في الموكب من جديد:

الشاحنات الثلاث تحمل غنائم الحرب من دير ياسين، أسرى أحياء أو بقايا أحياء؛ بمحض تعجل مرتبك أو سهو تافه؛ بعضهم، لُملموا من الشيوخ والنساء والأطفال والرجال المختبئين بين الأنقاض. موكب النصر؛ إذ يتسلسل، يختفي صوت البحصاوي، ويبقى بيردي وحيداً إزاءه، صورة صورة، مشاهد عار وشنار. ترى تحت أية أنوار، يراه، حتى يتجسد مخيفاً هكذا؟!

في مقدمة الشاحنة الأولى، صبي صغير، مذهول وخائف، رفع يديه عالياً، مستسلماً للرعب، على ملامحه تجمد الهلع، وفي حدقتيه براءة مرتاعة، يداه مشدودتان إلى السماء، لا يرفع رأسه إليها، عقد الفزع توسلاته، وجهاً لوجه مع الشر، يستنجد الله بلسان أخرس.

لماذا، هو، الآن، صبيٌ حقيقيٌ؟! بينما، لحظتئذ، وليّتَ بوجهك عنه!! لا، أمعن النظر، ليس طفلاً مصلوباً في كابوس، ولا تتناقله الألسن لاستدرار العطف والشفقة، ولم تختلقه حكاية أو موعظة.

ها هو، كما هو، كما كان، قروي صغير، ممزق الملابس، أسمر ومكلوم، ناحل ومذعور، يبكي بلا دموع. لماذا، الآن، ترى دموعه المحترقة في مآقيه؟!

أنا القس كارل بيردي أكلم نفسي:

بيردي، أيها الكذاب الأشر، أيها المشعوذ اللعين، فلتنقلع عيناك،

رأيته وتعاميت عنه، فلتكن الجحيم مأواك ومثواك، ذق أهوال عذاب لا ينتهي. بيردي، تبُصِرُ الآن، وتتبصرُ الآن!! أخزاك الله، أين كانت عيناك آنذاك؟!

رأيت جمال بطلات إتسل وليحي، وتجاهلت أنهن من فريق الإجهاز على الجرحى ذبحاً. ألم تر أنهن كن يحرسن نساء يبكين أولادهن وفقدن أزواجهن وحشرن منكوشات الشعر ومشرومات الآذان؟!

بيردي، غُصْ في هوة بلا قرار، جذبتك ابتسامات المقاتلات الملائكية العذبة!! بيردي، تَقَلَّبْ فوق جمر النار، ألم تر سكاكينهن مدلاة على خصورهن ملطخة بالدم؟! بيردي، فليلاحقك مطر النار.

أنا كارل بيردي، أنا يهوذا الخائن الملعون:

هأنذا أرى؛ الشيوخ متورمة وجوههم من الضرب بأعقاب البنادق والرفس بالأقدام، دماؤهم متيبسة على صدورهم، الحياة جفت في عيونهم. قبحني الله، أأنا الأصم أم المتصامم؟! صممت أذنيَّ عن نشيجهم الصارخ، النشيج الصامت من مائة وخمسين أسيراً، فليعاقبني الله، ويُسمعني بكائي وصريف أسناني، جعيراً، في مستنقع النار الأبدية.

جماهير اليهود على الأرصفة والشرفات، يضجون بهستيريا البغضاء، براكين أحقاد وكراهية، يبصقون على الأسرى، يشتمونهم بأوسخ الشتائم، يقذفونهم بالقاذورات والحجارة، النساء يتضاحكن بشماتة، الرجال يتبارون، يعرضون جنيهاتهم على المقاتلين «خذ عشرة جنيهات ودعني أقتل واحداً منهم» المقاتلون يمدون أكفهم ساخرين.

بيردي، لقد رأيتَ وسمعتَ، فليكن جزاؤك الهلاك الأبدي.

من لجج الهلاك الأبدي، سيسمع الفصل الختامي لمعركة دير ياسين، الفصل الذي لم يره، سيطلعه عليه البحصاوي:

اختاروا من الأسرى عشرين رجلاً، لم يعودوا بهم إلى القرية، اقتادوهم إلى محجر يقع بين قريتهم دير ياسين ومستوطنة غفعت شاؤول، أوقفوهم إلى حائط المحجر، وأطلقوا عليهم الرصاص، قتلوهم جميعاً، الأبطال، أبطال شتيرن والأرغون، أبطال معركة دير ياسين يلوحون بإشارة النصر.

أليسوا هم أنفسهم الذين تمرغوا كالبهائم في معسكرات هتلر، وذاقوا صنوف العذاب اليومي والشقاء اليومي، وكلفوا بأقذر الأعمال وأوسخها، وديست كرامتهم بالأقدام، ولوثت إنسانيتهم بالوحل؟! أليسوا أشباههم الذين ماتوا وهم يستعطفون قاتليهم؟!.

لم يتعلموا من جلاديهم سوى النذالة والخسة والجبن. لا حياة للإنسان الطيب، الطيب يموت، الحياة للنذل والخسيس والجبان، استعادوا الحياة، ولم يستعيدوا آدميتهم، وحوش ضارية، يمتثلون للشر، وينفذون الأوامر بقسوة وحقد وطيبة خاطر، مهما كانت هذه الأوامر حقيرة ومشينة.

فليعم الحزن السماء والأرض.. وكل البرايا. /

أوستن ـــ / لم أُعلم ساندرز باستنتاجاتي، نصحته بأن ينسى أمر صاحبه بيردي. لم يقتنع، ألحّ طالباً الحقيقة. قلت له بعد أن أزعجني بإلحاحه؛ الحقيقة، رجالنا متأكدون بأنه جاسوس يعمل

لدولة مجاورة، ودعمتها بتقرير روبنشتاين الأخف وطأة. رمقني ساندرز باستهزاء، وكأنني قلت شيئاً سخيفاً، أو كنت أمزح. أفهمته بأنني جاد تماماً. قال بعصبية: رجالك يكذبون. ثم ارتجف وتابع بحدة: إذا كان بيردي يعمل لحساب أحد فهو يعمل لحساب الرب. أجبته بابتسامة ممزوجة بالرثاء: أية دولة تدفع لبيردي أكثر مما يدفعه الرب أضعافاً مضاعفة. انتر بجلافة ورمقني بحقد. كان الوقت قد حان لأصفعه بنتائج تحرياتي ولا أعفيه منها: إذا كنت جاداً بالبحث عنه، فسوف تعثر عليه في إسرائيل.

استفزتني ابتسامته الحمقاء، فلم أخف شيئاً. قلت له: لمعلوماتك، كان عميلاً لدولتين ويقبض منهما معاً؛ ولمعلوماتك، بيردي محتال ومعتوه؛ ولمعلوماتك، يعلم الله أي يهودي هو الآن!! /

ساندرز ـــ / لن أصف أوستن بالغباء لمجرد أنه ارتاح لأقاويل وتفسيرات تلائم مهنته، صنف الناس من خلالها، إلى جواسيس وجواسيس محتملين، أعداء وأعداء محتملين. سأصفه بالحطة.

أوستن المنحط، لم يتلمح في بيردي سوى جاسوس على غراره، وعلى غرار من يجندهم للعمل معه.

أوستن المنحط، تباهى بسجله القذر في الوكالة، ونشره في كتاب، مشذباً لدواعي السرية وأمننا القومي الأميركي. ماذا عن سرية وأمن الدول والشعوب الأخرى؟!/

11

لاحت أكوام التراب العالية والخرائب والصخور. كنا نقترب صوب التل، موقع تمركز البعثة بسرعة ثابتة، انعطف بنا المدق الترابي عند مقلع أحجار قديم، وصعد بنا إلى مرتفع مجاور. بان الموقع مقسماً إلى أربعة مربعات كبيرة. انحدرت السيارة ببطء، المربعات الكبيرة تحتوي على مربعات أصغر، كنا على وشك الدخول في شبكة المربعات، انحرفنا إلى طرفها، حيث بناءان أرضيان وخيام منصوبة يلعب الهواء بسجفها، متوحدة ومستوحشة فوق أرض مقفرة، كانت على مد النظر شمساً وتراباً.

أمر ملازم الشرطة السائق بتخفيف السرعة، تقدمت السيارة تزحف على مهل، وتوقفت على بعد خمسين متراً من المدخل. ترجلنا، أبو سليم رئيس عمال البعثة إلى يميني، والملازم تقدم إلى الأمام قليلاً يوزع عناصره على شكل نصف دائرة مفتوحة.

كانت قافلتنا الصغيرة المؤلفة من سيارة وشاحنة قد توقفت في قرية «قرعبة» في استراحة قصيرة، سألنا مختار القرية عن الطريق إلى الموقع، نصحنا بدليل يرشدنا إليها حتى لا نضيع في المدقات الترابية، أشار علينا الاستعانة بأبي سليم رئيس عمال البعثة؛ كان أغلب عمال البعثة من القرية. تطوع أبو سليم لمرافقتنا، خلال الطريق أعلمني بأن المسيو كرو لم يأت إلى الموقع بعد ترحيل أعضاء البعثة الأجانب إلا قبل يومين، أبلغهم بتوقف العمل، دفع لهم أجورهم وصرفهم على أن يعيدهم إلى العمل حين تتوافر الاعتمادات اللازمة، احتفظ بعاملين كي يتوليا حراسة الموقع، ومنحهما إجازة لمدة ثلاثة أيام قبل مباشرة عملهما. تأكدت ظنوني، كرو أخلى الموقع من العمال صباحاً قبل قدومه مع طرواح ليلاً.

أفراد الشرطة يتقدمون ويطوقون الموقع، فيما كنا ثلاثتنا نهمُّ باجتياز خنادق الحفريات، لحق بنا شرطيان أمرهما الملازم بتفتيش الخيام. تابعنا سيرنا إلى الأبنية، اقتربنا بتؤدة، علا صوت الملازم منادياً الأستاذ طرواح. لم نسمع حركة أو يصلنا رد، بدت الأبنية مهجورة. أكد أبو سليم:

«المكان خالٍ».

دخلنا البناء الأول؛ خزائن مقفلة على أدوات المسح والرسم والتخطيط والتصوير، كان مستودعاً يحتوي أيضاً على معاول ورفوش، جالونات كاز ومازوت، عربتين يدويتين لنقل الأتربة، فراشٍ، غربال كبير، حبال، رافعتين، أكياس للتغليف..

في البناء الثاني، والأكبر، غرفة معيشة واسعة تؤدي إلى ثلاث

غرف منامة تتوزع فيها الأسرة المعدنية وتحتها صناديق فارغة. الغرفة مؤثثة على الطريقة البدوية، مساند وطراريح، بسطٌ وحصرٌ ملونة، إلى الحائط طاولتان وكراسٍ معدنية قابلة للطي. كل شيء مرتب وفي مكانه، كما تركه أبو سليم قبل يومين. قبل أن نخرج، هتف أبو سليم مستغرباً:

«حصيرة ناقصة».

أشار بيده إلى بقعة فارغة بجوار الطاولة، واستبعد سرقة حصيرة فقط!! هرع إلى المستودع، تفقد محتوياته ثانية؛ كانت كاملة، تابع مستطلعاً بين الخنادق. فيما ابتعد الملازم متوجهاً نحو عناصره، لوح الشرطيان من بعيد؛ لم يجدا ما يسترعي النظر في الخيام.

وقفتُ وحيداً، مستنداً إلى جدار بيت، لعله سور متهدم، لقد تماديت في شكوكي وغاليت في اتهاماتي، ما الذي تخيلته؟! العثور على طرواح، لماذا؟! لأصم كرو بالكذب!! ما الذي سوغته لنفسي واستسغته؟! ألم أسرف؟! خيبتي تكبر والسكون يتعاظم، كل ما حولي يسبح في سديم من قيظ وفراغ، ويحفر رموزاً على الألواح الفخارية وأنصاب القبور. ألم يحن الوقت لأستعيد صوابي؟! الدوار يلف بي بين بقايا، مجرد بقايا. أطرقت برأسي.

«هل تتوقع مجيء أحد؟» سألني الملازم.

«الأفضل أن نعود».

الملازم يعطي إشارة لعناصره بالتجمع، أبو سليم مقرفص إلى جوار مرتفع صغير ترابي، يناديني ويسحبني من دُواري وأفكاري، جررت

قدميَّ نحوه، أخذ يخبط بقبضته على بقعة مستوية ملاصقة للمرتفع.

«هنا، كانت توجد حفرة، مدخل لمعبد منعزل».

«حفرة!!».

«يبدو أنها ردمت البارحة».

نكشها بأظافره، تربتها غضة وطرية. قال وهو ينهض بأن سيحفرها. لم ينتظر موافقتي، سارع إلى المستودع، جلب معولاً ورفشاً، وأخذ يحفر. انضم إلينا الملازم، سألني:

«ما الذي يفعله؟!».

«يفتح حفرة طمرت البارحة».

«ما الذي تظنه؟!».

«لا أظن شيئاً».

يحفر بقوة وسرعة، ثم بتأنّ، يساعده الشرطيان بإبعاد الأتربة والأحجار. واصل الحفر، اصطدم بأحجار كبيرة، انتزعها بيديه، ظهرت درجتان من مدخل المعبد. تحت صهد الظهيرة، بدا عناء لا فائدة منه، العرق يتصبب من أبي سليم، وبدأ يتصبب مني. رمى أبو سليم المعول من يده وصرخ، لم أستوعب مراده، انحنيت مبحلقاً وهو يزيح التراب بكفيه، ثم.. وكأن القيظ والردم والعرق اختلطت بعضها ببعض، أو أنني عثرت في القاع على آنية، بدت والشمس تشوطني وتشوطها، من بورسلين، أو خزف مطلي بألوان زاهية، ومنمنمة.

«الحصيرة!!» هتف أبو سليم.

كانت الحصيرة المفقودة، ملفوفة ومنتفخة!! ورائحة زهومة تعبق واخزة في الفضاء اللاهب وتضرب أنفي. أمسك أبو سليم بأطراف الحصيرة وشدها، كانت ثقيلة، حرّر طرفها، صعد من الحفرة، طلب من الشرطيين معاونته على سحبها، حين أفلحوا بجرها، تدحرج منها شيء أشبه بدمية ضخمة من طين مشوي، كانت جثة!! جثة تقلبت على درجتي المعبد قبل ارتطامها بالقاع.

«الأستاذ طرواح.» علا صوت الملازم حاداً ومؤلماً.

وانكفأت جثة طرواح على ظهرها ملوية الذراعين بوجه ملطخ بالدماء وجفنين مغلقين بالطين.

أقعيت على حافة الحفرة، طمأنينة مروعة سلختني عما حولي، تجمدتُ ملقياً نظرات جاحظة، مغلقاً أنفي براحة كفي. أخيراً، حظيت بلقاء طرواح صريعاً، قتيلاً، متنكراً بردائه الأخير، زرقة الموت القاتمة، مكفناً بدم أسود لزج وتراب دبق.

قفز الملازم داخل الحفرة، تفحص وجه طرواح وجسده، ثم ارتد متسلقاً الحفرة، أخرج منديله، خلته سيسد أنفه، لكنه مسح دموعه به، جاراً قدميه مبتعداً عنا، تذكرت أن طرواح كان أستاذه في التجهيز، لحقت به وواسيته. قال إنه وجد جرحاً عميقاً في صدغه، ربما كان من جراء رصاصة أطلقت عليه، لكنه لن يجزم قبل الفحص الطبي. شرق بدموعه.

«أهو جان كرو؟!».

«لا أدري».

كنت متأكداً أنه كرو، قتله بيد ثابتة وقلب بارد، لينتزع منه أوراق غوبلان.

تركنا عناصر الشرطة مع أبي سليم في الموقع، ورجعت مع الملازم إلى حمص حيث افترقنا، بقي فيها ليجري اتصالاته بوزارة الداخلية للإيعاز إلى شرطة حمص التعاون معه، لتأمين سيارة صحية مع طبيب شرعي للكشف على الجثة قبل نقلها. أكملت طريقي إلى دمشق، وصلتها حوالي الساعة السادسة مساء. اتصلت بسعاد، لم تكن في البيت، لم تعد من بيروت، ما زالت مع كرو.

توجهت إلى بيروت، لم آخذ معي سوى حقيبة سفري الجاهزة، في ذهني أمر واحد، منع كرو من متابعة فراره إلى باريس، لكنني أبعدته عن ذهني بارتياح، ربما لأن شكوكي لم تخطئ، ومع هذا لم يطل ارتياحي، كان إحساسي بمأساة طرواح يكبر، خديعة لم تخطر له، وشرك لم يأخذ حذره منه، لم يظفر بشيء!! أفكاري تتزاحم، تنهكني وتؤلمني. ما الذي كان يصبو إليه؟! جهوده ذهبت أدراج الرياح، مقتله كان تخفّيه النهائي. أتحسر، لِمَ؟! ألم أفقد الأمل بالعثور عليه؟! أليس موته امتداداً لغيابه المتعمد المتواصل؟! النفط خرج من يده، حينما كان على قيد الحياة؛ لولا أوراق غوبلان لبقي حياً، اختار أن يكون عقبة لم نأبه لها كثيراً، وبالرغم منا كان لغزاً قائماً، طوى سراً وأملاً. أتعجبُ، أليسا هما سري وأملي؟! لجأ إلى الكثيرين، تخلوا عنه، أو تخلى عنهم. ما الذي أراده أو لم يرده؟! وتوارى في النهاية في حيز متاخم للموت. هل كان طرواح مطلوباً ميتاً؟!

دخلتُ بيروت ليلاً، قصدت محل إقامة الوفد السوري، ارتديت ملابس السهرة، ولحقت بهم إلى دارة رئيس الوزراء اللبناني،

وصلت بعد العشاء. الحديقة تغص بالمدعوين من النواب والسياسيين والوزراء اللبنانيين مع زوجاتهم، وأعضاء السلك الدبلوماسي العربي والأجنبي. رأيت رئيس الوزراء جالساً وحوله لفيف من الصحافيين، وقفت في مرمى بصره، لمحني، فانسحب معتذراً منهم، صافحني ولم يترك يدي، اقتادني إلى ركن قصي. كان منبسط الأسارير.

«أظنكَ علمت؟».

«لم أعلمْ بشيء».

«ما جرى كان أفضل مما رجوته».

كان سبب انشراحه الخبر الذي تلقاه بعد الظهر: رئيس الأركان سيطر على الجيش خلال ساعات الصباح، دون حصول صدام وبلا ضجة؛ كما أن حسياني جاءه بالخبر نفسه قبل العشاء، أبلغه به مسروراً، الأميركان أصبحوا مجبرين على التفاهم معه؛ تحليلهم لما جرى هو أن العقيد قام بانقلاب خفي متكامل وساحق، أيّد الحكومة القائمة من غير أن يأتي بحكومة جديدة، لا بديل عنه، ساندرز متلهف على الاجتماع به في بيروت، إن أمكن. لكن رئيس الوزراء أرجأ الاجتماع إلى ما بعد، دون أن يحدد موعداً. وليس هذا فحسب، بل إن الأمور تسارعت في غيابه، وأصبحت عودته ضرورية، رئيس الجمهورية اتصل به قبل ساعة، وطلب منه قطع زيارته والعودة إلى دمشق صباحاً، لإجراء جولة مشاورات ستعقد في القصر الجمهوري مع الجيش برئاسة رئيس الأركان لتسوية الأمور الناشئة عن الوضع الجديد. كانت خطة رئيس الوزراء، السعي لإقناع رئيس الجمهورية الانضمام إلى صفه،

وتعميق مصالحته مع رئيس الأركان، إن دعمهما لحكومته سيدرأ عنه انتقادات النواب في البرلمان، ويعضد موقفه في مباحثاته القريبة مع ساندرز.

كان يتكلم وهو يراقب رجلين وامرأة، انفصلت المرأة عنهما، تابع الرجلان حديثهما، تميزتُ رئيس الوزراء اللبناني ببذلته البيضاء وسيجاره الضخم. أما الآخر النحيل، طويل القامة، فقد عرّفني إليه رئيس الوزراء من بعيد:

«السفير الأميركي في لبنان.» وتابع «تعارفنا خلال العشاء، كانت شهيته مفتوحة للمازة اللبنانية، وللخوض في السياسات السورية، قال بأن الحكومة الأميركية تأمل أن تكون الأوضاع في دمشق قد باتت أكثر استقراراً، ملمحاً إلى حركة الجيش. عَلّقتُ بأنها تنقلات روتينية».

«هل لاقت استحسانه؟».

«كانت مجرد لفتة لإعلامي بأنهم مطلعون على ما يجري».

لمحت الرجلين يصوبان نظراتهما إلينا، وبالذات إلى رئيس الوزراء، من إشاراتهما بدا أن حديثهما يدور حوله، اتخذا وجهتهما نحونا، يتمشيان بتؤدة ويتوقفان قليلاً، كانا سينضمان إلينا.

سارعت وذكّرته بمهمتي. فتساءل:

«هل عثرت على طرواح؟».

«عثرت عليه مقتولاً».

وجم وهتف بضيق:

«كانت الأمور تمضي من دونه».

«كرو قتله، علينا المطالبة بتسليمه لنا».

«هذا لا يجدي. ألدينا أدلة أو شهود؟!».

أوردت أدلتي دفعة واحدة، التجاء طرواح إلى كرو، أوراق غوبلان، إخفاء جثة طرواح، فرار كرو قبل أن ينفضح أمره.

«طلب التسليم لن يمر بسهولة، كرو بحماية سفارتين، إن لم تكن ثلاث، لقد احتاطوا جيداً لهذه العملية، سيدبرون له مخرجاً، هذا إذا لم يكن الآن على طائرة باريس».

«إنه في بيروت، وسيغادر غداً».

كان رئيس الوزراء اللبناني والسفير الأميركي قد أصبحا على مقربة منا.

«أين كرو؟» همس رئيس الوزراء.

«في شاليه في السان ميشيل».

«حاول استدراجه إلى دمشق، قل له إننا سمحنا للبعثة بمواصلة أعمالها».

ساندرز ــــ / ارتأى حسياني الاستعداد لمباحثات حقيقية، الوضع صار ممهداً. أعلمت الشركة بأن الأحداث الأخيرة وضعتنا إزاء أطراف محددة وفاعلة، نجمت عن انقلاب واضح، خلا فقط من

البيانات والمارشات والبلاغات المعتادة؛ ومن الضروري، بلا إبطاء، مباشرة مفاوضات عاجلة. كان الجواب: لا بأس بمفاوضات استطلاعية. /

أوستن ـــ / لم يكن تغييراً طفيفاً، بل انقلاب كامل، وبلا هوية واضحة، نفذه رئيس الأركان للتدليل على قوته وحضوره الدائمين. كان تقديري أننا سنواجه مرحلة شاقة، رئيس الأركان اختلق ظرفاً سيكون مقلقاً، بإبقائه على الحكومة الحالية، داعماً تصلب رئيس الوزراء. إلى أي مدى سيستغله سياسي مستقلّ، لا لون له؟! إذا تفاهما، سنرتهن للنفط!!

أبرقت لواشنطن بصورة الوضع الحالي، تلقيت برقية فورية: تعامل مع ما جرى وكأن كل شيء ما زال على حاله. /

رأيت سيارة سعاد عند مدخل السان ميشيل، ولم أجدهما في الشاليه. قالت لي امرأة من الشاليه المجاورة، إن الشاب الفرنسي خرج بصحبة سيدة منذ دقائق يتمشيان على الشاطئ. دلتني على وجهتهما، خلت أنهما قصدا كازينو قريباً يسهران فيه.

سلكت طريقهما على الشاطئ، متوغلاً في العتمة، الأضواء الصغيرة البعيدة تتناثر معلقة في عمق الليل، هدير البحر يصاحبني في الظلام، رذاذ ماء، موج يغيض ويفيض بخضم زيتي ورغوة بيضاء، أخط دربي في الليل البهيم، تحت سماء بلا نجوم، ما ينتابني يجرحني ويكبلني، سعاد أمضت اليوم معه، وكما غرر برجل ائتمنه، سيغدر بامرأة وثقت به، سترحل معه إلى محنة، ومنها إلى عودة بائسة.

لمحتهما، يسيران على بعد أمتار، متباعدين، أصواتهما خافتة، متنافرة، وفي جدال، تحاول عبثاً ويحاول خلسة، ظلالهما تترامى في خلاء مقفر إلا من بصيص أنوار خابية، في شرك يصطخب باصطفاق الموج وزنخ البحر.

ناديتهما، التفتا نحوي، ولم يتبينا وجهي، دنوت منهما، تميزاني. هللتْ سعاد لقدومي، تجاهلتُ ترحيبها ومضيتُ نحو كرو. قلت له بأن رئيس الوزراء وافق على عودة البعثة. قال بسرور واقتضاب: خبر طيب. سارعتْ سعاد قائلة لكرو: سنعود معاً. قال: إنهم ينتظرونني في باريس. لاحظتُ من تظاهره بالسرور، أنه يراوغني، جهدتُ في أن أبدو غير مهتم بما يدور بينهما. قلتُ دونما إصرار:

«من المستحسن عودتك».

سعاد ألحفت عليه، ثم تراخت قليلاً إزاء امتناعه. قلتُ له، الأمور استتبت لصالح الحكومة ولم يعد هناك ما يخشاه. لكنه تشبث بارتباطاته في باريس. سعاد لم تقنط، عادت تلح عليه، أثار إصرارها حفيظتي. هتفت بغيظ:

«لا تقنعيه».

التفتت صوبي مستغربة لهجتي، فارتفع صوتي بحنق لم أضبطه:

«كرو لن يعود معنا، لن يعود أبداً».

اضطرب كرو، ولم يقل شيئاً. قلت وأنا أرمقه:

«عثرتُ على طرواح في موقع الحفريات مقتولاً».

غَصَّتْ سعاد بشهقة خافتة وعميقة. أردفتُ قائلاً لها:

«كرو قتل طرواح».

انفتلتْ نحوه مذعورة.

«هل قتلته؟!».

«لماذا أقتله؟!»

رد كرو بصوت أجش، وحدق في وجهي يتكهن ما أعرفه.

«ألم تكذب البارحة؟!» واجهتُه «مهزلة اختطافك والتحقيق، التعذيب والتهديد!!».

«لم أكذب، ولم أقتله، لقد مات».

نشجت سعاد وصرخت:

«لم تقل لي هذا.»

«كنت سأقوله».

«قله.» انبريت منزعجاً «قله الآن».

«هل ستصدقينني؟»

سألها، بدا وكأنه يعد لكذبة أكبر.

«قل لها أنك سرقت أوراق غوبلان.» تدخلتُ مهتاجاً «ما الذي تريد الحصول عليه أيضاً؟!».

ابتعدتْ سعاد عنه ووقفت إلى جانبي. رجاها كرو متلعثماً:

«تمهلي، سأقول كل شيْ».

عيوننا مصوبة إليه، عيناه تحملقان فينا، مشدودتان إلى الظلام؛ خلفنا، لم ينبس بحرف. دوي يتفجر في أذني؛ كأنه صدى لمد بارق أعقبه جزر خاطف، تلاه دوي آخر وآخر. كرو يتمايل يمنة ويسرة، قدماه لا تحملانه، يتهاوى صريعاً على الأرض!! لم يكن الدوي المتعاقب إلا صوت رصاص حقيقي، التفتّ إلى حيث كان كرو ينظر، رأيت رجلاً يركض نحو الطريق العام، ويختفي فيه. سعاد تنكب على كرو، تحتضن رأسه، تهزه، وتنتحب.. مات كرو.

قبضتُ على معصميها، قاومتني، أنهضتها بالقوة، جررتها بصعوبة إلى مدخل السان ميشيل، قبل أن يرانا أحد، دفعتها إلى المقعد الخلفي للسيارة، انكفأت تشهق بالبكاء، انطلقتُ بها بأقصى سرعة إلى مشارف طريق الشام، هدأتها، وأقنعتها بمتابعة طريقها وحدها إلى دمشق.

لم يسمع رئيس الوزراء بخبر مقتل كرو مني، كان الوقت متأخراً جداً؛ سمعه صباحاً باكراً من رئيس الوزراء اللبناني مع تحذير غير مُطَمئن، بأن المشتبه به واحد من الموظفين السوريين المرافقين للوفد، شوهد بملابس السهرة يحوم في منطقة شاليهات السان ميشيل؛ تحرى عن كرو وتتبعه على الشاطئ، ورآه عدة متنزهين مع سيدة سورية، يطلق النار على كرو.

أجابه رئيس الوزراء، أن أحداً من أعضاء الوفد لم يغادر مقر الإقامة ليلاً، وينصح الفرنسيين بالبحث عن غريمهم بين هؤلاء الذين كان كرو يتعامل معهم من الأميركان والإنكليز.

لم يكن الفرنسيون قد علموا بالحادثة بعد، كما قال رئيس الوزراء اللبناني، لكنهم سيعلمون بها خلال ساعة من الزمن، ويطالبون كضمانة باحتجاز أي عضو لا على التعيين من الوفد السوري، ويفتعلون أزمة في جميع الأحوال، لا تتلكأوا. واتفقا على إعفاء نفسيهما من مراسم المغادرة.

«لم يرنا أحد على الشاطئ، قاتل كرو هو الذي سيشهد ضدي.» قلتُ لرئيس الوزراء.

«لن يفتقروا إلى الشهود، في حال أرادوك مشتبهاً به».

سارت الأمور على ما يرام، عبرنا الحدود اللبنانية بمنتهى اليسر. كنت مستعجلاً الوصول إلى دمشق لأطمئن على سعاد، لم يفارقني قلقي طوال الطريق، توقعت شيئاً لم أدر ما هو، تكهنت به بغموض، شيئاً في منتهى السوء، وخارجاً عن إرادتي، لغوت بتوجسات مخيفة، أصبحت أسيرها. السيارة تنهب الأرض ولا تطوي هواجسي، السهول والأشجار والمنحدرات تخطف بصري، كأن شيئاً ما سيواجهني قريباً، أترقبه وأخشاه من لحظة إلى لحظة، خائر القوى. تخيلتُ كابوساً مروعاً، أنني هنا على الطريق، أرى سيارة سعاد متدهورة؛ كابوس من شدة ترويعه، بدا وكأنه يقين، سيارتها منحرفة إلى جانب الطريق، منقلبة، عجينة من حديد وكاوتشوك، النوافذ محطمة، الأبواب مُخلَّعة، شظايا الزجاج متناثرة، وشريط قان يلطخ العشب والأشواك، يقودني إليها، في المقعد الأمامي، خدها على المقود، تنتظرني بعينين مفتوحتين، ودماؤها على الزجاج.

في مدخل الربوة، دخلتُ دمشق وتخلصت من وساوسي. وفي

شارع بيروت، انعطفت سيارة رئيس الوزراء صاعدة في طلعة المنشية، وتوقفت أمام بوابة القصر الجمهوري. تابعت طريقي في أبي رمانة، قاصداً حي الروضة.

وجدت باب البيت موارباً. سعاد في الصالون، يداها في حضنها، صامتة وجالسة كتمثال، مستسلمة لمنظر باهت: الكنبة التي اعتاد كرو الجلوس عليها، النافذة مشرعة على سماء ناصلة الزرقة، الستائر المطرزة والهواء يحركها، صوت احتكاك ورقة يابسة صادر من الشرفة، وأشعة شمس غاربة انسكبت على البلاط.

كانت تطيراتي التي خالجتني وأنا في طريقي إليكِ، قد توارت لحظة رؤيتي لكِ، إزاء هواجس أشد، انتابتني في حضوركِ.

لم تلتفت، ولم أواجهها. قلت لها: كرو خدعني وخدعك، دم طرواح لم يذهب هدراً. ولم أكن أبالغ. وقلت لها: ما الذي تريدين معرفته؟! لا توزعي اتهاماتك، ولا تتسرعي.

وكان المنظر الجانبي لوجهكِ، كأنما من رخام مقسى، رعشات الألم قناعكِ الكتيم، إرادة القدر رعدة تنفر على شفتيك، تشرخ القناع وتجنح بكِ نحو الصمت؛ والتنصت إلى عزلة تتفاقم في كآبة روحكِ وتأخذكِ، ثمة ما يتفتت أو يتآكل، أو على وشك التقوض، أو أنكِ، ربما، على شفا شيء، إثره، ستندمين إلى ما لانهاية، ومعه أتهاوى على وقع حطام وركام. قبل أن تندمي وأتهاوى:

قلت لكِ، القلب يخطئ أحياناً قدره، ويخطئ غالباً هواه ونصيبه. وقلتُ، حبي لكِ كان يقيني وضميري، غيرتي وصفحي، ومرضي الذي لم أرج له شفاء. وقلتُ، المصادفات لم تساعدني، فلا

تحمّليني وزراً ولا إثماً، الهوى يميل بنا. وقلت، رجائي كان ممزوجاً بالنقمة، لكنه لم يكن ضلالاً.

لم تنبسْ بحرف، على وجهها مزاعم الفجيعة وعزم الرحيل.

سعاد، اقرئيني، اسمعيني، الحب قادر على أن يكون خالصاً وصافياً، هادياً وعظيماً.

أوستن ـــ / كان مقتل كرو درساً قاسياً للفرنسيين الذين استخدموه دونما دراية، ووثقوا به لمجرد أنه فرنسي، ولم يعلموا بتحوله إلى غيرهم إلا بعد اكتشافهم أنه لم يزودهم بمعلومات ذات فائدة. كان السوريون أقدر منهم وأسرع إلى اقتناصه، أرسلوا مجموعة اغتيال إلى بيروت، أحكمت مراقبته، ألحقوها بضابط تنكر بصفة موظف رفيع في الوفد السوري، فيما استدرجته امرأة إلى منطقة مقفرة من الشاطئ اللبناني، ونفذوا عملية اغتياله.

نبهت دولمونت إلى أنه ليس من مصلحتهم مواجهة السوريين لاسيما بعد معرفتنا بأن كرو قتل طرواح. /

ساندرز ـــ / الفرنسيون كانوا أشدّنا حيرة من مصرع كرو، ارتأى أوستن عدم إثارة قضية ستكون فضيحة في هذه الظروف، كرو لم يكن يعنينا حياً حتى يعنينا ميتاً. حبذت رأيه دون أن أرتاح إليه، لأنه جهد في إبعاد الفرنسيين عن كرو، وربما كانت محاولته التنصل منه، كي لا ينكشف تقصيره في حمايته أو مدى تورطه في مقتله. في ظني، كان كرو عميلاً للسوريين الذين اطمأنوا إليه وتركوه في سورية، في حين كان رجل الفرنسيين، ثم

أوستن الذي جنده بعد فترة وجيزة. إذ لماذا يقتل كرو طرواح إن لم يكن تنفيذاً لأوامر أوستن؟! كان كرو عميلاً ذكياً، لكنه لم يكن محترفاً، انفضح أمره للمخابرات السورية، أوقعوا به وتخلصوا منـه في بيروت.

النفط السوري بات مدعاة لتشاؤمي، مهمتي تغوص في مخاضة من دم، غوبلان ثم طرواح وكروا! تعززت قناعتي بالعمل مستقبلاً، دون أية صلة بأوستن والفرنسيين. /

دولمونت ـــــ /

: تباطأ الأمن اللبناني بالتحرك، وتباطأوا بعدها في جميع الإجراءات، المحقق اللبناني رفض القبض على الموظف السوري، أو توجيه الاتهام إليه، هدد بأنه إذا تابع التحقيق فسوف يمضي به إلى نهايته، ولمح إلى أنه سيكشف أن هذا الذي ما يزال يجري ما هو إلا فيلم أميركي طويل ضحاياه فرنسيون.

: اضطرني إلى تجاوزه والطلب من مدير الأمن العام الإيعاز إلى المحقق بالقبض على الموظف السوري. كان مدير الأمن لطيفاً كالمعتاد، وغير متعاون كالمعتاد، صارحني بأننا نحرجهم، وأن المسؤولين في وزارة الداخلية أبدوا انزعاجهم لأننا نصفي حساباتنا فوق أراضيهم. التمست منه تنحية المحقق والمجيء بآخر. اعتذر بأنه لا يستطيع، لأن الداخلية لديها شكوك بأن قضية كرو لها علاقة بقضية غوبلان.

: لا، عندما رضخ لإلحاحي بالمطالبة باستدعاء الموظف السوري للتحقيق، كان الوفد السوري قد اجتاز الحدود اللبنانية قبل خمس

ساعات، وكانت الخدمة التي أسداها إلينا هي إرسال برقية تطالب بتسليم الموظف المشتبه به. ومن السخرية أنهم في الوقت نفسه، تلقوا برقية مماثلة تطالبهم بتسليم كرو لارتكابه جريمة قتل في سورية.. بقيت البرقيتان دونما جواب، ولم تثمرا بسبب التغييرات المفاجئة التي حدثت في سورية عقب عودة الوفد مباشرة، وأجبرتنا على التريث في متابعة قضية كرو. /

12

استهجن رئيس الوزراء أن يعترضه أمام بوابة القصر الجمهوري ضابطٌ من الشرطة العسكرية، تعرَّف إليه، وبكل انضباط أدى له التحية العسكرية النظامية وسمح له بالدخول فوراً. بعد أمتار، في باحة القصر، اعترضه منظر كان في منتهى الغرابة والعفوية؛ أفراد الشرطة العسكرية بقبعاتهم المستديرة الحمراء، يسرحون بأعداد كبيرة في ممرات الحديقة التابعة للقصر، بين الأشجار الوارفة والورود اليانعة والعشب الندي، كأنهم في نزهة جماعية صامتة، الأمر الذي جعله يسمع هديل الحمام الزاجل مصحوباً بجوقة زقزقات. ومع هذا حركت شاعرية المنظر في دخيلته تكهناً، لم يكن من هذا القبيل وإنما من ذاك القبيل، لو لم يكن بعيد الوقوع، لعاد من حيث أتى.

كانا بانتظاره في قاعة الاستقبالات، رئيس الجمهورية بأناقته

الاعتيادية والعقيد رئيس الأركان بملابس الميدان متمنطقاً بمسدسه. رحب الرئيس به وسأله عن نتائج زيارته إلى الجار الشقيق، بينما تحاشاه العقيد وكأنه يخفي أية صلة بينهما. استعرض رئيس الوزراء مباحثات لم تجر ونتائج لم تكن، فيما كان الرئيس يصغي متوتر السحنة، مستعجلاً انتهاء استعراض طال، رداً على سؤال كان اعتباطياً.

خمَّن رئيس الوزراء أن شيئاً ما على غير ما يرام، تهيأ له أن العقيد أطلعَ رئيس الجمهورية على تفاصيل الأحداث الأخيرة، وطالب بمكافأته بمنصب قائد الجيش ثمناً لإنقاذه البلد من الفوضى إن لم يكن من الدمار، أو على الأقل من حمام دم. كيف سيهول من جهوده دونما حمام دم؟! الرئيس لم يوافق والعقيد لم يتراجع، بالنظر لعنادهما، استُدعي من بيروت لاستمزاج رأيه، وعليه الآن مؤازرة كلٍ منهما بشيء ما. لم يرتح إلى فكرة ترجيح كفة العقيد جهراً، أمِلَ في تسوية تحفظ ماء وجهيهما، بتخريجة وسط غير مقبولة لكليهما، لكن لا بديل لها.

لكن، لم يخطر له أن رئيس الجمهورية واجه البارحة محنته وحيداً وبصبر قياسي، حينما فاجأه العقيد باستتباب الأمن والنظام في الجيش على يديه؛ ثم ودونما فاصل، شنَّ هجوماً لاذعاً لم يستثن منه أحداً: الأحزاب، لم تكتف باللعب بالسياسة، بل تعدتها إلى التلاعب بالجيش مُحرّضةً الضباط الشبان على انقلابات عقيمة تحت مزاعم تسليح الجيش، أحزاب معروفة بارتباطاتها المشبوهة مع دول استعمارية، أو خاضعة للاستعمار، يزاودون في صحفهم ومحافلهم على التحذير من تدخل الجيش في الحكم، بينما يرتكبون سراً الشرور نفسها؛ وحكومة تدعي الحيادية، تَصرِفُ

جهودها على استرضاء الأحزاب من جهة، والأميركان والفرنسيين من جهة أخرى، حياد معلن وموالاة للغرب في الخفاء، مشجعة بسياساتها المائعة الشيوعية المترصدة سانحة تركبها على ظهور أحزاب المعارضة؛ وبرلمان، يدفع الشعب لنوابه تكاليف صراخهم بأعلى الأصوات، وأجور مساعيهم ومساوماتهم وعمولاتهم، مع ثمن مناحراتهم، وبالحد الأقصى من النكايات؛ وفي النهاية: فخامة الرئيس، على عاتقك يقع عبء إيقاف هذا النزيف، هيئة الضباط تُخيّركَ بين إكمال انقلابها وإعلانه على الملأ من الإذاعة، أو الانصياع لطلباتها كاملة. الطلب الأول، تقديم الحكومة استقالتها وتشكيل حكومة جديدة، تُستبعد منها الأحزاب كافة، بالطبع وعلى الهامش إقالة اللواء قائد الجيش من منصبه. أما الطلبات الأخرى، فقادمة في حينها. أذعن الرئيس وبلا غضاضة لطلب إقالة اللواء، لتقاعسه عن مهمته، عقاباً له على نومه قرير العين، هانيها؛ ليلة كانت الانقلابات تتلاحق على قدم وساق. ثم وبحذر، تَعاطَفَ مع العقيد، مُبدياً استنكاره للأوضاع المتردية، لكن أسقط خيار الانقلاب وتحرز على الحكومة. لِم نستبدلها بمثلها، إن لم يكن بأسوأ؟! من جهته أظهر العقيد زهده بالمناصب.. هناك ضباط أكفأ مني لمنصب قائد الجيش، يستحقون وعن جدارة ترقية استثنائية!! غير أنه تشدد بخصوص الحكومة، بدعوى أنه سيعوضه عنها بحكومة أكثر استقلالية لا تشوبها شائبة، وهذا الطلب لا رجوع عنه. إزاء ما لا رجوع عنه، استنبط الرئيس حلاً بالإمكان تقسيطه على قسطين، وافقه مؤقتاً ـ ريثما يصل رئيس الوزراء من بيروت ـ على استقالة الحكومة؛ وهو القسط الأول، أما الثاني، فلم يصرح به، وهو أن يشكل رئيس الوزراء المستقيل الوزارة الجديدة!! وبهذا يتركهما يتناطحان، وبلا جدال لن يتمكن العقيد من إملاء إرادته ولا فرض وزرائه على رئيس الوزراء الذي

سيرضيه بوزيرين أو أكثر، وعلى الأرجح، أقل.

هذه الفكرة، خطرت للعقيد وحسم أمره معها ومع رئيس الوزراء على وجه التحديد، ليتفرغ لمعركة دقيقة، معركة النفط والسلاح، معركة لا تحتمل انقسامات في الرأي أو تنويعات في الأسلوب، ولا تلهيه عنها صراعات كبيرة أو صغيرة، ولا مماحكات جانبية مع الحكومة، الأميركان قادمون لا محالة، وهم مغرمون بالمظاهر، حكومة وديموقراطية وبرلمان ودستور، ما المشكلة؟! سيحافظ على مظاهر موجودة أصلاً، أما الحكومة فلن يدعها لغيره، سيكون هو مرجعها، ومتى؟! في الوقت الملائم الذي بات فيه ممسكاً بزمام الجيش دونما منافس أو شريك، حتى معارضوه لم يعد بوسعهم إلا تأييده، بينما سيخلق رئيس الوزراء ببقائه، وضعاً هما طرفاه، وضعاً لن تعوز خصمه الحيل والحجج كي يصون مواقفه ومواقعه بمرونة العمل السياسي والأوضاع الدولية ومؤامرات الأحزاب وأكاذيب أخرى، محاولاً أن يجعل منه تابعه العسكري، مستأثراً بحمايته، دارئاً عن سياسات حكومته دعاوى منتقديه. ما الذي فعله سوى أنه تطفل عليه في السريانا، ثم شدَّ الرحال هارباً في رحلة استجمام إلى بيروت، وشرب البارحة مساء نخب انتصار لم يكن انتصاره؟! واليوم صباحاً، ها هو، يتشدق بالكلام بسلامة طوية، لكن بذلاقة، وبلا فحوى.

أحس رئيس الوزراء، وقد امتد إصغاؤهما وصمتهما وتحفزهما، بالريبة. تباطأ قليلاً، واسترسل في التخمينات: قائد الجيش شبه مقال، أو تحت الإقامة الجبرية، الرئيس مستنكر، العقيد ألصق باللواء تهمة كيدية نكاية بالرئيس وتوعد بمحاكمته، الرئيس هدد كعادته، العقيد حرن كعادته أيضاً.. والدليل أن الجو بات بوضوح

مشحوناً بنفاد صبرهما، كلاهما يترقبان خاتمة حديثه، لماذا لا يتوقف، وكل ما يتناوله لغو في لغو؟!

سكت معترفاً:

«لقد أسهبتُ في حديثي».

توجه ببصره إلى الرئيس، معتذراً ومفسحاً له الحديث. لم يتوقع أن الرئيس سيختصر خلافاته مع العقيد ببضع كلمات، يلقيها دونما تمهيد وبتؤدة:

«ارتأينا أن تقدم الحكومة استقالتها».

كأنها أفضل ما يمكن عمله بعد أن استنفدا السبل كلها!! اكتمل تأثيرها، وصوت العقيد يحدد توقيتها بصرامة:

«الآن».

استسخف أفكاره البريئة التي لاكها بغفلة طوال حديثه، وخجل من بلادة حساباته، ومن أسلوب تفكيره المنمط، الذي انتهجه بسذاجة طوال حديثه البريء والغث، فيما كان قد حلّ محله، البارحة، نمط مغاير تماماً، تحالفٌ غادرٌ حاكاه في غيابه!! سأل بتهكم:

«حكومة!! أية حكومة؟!».

تابع الرئيس قبل أن يستطرد رئيس الوزراء في تهكمه:

«وأرى تكليفك بتشكيل الحكومة الجديدة».

مقتنصاً فرصة ستفتح باباً لمناقشات حادة وشاقة، تتخللها انتقادات وتعقبها تعهدات، تستغرق أياماً.

«لا، يستقيل وكفى، هناك إجماع.» سارع العقيد.

ابتسم رئيس الوزراء متعجباً، ليس من الإجماع، بل لأن الرئيس عرض عليه الوزارة دون علم العقيد الذي سحب ومن غير توان التكليف قبل أن يقبل به أو يرفضه!!

«إجماع هيئة الضباط.» استأنف العقيد بحزم.

«إنهم ليسوا برلماناً.» قال باستهانة «وليسوا..»

تردد متسائلاً، هل هذا انقلاب؟! إذا كان، فلِمَ الشكليات والمقدمات والمؤخرات؟! التفت متوجهاً ببصره نحو العقيد وسأله عابثاً وكأنما على حدة:

«هل فعلتها؟!».

«البرلمان سيبقى، وما عداه تغييرات يطالب بها الجيش».

«بالقوة؟!».

تجاهل العقيد رئيس الوزراء وسؤاله، أخرج من جيبه ورقة قدمها للرئيس:

«هذه قائمة بأسماء الشخصيات التي رشحتها هيئة الضباط للوزارة الجديدة».

تناول الرئيس الورقة، قرأها، ثم مررها لرئيس الوزراء الذي مررها إلى العقيد دون أن يقرأها.

«اعرضوها على رئيس الوزراء القادم».

«مرفوضة.» علق رئيس الجمهورية «ليسوا أهلاً لمناصبهم.» مشيراً إلى شخصيات القائمة «استعجلتم، الوزارة ليست حقاً لكم ولا مسؤوليتكم.» آملاً بكسب مزيد من الوقت، وأردف كأمر منته «سنناقش هذا فيما بعد».

لم تخف على العقيد بوادر التآزر الناشئة بين الرئيس ورئيس الوزراء، والمتعثرة أيضاً، ومن غير اتفاق مسبق أو كامل، كانت مسوغاً ليتذرع بالصبر.

«منحتني هيئة الضباط مهلة محددة لأنقل إليها جوابكما، وقد قاربت على النفاد، في حال عدم موافقتكما، فإن ضابط الشرطة العسكرية مخول بالتصرف».

«الإجراءات نفسها». أفلت رئيس الوزراء تعليقه بمرح.

«أنا لا أخشى التهديدات.» عقب الرئيس بحرارة، وقد تتالت أمام عينيه الإجراءات المتعارف عليها، ختم القصر الجمهوري والبرلمان بالشمع الأحمر.

«بعدئذٍ لن يستغرق الأمر سوى عدة أيام.» أنذرهما العقيد بهدوء، ملمحاً إلى سلسلة الإجراءات التالية والمتتالية، القبض عليهما، سوقهما إلى سجن المزة العسكري، بعد يوم أو يومين أو.. حسب المدة التي سيصمدان فيها، سيوقعان استقالتين، بدلاً من واحدة يوقعها رئيس الوزراء في الوقت الحاضر، تختصر كل تلك الإجراءات الروتينية.

التفت الرئيس بأنفة إلى رئيس الوزراء متوقعاً منه رداً صلباً، حازماً ونهائياً، على العقيد وهيئة الضباط؛ ويتشاطران معاً مصيراً لا مفر منه ومرغمين عليه، ومقاومة لا بد منها وإن تكن غير محسوبة وربما لن تدوم طويلاً، لكنها ضرورية، وليسا مخيرين، ينبغي أن يعملا حساباً للتاريخ والكتب المدرسية، عدا أنهما لم يتعرضا إلى ضغوط قوية، مجرد تهديدات، وهي في الواقع تهديدات حقيقية. بيد أن رئيس الوزراء كان منغمساً في التفكير.

على الأصح، كان يتأمل وبصفاء، موقفاً بات محيراً، وعرضة للشهادة والتخاذل في آن واحد، ومضللاً أيضاً!! لماذا يبدو الموقف متناقضاً في ذهنه إلى هذا الحد المربك؟! عزا تناقضه، ربما إلى جدته، رغم أنه لم يكن جديداً في جوهره، ولا شخصه جديراً بملابساته: أن يكون إزاء انقلاب معلق برمته على كلمة منه؛ مخير، بين رد هو غضبة عارمة على مغتصب للسلطة، أو التنازل بكبرياء عن منصب يتوق إليه الجميع. كان الموقف مغرياً بالتصدي للعقيد وهيئة الضباط، وخوض معركة في منتهى الشراسة والعناد يمثل فيها الشرعية.

خلال لحظات كانت في منتهى الطول، وهو يهمُّ بالرفض ومنه إلى السجن، أحس أنه، إنما يتشبث بمنصبه، مورطاً الرئيس الذي يحتم عليه ماضيه الوطني الناصع الانسياق معه. لِم يكبده مشاق لا طائل منها ولا طاقة له عليها؟! في حين أنه هو بالذات وليس الرئيس، المطلوب الوحيد والمرفوض الوحيد، وهي معركة لا تحتمل النزاهة ولا التضحية، ولا الشهادة على وجه الخصوص، وما يجب عليه، أو لا يجب عليه، يقع على عاتقه وحده، ليس عن أريحية أو إيثار، تحمل تبعات ما أقدم عليه، دونما بطولة أو

رياء، بعد أن أسقط حقه كاملاً في الاعتراض على انقلاب دعا إليه في السريانا، وباركه انقلاباً علنياً لا يد له فيه. لِمَ، إذاً، التعنت على انقلاب متقشف، لا مكان له فيه، هو شبه انقلاب، مقدماته جاهزة وبلاغاته جاهزة؟! ألم يُقَدم للعقيد الغايات، مزيناً له الدوافع؟! وبالتالي، أليس عليه الخضوع للوسائل والقبول بالنتائج؟!

انقطعت أفكاره حين أمر العقيدُ ضابط الشرطة العسكرية الذي أطل من الباب الموصل إلى الردهة الخارجية، بالانصراف. لم تفت رئيس الوزراء أنها حركة متفق عليها، ومع ذلك تروى العقيد ولم يتذمر من تراخيه وإسهابه في الشرود. ابتعد عنه متمشياً في القاعة، وكأنه يتيح له أن يأخذ أكثر من وقته كي يحسم أمره من دون ضغوط فجة.

بهنيهة، تلمس رئيس الوزراء خطأه الجسيم، أن ما يجري، كان احتمالاً وارداً، وكل ما في الأمر أنه حدث وشُمل به. أخرج القلم من جيب جاكتته الداخلية، تلفت حواليه باحثاً عن..!!

«أليس هناك ورقة، ورقة بيضاء؟!».

سحب العقيد من جيبه ورقة قدمها له.

«الاستقالة جاهزة».

عبس الرئيس، وهتف منبهاً:

«لا تتسرع».

لم يتوقع أن تتم اللحظات الحرجة والقاسية بهذه البساطة والسلاسة.

«نظاراتي ليست معي.» قال وهو يجس جيوبه، ترى أين نسيها، أم أنه يتعمد التأخير والمماطلة؟! «آه.. هذه هي!!»

وربما من باب الفضول، سأل العقيد:

«ما أسباب استقالتي؟»

«صحية».

«أين أوقع؟».

«هنا.» أشار العقيد إلى منتصف الصفحة.

وقّع بعناية وبطء شديد. ثم تذكر أنه لم يجب على تنبيه الرئيس، أجابه:

«بل تمهلت كثيراً».

أوستن ــــ / في اليوم التالي لاستقالة رئيس الوزراء السوري، طلبت الوكالة وبالسرعة القصوى معلومات وافية عن رئيس الأركان، وكأنهم لم يقرأوا ما كتبته في تقاريري السابقة على مدى شهر كامل!! أرسلت إليهم خلاصة مركزة عنه مع توقعاتي عن الوضع الجديد: التشكيلة الوزارية الحالية، غالبيتها من الشخصيات المعروفة بمناوآتها للسياسات الغربية، وهي بعد أن أحكم العقيد سيطرته على الحكم، لا تشكل بتركيبتها هذه أكثر من واجهة مدنية يسيرها العقيد نحو المجابهة المحتومة.

بعد أقل من يوم، فوجئت بمقابلة رئيس الجمهورية السورية للسفير الأميركي بحضور رئيس الوزراء الجديد، تبعه سفراء بريطانيا وفرنسا وتركيا، مقابلات؛ كأنها ليست اعترافاً بالعهد الجديد فحسب، بل وأيضاً أن الحكومات الغربية تشجع قيام حركات مماثلة في البلدان العربية، على أن تتم بهدوء وبلا مظاهر انقلابية./

ساندرز ــــ / ضمت التشكيلة الوزارية شخصيات كانت ترمي التقارب مع الغرب بالخيانة، نوايا العقيد باتت معلنة، واستنكف حسياني عن مهمته والقيام بأية وساطة مع رئيس الوزراء الحالي. قبل سفره إلى مرسيليا مقر عمله في أوروبا، أبدى تشاؤمه،

أصبحت عودته مرهونة بعودة صديقه إلى رئاسة الوزارة. /

أوستن ــــ / تبلغت أن الجنرال ماكنرو من وزارة الدفاع سيقوم قريباً جداً بجولة استطلاعية سرية في الشرق الأوسط، من ضمنها سورية. طلبت من الوكالة أن تسبق محطته في بيروت محطته في دمشق. كان جوابهم: مستحيل تغيير خط الجولة. سيتصل بك الجنرال في اليوم التالي لوصوله إلى دمشق. كن على استعداد للانضمام إليه حال تلقيك إشارته. /

ساندرز ــــ / عوّل أوستن على بعض التحركات الدبلوماسية الأميركية في دمشق، كما يبدو، كانت الحكومة الأميركية قد أخذت على عاتقها استكشاف الوضع الجديد. أكد أوستن بأنه ستعقد عما قريب مباحثات سرية بين مبعوث أميركي رفيع المستوى ومسؤولين سوريين، ربما كان النفط على جدول أعمالهم. /

13

أن تمحضه الدول الثلاث تأييدها المبكر، وبهذه العجلة؛ خطوة فاقت توقعات العقيد الأكثر تفاؤلاً، ودونما شك، لم يقدموا عليها إلا بوحي من أميركا، وكانت بادرة مشجعة وعربوناً معقولاً من النوايا الحسنة التي غالباً ما تسبق المفاوضات.

على الهاتف، عندما سمع صوت الملحق التجاري الأميركي يقدم نفسه بلغة عربية سليمة، أدرك أن المفاوضات لاحت في الأفق، وحينما دعاه إلى كأس ويسكي، أيقن أنها باتت قريبة، وأقرب مما كان يظن. قَبِلَ العقيد الدعوة، وحدد الموعد؛ بعد منتصف الليل، على قارعة رصيف المستشفى الإيطالي؛ حيث سيمر بسيارة شيفروليه ويصطحبه إلى مقهى منعزل.

لم يأخذه إلى مقهى، ولم يشربا الويسكي، أمضيا ساعة من الزمن يدخنان السجائر، والعقيد يبرم ويلف بالسيارة من ساحة إلى

شارع، أبلغه خلالها الملحق التجاري رغبة حكومته في أن يجتمع بالجنرال ماكنرو، مبعوثهم الذي سيتوقف في دمشق لمدة يوم واحد وهو في طريقه إلى عمان، على أن يكون الاجتماع سرياً، ويقتصر عليهما، لبحث بعض المسائل التي تهم البلدين. لم يناقش العقيد مع الملحق سوى ترتيبات الوصول والمغادرة، وما عداه لم يكن خاضعاً للمناقشة، وعلى الأخص اقتراح الملحق إقامة الجنرال في أحد البيوت العائدة للسفارة، رفضه العقيد دون مناقشة لئلا يستلفت الأنظار، وحدد إقامته في منزل سيخصصه له طوال مدة بقائه في سورية، وهو المكان الذي ستجري فيه مباحثاتهما. وأخيراً، اقترح أن يتولى الملحق مهمة الترجمة بينهما.

هبطت الطائرة القادمة من لندن في مطار دمشق حوالي الساعة السابعة مساء. كان من بين ركابها رجل جسيم، عريض الكتفين، ممتلئ الوجه، يلبس قميصاً مشجراً وبنطالاً أبيض اللون، يحمل حقيبة يد سوداء، ويحجب عينيه بنظارات سوداء. أنهى معاملات الدخول تحت اسم أرنولد روكويل، بصفة مدير مبيعات معدات صناعية، كانت في انتظاره سيارة أوبل، حملته إلى بيت في دمر، كان العقيد قد استعاره من أحد أصدقائه.

دخل العقيد حسب الموعد المحدد، تمام الساعة العاشرة ليلاً، شدّ كل منهما على يد الآخر بقوة، وتأملا بعضهما قبل أن يجلسا، انزعج العقيد من قصر قامته وتواضع حجمه بالمقارنة مع طول الجنرال الفارع وكتلة أعضائه الهائلة؛ ذكّرته عضلاته المفتولة وحلاقته الإنكليزية وشعره الأشقر المنتصب كفرشاة في منتصف رأسه، بالفصيلة نفسها التي ينتمي إليها المدرب الألماني لفريق الجيش لكرة القدم، الذي ألغى عقده الشهر الماضي وطرده بعدما

استفحل خطره، بات يكلف ميزانية الدفاع أكثر من كتيبة مشاة معززة بسرية مدفعية. هذه الخاطرة وتداعياتها، ستشد من عزمه، تعاوده وتؤنسه، رغم أنها ستنكد عليه المقابلة.

باشر الملحق التجاري واجبات الخدمة الخفيفة والترجمة شبه الحرفية، صبَّ الويسكي وقدم لهما سيجاري هافانا، كانت داخل حقيبته الفائقة السرية؛ وسدَّد منحى الترجمة نحو مسارات أكثر إيجابية، مصوباً كتمهيد عبارات المجاملة السياسية المتبادلة. مثلاً، حين أبدى الجنرال تقديره لدور سورية المتزايد في المنطقة، وأبدى العقيد إعجابه بقوة أميركا المتعاظمة في العالم؛ كانت «المتزايد» و«المتعاظمة» الأكثر إيجابية ومجاملة، من مساهمات الملحق التجاري.

بَسَطَ الجنرال، وبمنتهى الاستهانة والخفة، على الطاولة الصغيرة أوراقه، وعلى الكراسي خرائطه. واقترب برأسه الضخم من العقيد، مُستهِلاً المباحثات ومن طرف واحد على نحو مثير للقرف، يعلك الكلمات ويبصقها بصقاً، ولم يعفه من العلك والبصق إلا حينما كان يرتد إلى الخرائط مشيراً بالسيجار المشتعل إلى مواقع تمركز الجيوش الروسية وحلفائها من الكتلة الشرقية، وأماكن توزع القوات الأميركية وحلفائها الأوروبيين.

بعد دقائق من الإنهاك المستمر والمتلاحق، لم يعد الرياضي المفتول العضلات، يتكلف أن يكون جنرالاً يحفظ درساً واحداً يلقيه من فوق منبر فقط، بل جنرالاً اختلق غرفة عمليات وأصبح في قلب مناورة عسكرية وبالذخيرة الحية، تشترك بها جيوش العالم، تصب في الشرق الأوسط؛ بقعة متوسطة الحجم، ثم في بقعة صغيرة؛ المشرق العربي، فأصغر؛ سورية، ساحة حرب باردة

معرّضة لأن تصير ساخنة، ساخنة جداً، وعلى الدوام على حافة الحرب. و.. رجاءً، أعطني انتباهك الشديد، تقع سورية في منطقة استراتيجية، هامة وحيوية، ملتقى قارات ثلاث، مكشوفة دون دفاعات، لا تسمح لها قدراتها كدولة مستقلة حديثاً بصد هجوم سوفياتي أو حتى بحماية نفسها. إن موقعكم المؤثر يملي عليكم المشاركة في جبهة تضم تركيا والعراق والأردن ضد التهديد الشيوعي، ولن نقف مكتوفي الأيدي في حال حدوث عدوان على سورية، سوف نسارع إلى الدفاع عنكم، بالمقابل يجب على الحكومة السورية السماح لنا باستعمال الطرق والسكك الحديدية والموانئ؛ وأيضاً معاملة البريطانيين بالمثل بحكم تواجدهم في المنطقة، عبر تأمين رباط بين قواتهم في قناة السويس وقواتهم الأمامية المتمركزة في العراق، على الحدود المتاخمة لروسيا.

استفزت العقيد جملة «يجب على الحكومة السورية» والجنرال يلقيها كأمر عسكري ينبغي تنفيذه بلا تردد أو تذمر، فيما كان الملحق التجاري منهمكاً في ترجمتها بلا تلكؤ. قاطعه:

«قل للجنرال، لدينا القدرة الكاملة على معرفة ما يجب أن نفعله أو لا نفعله».

اعتذر المترجم فوراً، وتبادل مع الجنرال غمغمة مطولة بعض الشيء، ثم نقل تصحيح الترجمة، إن ما يقصده بالضبط هو: تُحسن الحكومة السورية صنعاً باتخاذ ما تراه مناسباً، والقرار قرارها من حيث معاملة البريطانيين بالمثل، إن الجنرال يعرض أفكاراً هي سيناريو محتمل، قابل للمناقشة والتعديل. ومرّر العقيد الترجمة الجديدة، أو المنقحة، أو المقصود منها، على أنها طاقة الجنرال الدبلوماسية القصوى.

بيد أن خطط الجنرال، بدت على شاكلة خطط المدرب الألماني؛ أي في الملعب خاسرة، أما على الورق أو حين تلقى شفاهاً، فمتزنة بما فيه الكفاية، وغير معللة بما فيه أكثر من الكفاية. إضافة إلى ذلك، كانت أفكار الجنرال بحالتها الحاضرة، قبل اللعب والملعب، محبِطة؛ ليس من حجم القوات الشيوعية المهاجمة، بل من تلك المطالب التي لم تقف عند حد لمنع تطويق السوفيات لدول العالم الحر وتهديد حرية الشعوب الصغيرة؛ وهي، من قبيل الحجج المعتادة والمملة التي سمعها مراراً وتكراراً؛ أما حالياً، فيسمعها مباشر ة واستراتيجية، لا تنقصها وسائل الإيضاح.. وخطر وشيك جداً!! يبدو الأميركان من خلالها لاهثين وغير حريصين على مساومة طويلة، وعلى أهبة الاستعداد للتلويح بمقابل مجز. تساءل العقيد:

«هل سيلغى الحظر الأميركي على بيع السلاح لسورية؟».

«سنزودكم بسلاح مشروط، سلاح للأمن الداخلي ضد خطر الحزب الشيوعي السوري، وسنتكفل نحن بالخطر الشيوعي الخارجي».

«سورية بحاجة إلى سلاح لاستخدامه ضد العدو الخارجي، شيوعياً كان أم إسرائيلياً».

«بالنسبة لإسرائيل، نحن نتوقع محادثات صلح بينكما، ولدينا أفكار بناءة بخصوص اللاجئين والأراضي المتنازع عليها».

«بالنسبة لنا، ليست مشكلة لاجئين وحدود».

«أعتقد أنها مشكلة الفلسطينيين وحدهم».

«أقصد أنها قضية وليست مشكلة، قضيتنا الأولى نحن العرب، وبالتحديد فلسطين بالكامل».

«لا أعرف إذا كانت معلوماتي وافية، فلسطين لم تكن تحت الحكم السوري، كانت تحت الحكم التركي، ثم الإنكليزي».

«معلوماتك للأسف، ليس أنها غير كافية ولا وافية، بل إنها تجهل تاريخ المنطقة وجغرافيتها، فلسطين جزء من سورية، من بلاد الشام، من البلاد العربية».

«لست مهتماً بالتاريخ والجغرافيا، لكن إسرائيل موجودة، وبالإمكان إيجاد تسوية مرضية لجميع الأطراف».

كانت لديه أسئلة مصيرية كثيرة، توقفت بعد سؤاله الأول عن السلاح، ما تداعى بعده من أسئلة، كان تعليقاً هازئاً على تصورات الجنرال حول قضية يجهلونها ولا يريدون معرفة شيء عنها، ويتنطحون لها بوقاحة العارف، دون محاولة فهمها بشكلها البسيط، والأقرب ربما إلى مفهوم الجنرال؛ إن هؤلاء اليهود القادمين من الغرب يعتدون على حقوق الملكية لشعب بكامله!! أليس من الأجدى ألّا يندفع معه كما اندفع سابقاً معجباً بشهادات ومؤهلات المدرب الألماني، الذي أبقى الهواة هواة، والمتحمسين متحمسين، ووفر مشجعين أخذوا يتناقصون بعد كل مباراة؟! هل كان من الضروري أن تمر عشرون مباراة ليتحرى عن المدرب الآتي من فرانكفورت مزوداً بشهادات عالية الجودة، لم تكن مزورة، كانت صحيحة، ومبذولة لمن هب ودب في أندية الدرجة الرابعة والخامسة؟! لم يكن مدرباً ولا لاعباً محترفاً، مجرد معلق رياضي ضئيل القيمة، ضخم الجثة، جهوري الصوت، ومُلفق

مباريات كلامية؛ كما الجنرال الذي رسم بانوراما مثيرة، لم تكن الخرائط والخطط فيها سوى أدوات نصب وخلط وتهويل.

في ذهنه، استجمع الجواب، الجواب القديم نفسه، والوحيد. هل تغير شيء؟! إذاً، لا مفر من إعادته:

«جنرال ماكنرو، لا بد من إيراد ملحوظات صغيرة، لقد اتجهت جهودنا بعد تخلصنا من الانتداب الفرنسي إلى استكمال استقلالنا، وهذا ما دفعنا إلى رفض مشروع الوحدة مع العراق، مع أنها حلمنا، لأن الوحدة ستقوم تحت حماية التاج البريطاني. لم نكن معنيين دائماً بتأييد طرد البريطانيين من العراق فحسب، بل وكنا ندعم أشقاءنا العراقيين بالسلاح والرجال، وشاركت أنا شخصياً بالقتال مع العراقيين ضد الإنكليز. سورية لن تكون معبراً للجيش الإنكليزي ولا لغيره. بصراحة، لن نقبل المساس بسيادة البلاد بدعوى نظام غربي للدفاع. إن مصلحتنا تكمن في الحياد، حيادنا لا يقبل الجدل. هل ننحاز إلى الدول الغربية التي أسهمت في خلق إسرائيل، وسكتت على طرد الفلسطينيين من أراضيهم، وهي الدول نفسها التي تمنع عنا السلاح؟! هناك أراض اغتصبها الصهاينة، ومئات الآلاف من المشردين تحت الخيام، ودولة عدوة مختلقة، هَمُّها توسيع رقعتها باحتلال أراضينا، أندع هذا كله، كي نشارك بإقامة خط أمامي للدفاع عن العالم الحر؟! هل ندافع عنكم فيما أنتم أنفسكم وبأسلحتكم تشجعون عدونا على الاعتداء علينا؟!».

بينما كان الملحق التجاري يتعثر في الترجمة، كان الجنرال يتعثر في السمع، مستوضحاً بعض العبارات بعصبية، وعقب معترفاً بأنه يجهل ظروف النزاع السوري ـ الإسرائيلي أو العربي ـ

الإسرائيلي. وغيّر الحديث بعدها، منتقلاً إلى المساعدات الأميركية التي تُصْرَف من خلال برنامج المساعدة التقنية، وكان الجنرال كريماً، وعد بإدراج سورية في البرنامج، لن يبخل برفع توصية للحكومة بمنح سورية هبة عبارة عن بضعة ملايين كمساعدة اقتصادية عاجلة، وأسهب متكلماً عن استثمارات ومشاريع ضخمة تجعل من سورية واحة للرفاهية. لكنه لم يلحظ على العقيد تجاوباً آنياً، بدا وكأنه سيحبطه، هل صورة الرفاهية مفتقدة لديه أم مشوهة؟! لا بأس بجعلها ملموسة نوعاً ما.

«هل تقرأ مجلة ريدرز دايجست؟ أعرف أن لها طبعة عربية».

لم يتذكر العقيد المجلة أو إذا كان لها طبعة عربية، ربما قرأ بعضاً من أعدادها:

«للأسف، مشاغلي تمنعني من متابعتها».

بالطبع، كان الجنرال يقصد وبشكل جلي، الحياة الأميركية المصورة في المجلة، وبلغات مختلفة تغطي العالم، أميركا الثرية، المعطاء، الحيوية، القوية. أميركا التي يُضرب رجالها ونساؤها من البيض والألوان الأخرى بخصالهم الأخلاقية ومشاعرهم الطيبة، أمثلة رائعة في التكافل والتعاضد والتفاني الإنساني.. وبالألوان. تلك هي الرفاهية التي تحفز الأميركيين على فعل الخير ونبذ الشر، الرفاهية؛ التي هي الرخاء الذي لا يدفع إلى التراخي، بل إلى الإتيان بمآثر إنسانية رفيعة من التضحية.

أخذ الجنرال يسرد بعض الحوادث التي قرأها مؤخراً في المجلة. فيما بدا العقيد متضايقاً، لماذا يلح المدرب الألماني على ذهنه؟! ربما لأنه لم يعد إلى ألمانيا، وسافر إلى أميركا بلد الفرص. هل

سيجد فرصة في شيكاغو أفضل من دمشق؟! لم تكن مؤهلاته سوى مباريات وهمية أحسن عرضها وفبركة تمريراتها وأهدافها ونتائجها، بالإضافة إلى شهية نهمة، وأضراس تطحن الحصى، ومعدة تهضم الفول المدمس ومناسف البرغل واللحم والرز والبامياء؛ تبدت في تمشيط ولائم عامرة بالطبيخ الشامي السخي بالسمن العربي. ثم، ألم يطلب ويتطلب الأطعمة الشامية الثقيلة والمعقدة، وعلى الأخص، صنفه المفضل الذي أغرم به، السجق المحشو بالأرز المفلفل والدهن والشحم واللحم المفروم، التهم منه عدة كيلومترات، وابتلع معه غالونات من العرق اللبناني، وبراميل لا حصر لها من البيرة السورية الناشئة، حديثة الصنع؟! لماذا نحسن الظن بالأجانب الشقر؟! نقول: هم؛ يكفيهم القليل من الطعام، هم يتناولون الأطعمة بشكل محسوب خشية التخمة، هم يأكلون بذوق وتذوق مرهفين. فيما نحن نسيء الظن بأنفسنا، نقول: نحن خشنو الطبع، نحن عديمو الذوق، نحن غليظو المعدة؛ في حين لم يكن أحد يجاري هذا الألماني في شراهته!! وهذا الجنرال أيضاً، ترى على أية جبهة كان في الحرب، لماذا كان يقاتل ويقتل اليابانيين أو الكوريين أو النازيين، وسيتابع حروبه ويقتل الشيوعيين، وقريباً؛ ربما سيحل دورنا نحن العرب، من أجل ماذا؟! من أجل رفاهية الشعوب.

كان الجنرال يصف موقفاً مؤثراً، الرجل الأبيض الذي اقتحم منزلاً يحترق لعائلة سوداء، وأنقذ امرأة سوداء وطفلين أسودين، أصيب بحروق بالغة من الدرجة الثالثة؛ أودت به إلى شفا الموت. لكن، لولا العناية الطبية الفائقة والعناية السماوية الفائقة، لما نجا من الموت. المهم، كانت القصة دليلاً على التعاطف الإنساني، والمهم أكثر، أن أميركا قطعت شوطاً كبيراً ومهماً في ميدان الدمج العنصري.

لم يأخذ الجنرال نفساً إلا كي يسمح للعقيد بتثبيت الصور التي مرت، وعندما ارتدّ لموضوعه، آثر بالمتابعة المساعدات إياها التي ستجعل من الاقتصاد السوري اقتصاداً متيناً، يوفر الرخاء والرفاهية إياهما، وتلك الأمثولات الإنسانية السابق ذكرها، ولقد بدت من فرط نموذجيتها، أن الجنرال سيجترح سابقة مؤثرة في رده على سؤال العقيد عن المساعدات:

«هل هي مشروطة؟»

«لا، إلا إذا اعتبرت تصديكم للخطر الشيوعي داخل بلادكم شرطاً».

وأردف مُطَمئناً العقيد، بأن ما سيتفق عليه سيبقى سراً، ولن يعلن إلا بعد تهيئة الأجواء المناسبة. مبدئياً، إذا لم يكن هناك ثمة اعتراض على فكرة التعاون بينهما، فهو على استعداد لمناقشة صيغة مشروع الاتفاقية مع البيت الأبيض، قبل عرضها على لجنة المساعدات الخارجية في الكونغرس، إن الدفاع عنها يستدعي إقناعهم بأنها ستعود بالفائدة على مخططات أميركا الأمنية، وربما أُجريت عليها بعض التعديلات، ولن تصبح نافذة إلا بعد التصديق على الصيغة النهائية.

لم يفت العقيد أن الجنرال لم يغير الحديث؛ بالعكس، شدد عليه من باب المساعدات، ليربطه باتفاقية تحت غطاء اقتصاد سوري متين، اتفاقية غير نافذة إلا بعد إجراء التعديلات اللازمة.. ما هي؟! الملائمة لهم.

«سأرجع إلى الحكومة لأحصل على موافقتها.» عقب العقيد.

«لكنك تستطيع البت فيها دون الرجوع لأحد، يكفيك القول، إنك لم تفرط بشيء».

«وإلى البرلمان أيضاً.» استأنف العقيد ببرود.

توتر الجنرال، لماذا يُعَقِّد العقيد أموراً بسيطة كهذه؟!

«نحن نعرف بأنه لا الحكومة ولا البرلمان يقيدانك».

«إن موافقتهما أو عدمها، مُلْزِمة».

والعقيد يناكفه، لم يلجم نفسه:

«اعتقدنا أنك..»

لكنه أمسك عن الكلام في الوقت المناسب. عندئذٍ، أكمل العقيد وبعناية:

«الديكتاتور المرتقب».

«لم أقصد هذا.» سارع الجنرال «نحن ننظر إليك كرجل قوي في السلطة يمثل كابحاً لتطرف الأحزاب، ومناهضاً للتوجهات الشيوعية، الأوضاع لديكم في سورية لا تخلو من مفاجآت، حتى الأحزاب التقليدية تستمرئ التوجه نحو الروس. إن وجودكم يصحح مسار ديموقراطية فتية».

«ديموقراطية مُقنَّعة.» ابتسم العقيد.

«ديموقراطية غير فالتة، لا تهتم بمصالحها الضيقة والأنانية، تعي أنها جزء من العالم الحر».

«دائما ما تصورتُ الديموقراطية تتنافى مع وجودي أنا؛ وبالطبع، وجودك أنت أيضاً، هنا».

«لا، بل بسبب أنكم حديثو عهد بالديموقراطية، مجرد أنها تحتاج إلى ضبط، كذلك تحتاج إلى بعض المواد الدعائية».

«إعلانات!!».

«مواد ثقافية، دراسات وأبحاث عن الديموقراطية، يكتبها مثقفون مرموقون وأساتذة جامعيون، بتوجيه وتوصية من الحكومة والمخابرات، وتوزع خارج أميركا».

«لماذا خارج أميركا؟!».

«لأن القانون يمنع إخفاء الجهة الممولة، مما يجعل القارئ الأميركي لا يثق بما يقرأه».

«هل تعانون أنتم أيضاً من الشيوعية؟!».

«في الحقيقة، عانينا من بعض الجماعات ذات الميول اليسارية المتطرفة، لم ندع نشاطاتهم تستفحل، كان من أشدهم تأثيراً وخطراً أولئك الفنانون المعششون في هوليوود، مارسوا دعاياتهم تحت ستار جمعيات ثقافية، وروجوا للماركسية بدعاوى فنية. عملنا دون هوادة على التخلص منهم، أكثريتهم أعلنت التوبة، الباقون لم نتمكن منهم تماماً، يحاولون استغلال ثغرات في الدستور للدفاع عن أنفسهم. في بعض الأحيان يحمي الدستور النشاطات الهدامة بحجة الإبداع وحرية التعبير».

«ألم تتمكنوا من إدانتهم؟!».

«نحن نُضيق عليهم. لا أخفيك، الشركات السينمائية تتعاون معنا، لقد امتنعت عن تشغيلهم وأصبحوا عاطلين من العمل، أن تكون عاطلاً من العمل في أميركا أمر في منتهى البؤس، أعتقد بأننا قضينا عليهم».

«أهذه ديموقراطية؟!».

«الديموقراطية معركة مستمرة.» حدق فيه الجنرال محذراً «أفلت لديموقراطيتكم العنان، وسوف تصبحون لعبة بأيدي الشيوعيين».

أحس العقيد بالامتعاض، لأنها فكرته وسبب مخاوفه، والجنرال عزف عليها لحساب الأحلاف. الأمر الذي لم يفهموه، أنه لا يرضى أن يكون رجلهم، أو رجل الروس، إنه رجل سورية أولاً وأخيراً. وكان أيضاً غاضباً، لأن هامش المناورة كان محدوداً للغاية، ورقة النفط لم تطرح، وكما يبدو لن تطرح، وهو لن يعرضها عليهم، لأنها ستظهره بمظهر المحتاج إليهم وستضعف بالتالي من موقفه، وهم عن دراية لا تخلو من دهاء وسفالة، لم يأتوا على ذكرها لئلا يمنحوه مجالاً لضغط مقابل وعلى قدم المساواة. وبالتأكيد، لم يفوضوا جنرالهم إلا بدعوته للالتحاق بدولة كبرى كعميل ممتاز، دون أن يتميزوا فيه قدر سورية المقبل. وهو أيضاً، وبالمثل، لم يتميز في الجنرال ومعه رئيس دولته، سوى ذلك المدرب الألماني الشره، المختال والمحتال. ألم يكافئنا بهزائم مدوية، ما زال صداها يتردد في الملعب البلدي، جزاء وفاقاً على ثقتنا العمياء به؟!

وبلا حماسة، أنهى الحديث بخيبة، مستدركاً ما قاله، ومؤكداً على ما سيقوله:

«الحكومة لن توافق، والبرلمان سيؤيدها!».

فهمها الجنرال الذي احمرّ وجهه المنتفخ، كما تقصّدها العقيد: الرفض القاطع. أحس العقيد الذي فارقه شعور الامتعاض، بالحيوية بدلاً من الخيبة، حين تلمح مشاعر الخذلان على ملامح الجنرال. الحصيلة، كانت المقابلة ناجحة بإخفاقها اللاذع، ومذاق الويسكي أصبح أكثر إمتاعاً، وتأثيره أضفى خدراً حاراً، فيما قبل قليل كانت مرارته لا شك فيها، وبدت نتيجة اللعبة السقيمة نكاية لذيذة ومبهجة: لم يكن ما تبادلاه من آراء يزيد على ما يكتب ويعلن بضجيج أكثر حدة في الصحف والإذاعات. أما هذه الترتيبات التي أجريت خلسة فقد أكسبته جدة؛ وفي النهاية، لم تكن إلا لتكراره وتأكيده سراً.

تصافحا بتراخ، بملل وتقزز. قال الجنرال إنه مضطر لاختصار زيارته والمغادرة صباحاً إلى بيروت. اعتذر العقيد بأن الإجراءات أعدّت على أساس المغادرة إلى عمان، ومن المستحيل تعديلها ليلاً. قالها مع ابتسامة لئيمة، لم يحاول تليينها بحيث يخلطها بنزر من الرياء. ووفر للجنرال انطباعاً أخيراً، غاية في الفظاظة، مفتقراً إلى المجاملات، وبارداً.

ولأيام عديدة، لم تفتر قناعة العقيد في أن الأميركيين أهملوا النفط عمداً، ليفاوضوه عليه قريباً وبشكل منفصل؛ كانت قناعته كاملة ويقينية، وكان في انتظارهم.

أوستن ـــــ / أبرق الجنرال ماكنرو من عمان وليس من دمشق، أدركت أن مقابلته مع العقيد كانت فاشلة. التحقت به في عمان، وقابلته في السفارة، أدهشني فوراً وبلا تمهيد بتقييمه الشخصي الصارخ، المتقن وغير السياسي، لشخص العقيد، رجل داهية وضيع وشهواني!! لقد اكتشف في المنزل الذي استضافه فيه ملابس نسائية مكشوفة وصوراً لنساء شقراوات في أوضاع غير لائقة!! كان جنرالنا العزيز والعتيد قد فتش غرفة النوم بحثاً عن أجهزة تنصت مدسوسة، مع أنه يعلم ونحن نعلم، أن السوريين لا يملكون أجهزة تنصت بل ولا يعلمون إن كانت مثل هذه الأجهزة موجودة أو غير موجودة، وحتى إذا افترضنا أنها بحوزتهم فلن يسعدهم الاستماع إلى شخيره. والحقيقة أن جنرالنا الداهية فتش أدراج العقيد بوضاعة وتفحص الملابس الداخلية النسائية بشهوانية!! قلت له: سيدي، لا أعتقد أنك تتوق إلى إثارة حفيظة السوريين ضدنا، سيفهمون اكتشافاتك الجريئة على أنك خنت آداب الضيافة العربية. رمقني بغيظ: متى كنتم تعلنون عن أنفسكم

أو مصادركم؟! قلت له، الوقائع لا تقدم ولا تؤخر، نستطيع اختلاقها عندما نحتاج لها. قال، ظننت أنها قد تفيدكم. قلت: شكراً، حالياً، لا يهمنا التشهير به.

في الجانب السياسي، كان رأي الجنرال صائباً. قال: يبدو أنهم في واشنطن لم يختاروا الرجل المناسب ليطرحوا عليه النظام الدفاعي، وأطلعني على طرف من المناقشات التي دارت بينهما، وكان العقيد فيها مفرطاً في عدم الاتزان باستخفافه بالخطر الشيوعي وعدم مبالاته به، ومفرطاً في الحذر حيالنا، لم يكن يريد سوى السلاح؛ وإذا كان هو الرجل القوي فعلاً في سورية فالتعامل معه كارثة، ومن الأفضل مباشرة ضغوط قوية عليه عن طريق شركائنا، مناوشات إسرائيلية وحشود تركية وتهديدات عراقية. قلت له، لماذا لا تجربون معه صفقة سلاح صغيرة تسكتونه بها؟! قال: إن أية صفقة ولو كانت صغيرة، ستعني كسر حظر بيع السلاح، ومؤشر إلى تحول في السياسة الأميركية له مضاعفات واسعة، وهذا ليس في نيتنا ولا نشجع عليه. وعندما سألته عن النفط، أنكر علمه به. /

14

ساندرز ـــــ / فقدتُ صلتي بالسوريين إثر انسحاب حسياني واعتماد الشركة على مبعوث الحكومة رفيع المستوى في سبر توجهات الحكم الجديد في سورية، والذي أهمل النفط في مباحثاته. كنت في وضع لا أحسد عليه، بلا عمل ولا أعرف ما الذي أنتظره!! سرعان ما تلقيت إشعاراً من نيويورك بأن المستر كين مدير القسم الإداري سيتوقف في بيروت لمدة يوم أو يومين وهو في طريقه إلى السعودية، خمنت أنه يحمل لي تعليمات جديدة.

كان المستر روبرت كين رئيسي في السنوات الأولى من عملي في الشركة، توثقت علاقتنا ولم تقتصر على العمل، كنا نقضي مع زوجتي وزوجته الأولى عطلات نهاية الأسبوع، وتفرقنا بعدما تنقلت مراكزنا من بلد إلى بلد، لم يتح صعوده السريع إلا أن

نجتمع مصادفة، لا سيما بعد أن أصبح أحد المديرين النافذين في الشركة. كان لقاؤنا هذا، كلقاءاتنا المتعجلة في لندن والظهران والكويت، لكنه لم يكن شبيهاً بأي منها؛ كان يحمل أمراً بإنهاء مهمتي في بيروت، أبلغني إياه بلا اهتمام، وتلقيته بصمت وذهول. وأكمل حديثاً انقطع قبل تسعة أشهر في الظهران عن زوجته الثانية، ولم يكن على وفاق معها. سألني عن علاقتي بزوجتي. قلت جيدة. مضى الحديث ثقيلاً ومن طرف واحد؛ خلافاته مع زوجته تكبر وهما منفصلان حالياً ويتهيآن للطلاق، والطلاق سيكلفه ثروة. تساءل وقد ضبطني واجماً، هل أنت متضايق من إنهاء مهمتك؟! انفجرت قائلاً: هل كلفتم شخصاً آخر؟! مهمتي فشلت بسببكم، لقد قيدتموني!! نفى بشدة ولم أصدقه. قلت: لا تقل لي إنكم عثرتم على أوراق غوبلان وتأكدتم من عدم وجود النفط. قال: لم تهمنا أوراق غوبلان إلا كي لا تقع بيد أحد، في الحقيقة، نحن نعتقد بوجود النفط السوري لكننا غير جازمين. سألته: هل تخلينا عن النفط لغيرنا؟! رد بعصبية: لا، وإنما أسأنا اختيار التوقيت. اعترضتُ: ليس هناك توقيت أفضل من الآن. قال بضيق: النفط السوري سيثير مشكلات نحن بغنى عنها وليست لدينا القدرة على حلها، هناك شكاوى جدية من تخمة النفط، الاستهلاك في تناقص والأسعار لم تعد تعود علينا بربح معقول؛ ثم تكلم همساً وكأنه يخصني بسر: الاتجاه الحالي ينحو إلى تعاون الشركات النفطية بتخصيص حصة لكل بلد منعاً للمنافسة العشوائية، إن مشكلتنا حقيقية، ماذا لو ظهر النفط السوري بكميات وفيرة؟! سيؤدي لا محالة إلى بلبلة الأسواق وهبوط الأسعار وعدم استقرارها. قلت مستغرباً: وتتركونه للروس!! أجابني بثقة: نحن في سبيلنا إلى تراجع محسوب، نبدو فيه غير حريصين على نفط لا وجود له، ولا مصلحة لنا فيه، وليس إلا مغامرة

مرتفعة التكاليف، وخاسرة، لقاء ربما لا شيء. أغلق الحديث فجأة، لم يعد راغباً في الكلام، وادعى أنه متعب. تناول غداءه في غرفته، وبعد الظهر تجولنا في الأسواق، اشترى بعض الهدايا، دعوته إلى العشاء لكنه اعتذر متهرباً من فتح الحديث. تواعدنا صباحاً لأوصله إلى المطار. /

أوستن ـــ / أبدى ساندرز انزعاجه بعد أن أبلغه المستر كين بانتهاء مهمته، كانت التعليمات الختامية التي حملها له كين من نيويورك قد اختتمتْ وجوده في بيروت. أصابت تخميناتي هدفها، الشركة أخطأت باعتمادها على واشنطن، كانت الإدارة غير راغبة في ربط النفط بمباحثاتها مع السوريين لئلا نتعرض للابتزاز السوري. قلت لساندرز: كان على الشركة المضي وحدها، وألّا تفسح مجالاً للروس، لكن مع هذا تمهلوا، الإدارة في واشنطن التي تخلت عنكم، لن تترك، تحت أي ظرف، المنطقة للسوفيات. /

ساندرز ـــ / في طريقنا إلى المطار، طرحتُ الموضوع على كين ثانية، وكنت غاضباً. قلت له: لقد حبذتُ ومنذ البدء ألا نعمل مع الإدارة ولا مع الوكالة، لكنكم شئتم التنسيق معهم، أوعزوا لنا بالانسحاب، فيما كان علينا ألا نصغي إليهم، انسحبوا تمويهاً وسيحاولون مجدداً بوسائل أخرى. قال: مشكلتنا ليست معهم، بل مع الشركات. قلت: كانت الشركات تلح على صيغة لوضع حد للمنافسة المفرطة قبل اطلاعنا على النفط السوري، ومع هذا أقدمنا، والآن لمجرد أن واشنطن تطلب فالشركة ترضخ!! قال: واشنطن لم تطلب، الشركة قررت. قلت متعجباً: كنا متلهفين

على مفاوضة السوريين، وفجأة أدرنا ظهرنا لهم وبلا أسباب. قال متروياً. في نيويورك ستعرف كل شيء. قلت: لماذا ليس الآن؟! ردَّ حانقاً. لا تلح. قلت بإصرار: سأبرق لهم باستقالتي. هدأني: حماقة لا ترتكبها، الأمر لا يعنيك حقاً.

كنا في قاعة المسافرين، انفصلت عنه مبتعداً، سلّم أمتعته، لوّحت له بيدي مودعاً، نظر إلى ساعته، هرع نحوي، وشدني من يدي. قال: ستسمع مني دونما أسئلة، احتفظ بأسئلتك لهم في نيويورك، كل ما ترغب في معرفته لن يمنعوه عنك وستتقبله منهم بشكل أفضل. قلت صاغراً: سأسمع فقط. قال: حسناً، كنا نريد النفط السوري، ولم يكن هناك بديل عن الحصول عليه، لكن لإخراجه من السوق وعدم إدراجه في الحصص. أومأت برأسي دون أن أفهم، لم أستوعب ما قاله؛ تابع: كانت لدى الشركة خطة محكمة، طموحة جداً وطويلة الأمد، أُعدت بالاشتراك مع الإنكليز والفرنسيين، على أن نضطلع نحن بالقيام بها، وتشترك الإدارة بجزء منها، وهو مساعدتنا بالحصول على امتياز التنقيب خشية وقوعه بأيدي الروس، وعدتنا الإدارة ببذل جهودها، أما الخطوة التالية فكانت أن نخوض مع السوريين مفاوضات شائكة من طرفهم ومتأنية من طرفنا؛ وبالإجمال معقدة، على أن تكفل الإدارة ضمان مطمطة المفاوضات إلى زمن نحن نحدده، بالطبع وفي اللحظة الحاسمة، سنتساهل مع السوريين ونحفظ حقوقهم باتفاقية جيدة. بعد حصولنا على الامتياز، سنقوم بداية بإجراء كشوفات جوية وعلى الأرض، ثم نماطل في عمليات الحفر، عند المباشرة، ستستثنى المواقع المحتمل احتواؤها على البترول بوفرة؛ البئر الأولى ستبدأ بداية حسنة ثم تأخذ بقذف الماء المالح؛ البئر الثانية سيستخرج منها بترول كبريتي لا يصلح إلا لرصف الطرق؛ الثالثة

جافة، كذلك الرابعة. وسوف نواصل الحفر دائماً إلى أعماق سحيقة، ثم نتوقف عند البئر الثامنة أو التاسعة، شيء ما شبيه بهذا الترتيب، ونتائج على هذا المنوال، تستغرق سنوات طويلة، خلالها، تحتاج الشركة إلى حماية فعلية من الانتقادات المحلية المتوقعة والتي قد تفجر أوضاعاً محتقنة، غالباً ما سوف تنحو نحو الأسوأ. من يدري، ما الذي سيتسرب إليهم من أسرار طوال هذه السنوات؟! آبار البترول الحقيقية سوف تغلق وتصبح احتياطياً مكتوماً، لن يستخرج إلا برغبتنا وحسب احتياجاتنا. العملية دقيقة في منتهى السرية وباهظة التكاليف وتحتاج إلى تغطيات مستمرة، وبهدف مستمر السيطرة على النفط وليس استثماره. الحقيقة، ما نريده من الإدارة أكثر مما يعرفونه، ما نريده هو التحرك على أراض هي بمثابة ممتلكات خاصة للشركة مع وقاية كافية إن لم تكن كاملة من الانقلابات والقلاقل المحلية، بيد أننا لم نظفر ببشائر فعلية تدلل على قدرة الإدارة، تكفل لنا ضمانات أكيدة لخطة ذات نفس طويل.

لم أبد رأياً أو تعليقاً، كنت مبهوتاً. نهرني كين: لا تقل إنها عملية قذرة. قلت بامتعاض: ضيعنا على السوريين فرصة. رمقني باستخفاف. تابعتُ: فرصة هم بأمس الحاجة لها، إن لأي شعب الحق في أن ينعم بثرواته. قال بحدة: إنهم غير قادرين أصلاً على استغلالها. قاطعته: حجبنا عنهم بترولهم. قال: لا تبالغ، البترول مصادفة جيولوجية، ومن سوء حظهم أنه لم يفلت من مصادفات سياسية، وعاكسته أوضاع اقتصادية مضطربة، ومهما يكن فبوسعه، وبوسعهم الانتظار.

حينها، ولأكن صريحاً، لم يوضع الجانب الأخلاقي موضع

تساؤل، كان مفتقداً سواء في إقدامنا أو إحجامنا، كين لم يقنعني بمبررات إقدام الشركة أو انسحابها، لكنني اقتنعت بعدها بسنوات بمبررات انسحابها؛ أثبتته أحداث ١٩٥٦: في ذلك العام، فجّرتم أنتم السوريين أنابيب النفط المارّة في أراضيكم، ومنعتم عن الغرب نفطاً لم يكن ملككم.

في بار السان جورج، كررتُ على مسامع أوستن استحالة بقائي في بيروت. لاحظَ أنني رفعت صوتي متجاهلاً الجالسين على الطاولات المجاورة من مراسلي الصحف ووكالات الأنباء. سألني بصوت مرتفع: ألن يَحلَّ أحد مكانك؟ قلت له لم تجد الشركة موجباً لفتح مكتب في بيروت. همس بعد قليل: هل هذا للنشر؟ هزت رأسي. كانت الخطوة الأولى على درب الانسحاب، وخاتمة قضية النفط السوري. ثم، وببساطة، بمنتهى البساطة، أعقبتها الخاتمة الأخرى. /

أوستن ـــ / أمضىساندرز شطراً من ليلته الأخيرة في بار السان جورج جاهداً في تصفية سريعة لقصة النفط على مشهد من الصحافيين والمراسلين، وكانت حركة مرتجلة، مرتبكة ومتعثرة.

حكايته الأخرى كانت بلا جدوى أيضاً، انتهت على مشهد مني: وهو خارج من البار، التقى برجل دين من هؤلاء الذين كان يسألهم أخباراً عن كارل بيردي، توقفا معاً وانسحبا معاً. لم أخمن، ما الذي سيحمله رجل دين آخر من جديد لساندرز، أعلم أنه لا جديد، الأخبار ذاتها، المحبطة ذاتها، والمؤكدة لأخباري.

وكما جاء ساندرز، رحل، خاوي الوفاض، نظيف اليدين، طاهر

الروح، ومخفقاً تماماً. /

ساندرز ـــ / وأنا أكتبُ إليك رسالتي هذه، أفكر ملياً في الأمور التي جرت في الساعات الأخيرة؛ ثمة ما يتجاوزنا على الرغم منا، وكأنما، خاتمة تستدعي خاتمة، بتواليهما الواحدة عقب الأخرى أو بتواقتهما معاً، وهما على الرغم من تقاربهما أو تباعدهما، مشدودتان بعضهما إلى بعض، بطيوف لامرئية، أمتن من تلك العلل والنتائج الأكيدة المبعثرة من حولنا، تصعدان معاً وتتدهوران معاً، كلاً على حدة، معنى، ومصائر مترابطة، وربما واحدة.

لا حينئذٍ ولا بعدئذٍ، دهشتُ أو استغربت، إنما كما أتذكر حينها، كان إحساسي متنبهاً وحاداً، ومتمكناً في دخيلتي؛ بيقين ينفي المصادفة والافتعال أو أية تركيبة موهومة. شعور طاغ، لم أتخطه أو يتخطني، لا شيء يمكن أن يحول بيني وبين خاتمة نهائية، بدا ما سيحدث، قسراً كان أم تلقائياً، سوف يتخذ مسرحه في تلك الفسحة الأخيرة، كنت موقناً أنني عندما سأولي بصري عن أوستن، فسوف أراه عند مدخل البار، كأن لحضوره ثقلاً، حتى من غير أن يقع عليه بصري.

وإذ التفت، رأيته، كما لم أتصوره أبداً، عند مدخل البار، بقفطانه الأسود وقلنسوته السوداء ولحيته الأشد سواداً من السواد، الصليب الضخم متدلٍّ على صدره، واقفاً مع النادل الذي كان يشير بإصبعه نحونا أنا وأوستن، وكانت شهقتي مرسومة، كأنني شهقتها قبل برهة، مع خطواتي المرسومة دونما نقصان، هكذا: أنهض من مقعدي، أتوجه صوبه متعرجاً بين الكراسي، فيما كان يتوجه صوبي باستقامة، نلتقي في المنتصف بين طاولتين. يقول لي:

«أنا صديق المحترم كارل بيردي.» يسكت هنيهة «أنت جاك ساندرز، إذا لم أكن مخطئاً».

أنفاسي تتخبط في صدري.

«لا، لم تخطىء».

«سمعتُ من القس بيردي عن أبيك أشياء طيبة».

قلتُ مرحباً به:

«أنا أعرفك، أنت الخوري بطرس البحصاوي.» وسَكَتُّ هنيهات «بيردي كتب لنا عنك».

«أرجو أن يكون كافياً».

«لم يغفل شيئاً».

هل كنت واقعاً تحت تأثير سحر شرقي؟! هذا ما يطيب لنا قوله. لم يكن هناك سحر أو إغراء ولا جاذبية في هيئته العربية أو ملابسه الروحية وخلفه تماماً، منظر قاتم؛ مقاعد جلدية، طاولات صغيرة، أناس ثملون قليلاً، ندل يتلفتون بأناقة، ورائحة مخلل وكونياك ونبيذ فرنسي، وإنما لمحة تراءت خاطفة كلمعة البلور وملمس الخشب المصقول، كانت مجرد دوار بسيط ألمَّ بي. بعد ذلك، لا شيء مرسوم، لاحركة تخيلتها من قبل، كان كل ما يجري أو يقال، وليد لحظته.

دعوته إلى غرفتي في الفندق، ركبنا المصعد، تأملته في المرآة، أسمر اللون، قوي البنية، اللحية والشاربان نفسهما؛ كثان وخشنان، كان مطابقاً لرسائل بيردي، جلسنا إلى طرف الشرفة، في العتمة

السابغة راقبنا تساقط الأضواء والظلال في البحر. تنبهت إليه يحدق في وجهي، أرهقتني نظراته المتثاقلة، خلت أنني سأتصدع تحت وطأتها، كما أن الكرسي الذي يجلس عليه، سينقصف من تحته.

حينما ابتسم بوقار وخجل، شعرتُ أو أنني تذكرت أنها ابتسامة كتب عنها بيردي، لكنني لم أتوقع أن تكون بديعة إلى هذا الحد!! طالت، من غير أن تفارق ملامحه، فأدركت أنها ملازمة لوجهه، وبالضبط حزينة، أو.. كان يجدر بي تذكر أن الموقف يتطلب الحزن. قلت مستبقاً خبراً سأسمعه منه خلال لحظات، أو أقل:

«بيردي.. مات».

«بيردي حي».

كان الخوري البحصاوي عائداً لتوه من سيناء، بعد أن رافق بيردي إلى دير القديسة كاتارينا، أودعه، وودعه، ووعده؛ بأن يعرِّج على بيروت ليعتذر لي بالنيابة عنه، بعد أن وصله مني أكثر من سؤال وإعلان عن رغبتي بلقائه، تمنى أن تسعفه قواه برؤيتي، لكن لا ظروفه ولا صحته تسمحان له، ويأمل مني إبلاغ تمنياته الطيبة إلى شارلوت العزيزة، باركها الله.

خطر لي أن بيردي اختار اقتفاء أثر بيرج، ولجأ إلى سيناء، مثواه الأخير.

«ألم يختر الفلسطينيين؟!».

«ما زال عند اختياره».

الأونروا، لم تف بما كان يرجوه. إن قنطاراً من المساعدات الإنسانية لا يمحو مثقال ذرة من الظلم البشري، ثلاث سنوات من عذاب الله والضمير، وقسوة الرؤية بعد ظلمة العمى، مصلوب على الرجاء والشقاء في عز الحر والبرد والوحل، بين الخيام والهوان، يعاين ما اقترفه حيالهم، وفي حقهم من جرائم، ألم يعاون ويشارك ويساعد على طردهم من قراهم ومدنهم، وطفولتهم وشبابهم وشيخوختهم، من البيوت التي ترعرعوا فيها، والحقول والأحياء والشوارع، تاركين خلفهم أهلهم وقتلاهم وقبورهم، إلى خيام يأرقون ويمرضون ويجوعون ويبكون ويصلون.. وتزهق أرواحهم فيها؟! كان يأمل أن القدس مبعث النور، ستكون مبعث الأمل، ويشهد إشارة لا تخاتله، ولا يخطئ في قراءتها ثانية، إشارة الرب الحقيقية، بشارة الحدث العظيم، إشارة تحق الحق وترفع الظلم، فانتظر.. ليرى العالم يتألب عليهم بجهله وتجاهله، بنفاقه وكذبه، بجوره وأحقاده. انتظار محموم ومن عبث، لن يأمل شيئاً من دولته أميركا أو أوروبا أو الدول العربية. كان يراهم، وحدهم، هكذا سيبقون، عمراً، أعماراً بلا نهاية، على الحدود وفي المنافي، لاجئين ومشردين، ومسكونين بأراضيهم. فتوجه إلى الله، وحده، ناذراً صلواته، صيامه، توسلاته، دموعه، روحه، ودمار عقله، لما يدعى الحق والعدل.

لبثت، أو لبثنا وقتاً، أنا والبحصاوي صامتين، تخامرنا الفكرة نفسها: بيردي يسعى إلى الموت. لكن البحصاوي لم يدع هذه الفكرة تمر بسلام، أو يتركني أستسلم إليها مطمئناً. كان في صمته استخفاف ينمّ عن سخرية ماكرة، لا تتخفى على تساؤل عنيد وقاس، هل تكافئ تلك الصلوات أو هذا الموت ما جناه بيردي؟! بمعنى، لن يُكَفِّرَ بيردي مهما فعل عما ارتكبه!! تمنيتُ

بكل قوة أن أرسل بالخوري العربي إلى عذاب أشد عصفاً وتنكيلاً، وشكوك أكثر حيرة وإيلاماً من هذا التماوت البطيء والجاف المتواري في دير قصي. ألا يستحق رداً يزعزع عناد جبروته ويقينه الساخر؟!

«إذا كان الله موجوداً، فسوف يسمع دعوات بيردي وتوسلاته، بيد أنه لن يتدخل، ليس لأنه لا يهتم، وإنما لأننا لا ندرك مقاصده وغاياته، هذا ما كانت أمي تؤمن به، علمتني إياه ولم أؤمن به، وعلى الرغم مما ابتلاها الله به من مصائب، اعتقدتْ أن أي مكروه ينالنا، هو تجربة وليس نقمة. أنت تعرف بأن هناك شعوباً أصابها ضيم وضر يفوقان الطرد والتشريد، وشعوباً أفنيت عن بكرة أبيها؛ في حال كان الله يرى ويعلم فقد أسلمهم للزلازل والفيضانات والبراكين.. ولحد السيف أيضاً. وسواء أمعنا النظر بعقولنا أو بعواطفنا أو لذنا بأدياننا، فلن تكون الحياة والموت سوى لحظتين عابرتين، أو لحظة واحدة من حلم يخالطه كابوس، أو بالعكس. نحن في أعماقنا، نتمنى وجود حياة أخرى غير هذا الفاصل البارق الحافل بالبغضاء، وإن بقليل من الحب. وأنتم أيضاً تتمنون شيئاً في هذه الحياة، أو منها، مهما كان، فلا مفر من القبول بما حدث».

لم يزاول ملامح البحصاوي ذلك التعبير الثابت، هو الثبات على شيء لم أتبينه، وأزعجني، تخيلته سيتكلم بالثبات نفسه.

«نحن نؤمن بأن الحياة نعمة وأعطية عظيمة من الله، وأن الحق والعدل أمران ليسا عابرين، لا وزن لهما، في حساب إرادة تشاء أو لا تشاء، لا ندرك مقصدها وغايتها، إنهما شأن البشر، أكرمهما الله بهما بالعمل لهما، ويجب أن يتحققا في الحياة، مهما كانت

الحياة فاصلاً، أو لحظة عابرة، أو كان الموت نهاية، أو بداية لحياة أخرى. أنا على يقين أنه في الحياة لا شيء يعوض عنهما سواء احتوانا حلم أو كابوس، وإلا فلا مسوغ لوجود الله والبشر، ولا الأديان والأنبياء».

«اسمح لي.» استوقفته، كان قد أخذني على حين غرة «الحق والعدالة ليسا عربيين على الإطلاق، لن تغيروا العالم. افهمني؛ ليس لدى العالم الوقت ولا النية لأن ينصفكم، سأكون صريحاً معك، لم يعد أحد يأتي إليكم كي يعرفكم عن قرب، أو من جديد، بل لأسباب أخرى وكثيرة، لا علاقة لها بالروح أو الشعوذة. أنا أميركي وموجود هنا بسبب البترول، ولا يؤسفني هذا. دعني أنصحكم نصيحة، وأعنيها، رغم ما فيها من غبن ووقاحة، أرض الله واسعة، لماذا لا يبحث الفلسطينيون عن أرض أخرى؟!».

أفترت ملامح البحصاوي عن ابتسامة عذبة، ومريرة؛ تميزتُها من خلال كثافة شعر شاربيه ولحيته، تنبعث عن رقة وصبر معاً.

«بيردي يستطيع أن ييأس، أنا لا أستطيع، إنها بلادي.» /

لم يتمهل العقيد، طلب من وزير الأشغال الاتصال بممثلي الشركات الإيطالية عن طريق سفارتهم. خمن أن تحرشه بهم، سيدفع الأميركيين والروس إلى التحرك، الأميركان لم يبادروا، والروس لم يحركوا ساكناً.

نقل الوزير للعقيد نتيجة اتصالاته، ممثلو الشركات المستقلة لم يبدوا تحمساً؛ وأطلعه على تحقيق نشر قبل يومين في جريدة الأوبزرفر عن الأوضاع السياسية والاقتصادية في سورية، يتضمن إشارة إلى عدم جدوى الاستثمار النفطي في سورية لعدم توفر دلائل قوية على وجوده. لم يفت العقيد أنها خديعة أميركية لإبعاد الإيطاليين ومعهم الروس، تمهيداً لاستفرادهم بالنفط. بعد أيام، وفي مجلة نفطية متخصصة؛ كانت الإشارة مقالاً كاملاً، مدعماً بعلم طبقات الأرض والرسوم البيانية والأرقام.. سورية بلد خال من النفط.

وكان لدى العقيد ما يشغله فعلاً عن النفط والمجلات المتخصصة وغير المتخصصة: تحرشات إسرائيلية، تهديدات تركية، والعراقيون يغازلون الأحزاب، أحزاب المعارضة تتململ، النواب في البرلمان ينتقدون الوزارة على كل كبيرة وصغيرة.

وكان، هو، قد نفد صبره من وزارة أداؤها كان في أحسن أحواله ضعيفاً، ومتردداً.

القسم الثالث

شاطئ على البحر الأبيض المتوسط

استغرقت لقاءاتي مع أونوريه دولمونت عدة أيام، ودارت أحاديثنا في بيته في ضاحية نويي على مسافة يسيرة من باريس. في اليوم الأخير، اقترح بعض التغيير، اختار أن يُطلعني على مجموعة مقتنياته النادرة والطريفة.

أثناء أحاديثنا، تطرق إلى مهماته السياسية والدبلوماسية في أفريقيا، لم أتوقف عندها، بل توقفت طويلاً أمام التذكارات السوداء المجلوبة من الكاميرون الفرنسية وداهومي وغانا ونيجيريا.. والتي احتلت ركناً في الصالون الأرضي المؤثث على الطراز الشرقي، كانت شاهدة بالرغم من انزوائها على حضورها المتميز: أقنعة صغيرة، أقنعة بالحجم الطبيعي، منحوتات من العظام، دبابيس من العاج يمثل كل واحد منها رأس امرأة وكتفيها، تنانير أطرافها مزركشة بالأجراس المعدنية صنعت من الأعشاب أو القماش

ومزينة بالأصداف وخرز المرجان والودع واليشب، أغطية رأس من ريش ملون، عيون زجاجية، أساور وخلاخيل من النحاس الأصفر والبرونز.. وطبول.

«ألا تفتقر، والطبول إلى جوارها، إلى ألسنة اللهب، تتأجج بنيران تضطرم في ليل بهيم، وتتصاعد مطلقة أرواح الآلهة والأسلاف؟!» تساءل دولمونت وأردف «بعض احتفالاتهم الدينية الهمجية، تقام خصيصاً لنا، نحن الأرواح الشريرة، يستنزلون علينا اللعنات، يستنهضون ضدنا القوى الخفية لتساعدهم على طردنا.» وأخفى ملامحه الساخرة وراء قناع أسود «بعد رحيلنا، ستهبط عليهم البركات والخير، والحظ السعيد».

تدرجت، من حولنا، البسط العراقية فالسجاجيد الإيرانية، وإلى الجدران الأرائك الدمشقية والطنافس الخليجية والمتكآت المغربية. في الزوايا، تهدلت أقمشة الدمقس كجداول ماء جار رقراق. وعلى النوافذ، انسدلت ستائر البروكار، متموجة بتثنيات زخرفية حارة، فيما التحف المتوزعة على الرفوف الزجاجية وفوق أعمدة الرخام القصيرة وعلىالأرض، تتوالى بإيقاع سكوني بارد: إناء على هيئة زهرة لوتس، أقداح من ذهب، جرار فخارية، سلال سودانية، أواني شراب من فضة. جزء من جدار قصر أو معبد رسمت عليه أشكال نباتية وطيور من الفسيفساء.. أسبغت عليها الصواني النحاسية ودلة القهوة الحجازية والخنجر اليمني، والمشغولات اليدوية من الخشب المحفور، ومشغولات الموزاييك؛ صدى سطحياً، متكسراً، ومحكماً.

كانت، سواء تعامدت وتقاطعت، أو استدارت وتلوّت، أو حتى انقسمت إلى ما لا نهاية، تعيد تشكيل تقاطيعها وتفاصيلها إلى

لعبة تعاويذ منمنمة وطلّية دون أن تفلح في إخفاء نهايات صغرى تتعاقب، وتشكّلُ، دونما هوادة، خلفية مبهمة لحديثنا، وخطرة، كأنما إلى نهاية كبرى وأخيرة.

على الجدران، صور زيتية ومائية لشوارع وأسواق، يعود زمنها إلى ما قبل أكثر من خمسين سنة (مارة يهرولون ضحى يوم ماطر في زقاق كويتي. سوق في القاهرة في نهايته جامع وعلى طرفيه وكالات ودواب وباعة ومشترون ونساء بملايات لف. ساحة المرجة في دمشق، تعج بالبشر وعربات الخيل، بناء العدلية إلى طرف، ونهر بردى موغل في البساتين، ومن بعيد يلوح الطابق العلوي لفندق فكتوريا. شاطئ رملي على البحر المتوسط..) أمكنة قد تصبح، بقليل من الدخان، أو الغبش، والأسواق المسقوفة وبعض القبب والتكايا مع مساحة من الزخرف، مثيرة وشبيهة بمواقع مطلوبة لتصبح صالحة لأن تدور عليها رواية عربية على النمط الغربي بأشخاصها المجهولين المتخلفين الخطرين، بالإضافة إلى شطحة غيبية وغبية من غواية شرقية، ومكائد نسائية مبتذلة؛ رواية جاذبيتها ذلك البطل الغامض، الملتبس والخارق دائماً، أميركياً كان أم إنكليزياً أو فرنسياً، متوار في مكان ما، على مقربة، يراقب، يخطط، يظهر في مستهل كل فصل، يكتبه قبل أن يضرب ضربته ويختفي.

قبل أن نقفل حديثنا، أضاف دولمونت لمسة خفيفة وناعمة، فتح الستائر المسدلة فانفرجت عن ظلام تلألأت على جنباته عروق القصب، برقت ولم تتوقف عن الوميض في الليل الباريسي الجميل المنبسط مؤطراً بالبروكار، باسطاً على الصالون سحره وسواده.

مَزّقَ الليلُ الصالونَ خلسة، وشطره بفجاجة بشق طولاني، بات

كل منا إلى جانب، في مكان لم يعد حيادياً على الرغم من التحف الشرقية والتذكارات السوداء أو بسببها. وأيضاً، لسبب آخر، كلانا أخفاه، هو احتفظ بشكوكه ولم يبح بها، أما أنا فقد كان إحساسي بالظلم عظيماً وقاهراً، وأمسى حديثنا على وشك الانتهاء، وعلى الأصح، الانهيار.

وأجزم أن دولمونت ـ ليس بداعي المجاملة ـ أراد إنقاذه، بوضع خاتمة موفقة نوعاً ما، لحديث طويل، بات جافاً ووعراً. قال:

«لو أن هناك شخصاً ثالثاً يرانا، لأيقن أننا لسنا أكثر من أشباح تتخايل على صفحة زمن مضى».

وكأنه زمن مضى لمجرد مرور بضع سنوات. قلت له:

«إننا نحمل قدراً من الحقيقة، يتهاوى إزاءه أي وهم».

ما زلنا على الصفحة نفسها، لا نتخايل عليها، قدر ما نتجسد على صفحة زمن يستمر؛ إذ، لا يمكن أن نرتجي النسيان، قبل أن تتحلى أرواحنا بمقدار كبير من التصميم والسذاجة.

هذا القسم يحتوي على ما تبادلناه في جلستنا هذه الأخيرة، ما يخص منها كرو، وأشياء أخرى، آثرنا ألا نتحدث عنها.

قال دولمونت:

ـ لم يكن تريثنا، في البداية، سوى أننا اضطررنا إلى وضع قضية كرو بالكامل في عهدة اللبنانيين وتركناها تأخذ مجراها بتكتم شديد، التحقيقات الأولية أشارت إلى أن كرو أجرى عشية وصوله عدة اتصالات هاتفية، أحدها مع شركة الطيران الفرنسية، ألغى بها حجزه مؤجلاً سفره، فيما أخفقوا في تعقب اتصالاته الأخرى. في صباح اليوم التالي، اتصل بشركة الطيران ثانية واستفسرهم عن إمكانية حجز مقعدين على أول طائرة مغادرة إلى باريس. في اليوم نفسه زارته السيدة سعاد في الشاليه، كان على موعد معها، ويبدو أنها الشخص الذي كان سيرافقه إلى باريس، بقيت معه حتى المساء، ثم خرجا يتنزهان على الشاطئ، حيث لحق بهما الموظف السوري، لم يطل حديثهما عندما سقط كرو قتيلاً، هربت السيدة سعاد وتابعت وحدها إلى الحدود السورية، فيما استقل الموظف سيارة أجرة أقلته إلى مقر الوفد السوري.

ـ ما أعرفه أن الأمن اللبناني لم يواصل التحقيق.

ـ لقد ماطلوا كثيراً، لهذا لم يسجل التحقيق تقدماً يُذكر. حاولت إجراء بعض التحريات، فواجهتني عقبات كثيرة، معرفتي بكرو

سطحية وصِلَتُه بسفارتنا محدودة، عموماً وسائلي كانت قاصرة؛ ومع هذا تابعت استقصاءاتي وقادتني إلى السوريين بشكل رئيسي، وبشكل أقل إلى الروس والشركات المستقلة. حينما شكوتُ للسفير مراوغة الأمن اللبناني، لم يستجب لي، كان مقيداً بأوامر تقضي بعدم التدخل، إلى أن عَلَّقَ اللبنانيون التحقيق.

ـ ألم تغفل الإنكليز والأميركيين؟!

ـ كان إصرار اللبنانيين على استفرادهم بالتحقيق مريباً، وتشددوا إزاءنا محاباة للسوريين، في النهاية خدمت إجراءاتهم وبشكل ملائم جداً ما أراده الأميركان والإنكليز.

ـ أعرف أن اللبنانيين اشترطوا القيام بتحقيقات كاملة وشاملة، لا تستبعد أحداً، أي كف أيديهم، أو إطلاقها بالنسبة للجميع، أنتم وافقتم على إطلاق التحقيق ثم تراجعتم.

ـ كانت تعليمات الخارجية، الاكتفاء بالمرحلة التي وصل إليها التحقيق وتوقف عندها؛ بالإضافة، إلى إصرار عدة جهات على عدم الكشف عن شيء ذي أهمية، تخوفوا أن تفضح قضية كرو قضية النفط. وانتقل التحقيق، سراً، إلى القنوات الخلفية وحُسِمَ فيها.

ـ في كتابه، لم يخف أوستن، أن كرو كان عميلكم في سورية.

ـ أوستن اتهمنا بأننا لم نحسن استخدام كرو، كان هذا في معرض تلميحه إلى كفاءته في استخدام عملائه، كرو لم يعمل لنا، رغم أننا شئنا أن يبقى على صلة بنا، حاول جاهداً إبعادنا عن النفط، لم يطلعنا على سره، وكان بوسعنا مساعدته وبوسعه

مساعدتنا، ربما لأنه توقع أن نخذله كما خذلنا غوبلان.

ـ بينما أكد ساندرز في رسائله على علاقة تربط أوستن بكرو.

ـ مجرد شك، كرو لم يتورط مع أوستن.

ـ لكنه كان غارقاً في النفط حتى أذنيه، بقاؤه في سورية لم يكن إلا للحصول على أوراق غوبلان، وحصل عليها، ليسلمها لكم أو للأميركان.

ـ لم نجد الأوراق في حقائب كرو.

ـ حقائب كرو سُلِّمَتْ للأميركان وتحفظوا على محتوياتها.

ـ أنا واثق أنه لم يعطها لأحد، بل ولم يظهر لها أثر على الإطلاق، وإلا كنت علمت بأمرها.

ـ باعها لأوستن، لا تنس اتصالاته ليلة وصوله.

ـ سأقول لك سراً لا يعرفه أوستن ولا ساندرز، اتصل بي كرو مرتين قبل مقتله، وأخفى عني مكان إقامته. في المرة الأولى، أعلمني بأنه هارب من سورية وبحوزته أوراق غوبلان؛ وسألني إن كان بوسعي حمايته. ساومته على ضمان سلامته مع مكافأة مجزية وممتازة مقابل الأوراق. لكنه رفض التخلي عنها. هددته بمنعه من السفر، وحذرته ألا يضطرني لأخذها بالقوة. بعد ساعتين، اتصل يعلمني بأنه أتلفها، وطلب مني إبلاغ الجميع بفعلته. أتذكر كلماته تماماً، لقد قمت بعمل صائب ورائع، كنت أنوي القيام به حال حصولي عليها. خلته يكذب فصارحته، أقسم أنه لا يكذب، تصورته يعمل لحسابكم؛ اختلف معكم وأقدم على عمل في

منتهى الخراقة انتقاماً منكم. سألته بحيرة: لماذا؟! قال: أريد منع ضرر سيصيب السوريين، ضرر لا مفر منه إلا بالتخلص منها. صرخت به: أي ضرر؟ لقد أصبتنا جميعنا بالضرر وعلى رأسنا السوريون. قال بأن السوريين لا يدركون ما الذي يؤذيهم أو ينفعهم؛ وشيئاً ما أيضاً من هذا الهراء، وكأنه كان يعمل لجهة لم نعلم بها ولم تظهر إطلاقاً. ومع هذا تراءى لي أمر أذهلني، أمر غريب، لم أصدقه، أنه تصرف بالنيابة عنكم.

ـ كرو لم يتصل بك ليقول لك شيئاً لا يصدق فحسب.

ـ كان يحس بخطر على حياته، لذلك قال بأنه قد يلجأ إلى السفارة؛ وأيضاً ليطلب عدم زج البعثة في ما جرى، مدركاً أن عمليته ستبدو مشبوهة، وتلحق اتهامات ظالمة بالبعثة.

ـ هل بدا لك مفهوماً؟!

ـ لا، ربما لأنه عمل خلافاً للجميع.

ـ وانتهى إلى تنفيذ ما أراده أوستن وساندرز.

ـ كيف؟!

ـ كانت رغبتهما ألا تقع أوراق غوبلان بيد أحد.

ـ ما أنا واثق منه، أن كرو لم يعمل لحسابهما، أتخيل أنه كان يعمل لحسابه، متطوعاً لدور غامض لم يقيض له أن يكمله. فاجأه أمر، أطاح بتوقعاته؛ من منظور آخر، ربما كان مهووساً بمهمة نبيلة قد تكون حمقاء؛ وفي الحالتين؛ ليس بإمكاني تفسير اصطدامه بكم، أو لماذا قتل طرواح؟! كل هذه الأسئلة وغيرها، لن تجد

جواباً شافياً بمعزل عن الموظف السوري الذي التقاه كرو على الشاطئ. ترى هل هو عميل للمخابرات السورية، تتبع كرو في دمشق، والتحق أو ألحق بالوفد السوري بصفة موظف؟! أم عميل نفطي لدولة أو شركة، أم مجرد صديق اجتمع به في بيروت بناء على موعد سابق؟! كذلك، السيدة سعاد، هل استغلت علاقتها الجيدة أو الحميمة بكرو لاستدراجه إلى منطقة معزولة، أم علاقة حب حقيقية، اضطرته إلى تأجيل سفره، وأودت به؟! هل تم لقاء الثلاثة دونما تخطيط أم عن عمد؟! ثم، هل قتله الموظف بالمشاركة مع السيدة سعاد، أم وحده؟! ما الذي يفصل في هذه الاحتمالات، وربما غيرها أيضاً؟!

ـ كان من الممكن أن يفصل فيها التحقيق.

ـ التحقيق عَبَثَ بالأدلة، ولا يُركن إليه. تصور، أنهم لم يحاولوا التثبت فيما إذا كانت الرصاصة التي صرعت كرو وأصابت صدغه بدقة، قد أطلقت من مسافة قريبة جداً بحيث لم تخطئه، أو من مكان بعيد، سددها قاتل محترف أو أكثر، بالإضافة إلى أن الرصاص، ربما أطلق من عدة مواقع، لكن أحداً لم يتحرَّ ما جرى، بينما تقرير الطبيب الشرعي اكتفى بالإشارة إلى أن الرصاصة القاتلة أطلقت من مكان بعيد، نافياً بذلك الشبهة عن الموظف السوري. أنا لم أثق في التقرير، ومن سوء حظ كرو أن الخارجية قبلت بهذا التفسير وأيدته، ولعلها، ولا أماري، هي التي أوعزت به كي لا يمتد التحقيق أبعد من بيروت.

لئلا يسترسل دولمونت في تصوراته، وكي لا أبدو أنني أخدعه، وجدت من الأمانة مقاطعته:

ـ مسيو دولمونت، أنا أيضاً عرفت كرو.

ـ أين؟

ـ في دمشق.

ـ هل عرفته جيداً؟

ـ أنا هو الموظف السوري الذي كان معه في لحظاته الأخيرة.

توتر الجو بيننا، اكفهر وجهه وتحفز، وساد الصمت والنفور، كنا قد ارتكبنا إلفة لا معنى لها، تقاربنا أكثر مما يلزم، فيما كان ينبغي الحفاظ على مسافة فاصلة، تبقى ثابتة ومهددة، وغير قابلة للاتساع.

ابتسم دولمونت بعسر، نجح بصعوبة في جعلها طبيعية، مستدركاً وبدبلوماسية:

ـ آسف، لأنني اتهمتك.

أجبته بلا مبالاة، لكن بلباقة:

ـ لقد وزعت اتهاماتك بعدل.

ـ لا أعفي نفسي من الشطط ولا من الملامة، لم أكن محقاً كلية.

ـ لا يهم، كان كرو صديقاً لي، أو ظننت ذلك، ورغم هذا، ومثل غيري، لم أفهمه كما تمنى.

لبث ساكناً يرمقني، ولقد أمعنت في صمتي. سألني بعد حين:

ـ ما رأيك في ما قلته؟

كانْ بوده أن أجيب عن أسئلته المطروحة كلها:

ـ ما أعرفه قليل.

ـ هذا القليل سيكون كثيراً.

ترددتُ، ثم قلتُ:

ـ سأصحح بعض معلوماتك، كرو لم يقتل طرواح.

اعتدل، حابساً أنفاسه، وراغباً في تصديقي. فأكملت:

ـ ثَبُتَ هذا في الكشف الطبي.

أطلق أنفاسه، معقباً بلا حماسة:

ـ عسى ألّا يكون مماثلاً لتحقيقات بيروت.

لم التفتْ إلى تلميحه.

ـ شكا طرواح في الفترة الأخيرة من اختفائه من آلام صدرية حادة، أُدخل إلى المستشفى وأجريت له الفحوص الطبية، شُخِّصتْ حالته بذبحة صدرية، نُصح بالراحة أسبوعاً على الأقل مع تناول الأدوية اللازمة، لكنه هرب بعد يومين؛ ظنه عارضاً، أو أنه أحس باقتراب الموت، لم يأمن على نفسه في المستشفى، كان يبغي مكاناً أميناً يريحه من عناء التنقل والتخفي، قَدَّمَ كرو إليه المكان، وصادفه الموت في مقر البعثة.

ـ قيل بأن رصاصة أجهزت عليه.

ـ ليس صحيحاً، فاجأت طرواح أزمة قلبية عنيفة، كانت القاضية،

لم يكن الانطباع الخاطئ والمتسرع إلا بسبب الجرح العميق النازف، والناجم عن اصطدام رأسه بالطرف الحاد للطاولة المعدنية، فأحدث شرخاً في جبينه.

سألني متردداً:

ـ لماذا أخفى كرو جثة طرواح؟

ـ خاف من إخضاعه لتحقيق يرغمه على الكشف عن أوراق غوبلان.

لم أكمل، أحسستُ بعدم الجدوى. قلتُ مختتماً إجابتي:

ـ هذا كل شيء.

قال دولمونت بارتياح:

ـ إذاً، لم يقتله.

ولم يعد راغباً في المزيد. انزعجتُ، ونبرتُ بحدة:

ـ الحادثة وقعت بوجود كرو، طرواح لم يعطه الأوراق قبل موته، أو يتنازل له عنها.

ـ ما أدراك؟!

ـ تعرض طرواح إلى جهد لم يحتمله قلبه الضعيف، من جراء مشادة حامية دارت بينهما، كرو لم يأخذها منه طواعية.

ـ لا تتحزر.

ـ انتزع كرو أوراق غوبلان من طرواح قبل موته، أو سرقها منه

بعد موته.

أزحتُ بصري عنه، إلى معروضاته، أشياء ساحتْ أشكالها وضجّت ألوانها، في مرآة لم أر نفسي فيها، رأيت فيها دولمونت مسمراً إلى رغوة زمن، ومهملات.

عندما ارتددت إليه، كان يحدق فيَّ، يسبر غوري، يستحثني بنظراته. فتجاهلتُه.

قال بتؤدة:

ـ لا أدري إلى أي حد أسأتما، أنت والسيدة سعاد، تفهم كرو!!

كانت ملامحه كما كلماته تشف عن قصة يريد امتحانها.

ـ سعاد لم تستدرجه، أنا لحقت بهما إلى الشاطئ من غير اتفاق معها، تكلمتُ معه قليلاً، وأعتقد بحدة، ثم رأيناه يسقط صريعاً.

لم يكن هذا ما يتوق إلى سماعه، موجزاً ومبتوراً، تفادى أن تنم ملامحه عن شك أو اتهام، سألني وحاول أن يبدو استفساره وكأنه فضول:

ـ لماذا لحقت بكرو؟

من بعيد، تناثرت الأضواء الصغيرة، مترجرجة في عمق الليل، سلكتُ طريقكما على الشاطئ، توغلتُ وراءكما في العتمة، متعقباً مصيرينا، قلبي منقبض، أصوات الموج تفيض وتغيض تحت سماء مدلهمة، خضم زيتي وزبد رمادي، أشق في الرمل درباً، خواطري تنزف في رأسي، ولا تكبلني، سعاد بصحبته، **كنتِ معه، أمضيتِ**

اليوم بطوله معه، وستقضين الليلة معه، وكما غرر برجل استجار به، سيغرر بامرأة استهوته، سترحلين معه، ولن تلتفتي خلفكِ. لمحتهما ظلين غامقين يرشحان من السواد الفاحم، يسيران الهوينى ويتمايلان، أحث خطاي نحوهما، **همساتكما متناغمة وفي نجوى، متكئة على ساعده، ومستسلمة له،** حولهما تترامى آفاق مقفرة، وأضواء آخذة بالتهشم، ضوءاً إثر ضوء، والموج طالع.

ــ كي أقنع سعاد بمغبة السفر معه.

ــ هل أقنعتها؟

ناديتكِ، التفتا متلاصقين، عرفاني من صوتي. **قلتِ: أنتَ.** على بعد خطوات. **هتفتِ مازحة: كم أنت وسيم بملابس السهرة. لم أركِ فرحة هكذا، متألقة ومتأنقة وجميلة، أجمل من أن يحتويك ليل،أو رجل، على أهبة الغياب في الليل مع رجل، ضالعة في السفر والرحيل. قلتُ لكِ بصوت مخنوق: ابتعدي عنه.** وكأنما أصبحا شخصاً واحداً، أحاط خصرها بذراعه، وأمسكتْ بمعصمه.

واجهتُه: كرو قل لها أنك قتلت طرواح. سمعتُ شهقتها: ما الأمر؟! رد كرو بعصبية: لم أقتله، مات وأنا دفنته. أفلتت يده وهتفت مدهوشة: لم تقل لي!! قال: كنت سأقوله. تدخلتُ غاضباً: إنه يكذب. فأنكر كرو.

ــ ماذا؟

ــ أقول هل أقنعتَها؟

ــ لم يتسن لي.

أراكِ تصدقينه، أراكِ لا تكذبينه. أبتعدُ، أنزع قدميّ من الرمل، لتغوصا في الرمل. أقول لكِ بأسى: كيف تيقنتِ؟! أدس يدي في جيبي، يسود دهر من الصمت. **ما الذي جال في رأسكِ، وقد وقفت حائرة ومترددة؟!** ودهر آخر من الصمت، **كنتِ تحولين بيننا.** أسحب يدي من جيبي، أصوبها نحوه؛ **كنتِ في سبيلك إليه. يدوي السكون،** سعاد تصرخ، تندفع ناحيتي هلعة، ترفع يديها، كفّاها باتجاهي، تمنعني، أنحرف عنها، يعم صخب، كأنما السماء اشتعلت بالنار، النار تنصب فوقنا، كرو يتهالك أرضاً، تصلبت سعاد في مكانها، تصلبتُ في مكاني. **كم لبثنا وأيدينا ممدودة، كم لبثنا ونحن نرخي أيدينا؟!** سعاد ترتد إلى كرو كالبرق، تنكب عليه، تمسك برأسه وتنشج، كرو بلا حراك، وأنا بلا حراك، **ترفعين عالياً، يدين ملطختين بدم من لون الظلام، وتطلقين صرخة صعقتي.**

ـ أعتذر لأن اتهاماتي لم تستثنك.

ـ أنا لا أستثني نفسي.

حاولتُ إنهاضها، نترت يدي عنها، وانطلقت تركض. **تصرخين في واد وأتبعك في واد، نخوض في الرمل ونتعثر في الرمل.**

ـ هل كانت السيدة سعاد تحب كرو؟

ـ كانت مفتونة به.

عثرتُ عليها مرمية إلى جوار الإسفلت، معفرة بالرمل والدموع، جررتها إلى السيارة، تلهج بلا وعي ومن غير وضوح. قدت السيارة إلى مدخل طريق الشام. قلت لها قبل أن أنزل: لن أتأخر،

غداً صباحاً سأكون في دمشق وأقول لك كل شيء. **وتمنيت أن أمسح عنكِ دموعكِ.**

ـ أعتقد بأن أمرها كان يهمك كثيراً.

ـ لقد حصل بيننا سوء تفاهم مريع.

ـ ألم تتغلب عليه، حين اتسع الوقت لك، وحدك؟!

ـ رأيتها فترة قصيرة، لم تكن كافية، فاجأتني بعدها برحيلها.

ربما لأنه بدا علي التأثر الشديد، شاطرني دولمونت الوجوم، ثم قال:

ـ من حسن حظكما، أن فراقكما كان هادئاً رغم الصخب والقتل والدماء، لا أعرف فيما إذا كنت ترجو منها شيئاً، لو كنت في مكانك لما توقعت الكثير.

ـ دائماً ما أقول لنفسي بأن انتظاري لها رمز لن يخيب.

رمقني بنظرة عميقة وهز رأسه آسفاً، بدا رغم معرفته الضئيلة والحديثة بي، متآزراً معي في محنتي. قلت له:

ـ تلقيتُ منها رسالة.

ـ أرجو أنها بعثت فيك الأمل.

ـ الأمل والألم.

رسالتها حملت ختم لبنان البريدي، المحطة ما قبل الأخيرة، سعاد لم تذكر عنوانها، أبقته سراً، كتبت بأن رسالتها لن تصلني قبل أن تنتقل من يد إلى يد وتجتاز مسافات شاسعة، لكنني أعرف بأنها كتبتها من القاهرة، أو الإسكندرية. ولقد كان دولمونت لبقاً وحساساً، لم يلحف عليَّ بمعرفة مضمونها، غير أنني لمّحت له عن فحواها، الهوى والشقاء والضمير؛ مضافاً إلى كل هذا، بالنسبة إليّ، المزيد من الانتظار.

شاركني دولمونت همومي بالقدر الذي أسررته منها، وكان رغم شيخوخته شاباً بعواطفه الجياشة، ولم يقلّ عني تشوقاً إلى نهاية سعيدة، وبلغ به التعاطف والخيال أن تصوَّرَ نهاية ميلودرامية لقصة عربية، على أنها الأفضل، لقصتنا الرومانسية، إذ على الرغم من المصادفات والعقبات والالتباسات المريبة تستحق الظفر بلفتة رؤوفة من القدر، اعتباطية نوعاً ما، لكن جائزة الحدوث في مدينة كدمشق تبدو مواتية لقصص مضادة للفراق والتعاسة.

لم تفلت قصتي الرومانسية من دولمونت، كان تواقاً إلى أن يحيلها إلى تذكار عاطفي في حياته. المهم أن دولمونت أسقط عنه، وبمرح، تعقله الدبلوماسي وتنفج جامع التحف الأريب. على أن النهايات السعيدة لا تصنع من تمنيات عبثية، إلا إذا شئناها خيالية بالكامل.

ولقد جعلتها سعاد، برسالتها القاسية، ربما، مستحيلة بالكامل.

لن أزعم أن رسالة سعاد كانت قاسية، لأكن أكثر دقة، كانت مريرة ومفرطة في إيلامها، احتاجت سعاد إلى سنوات لتحزم أمرها وتكتبها، واحتاجت إلى القوة والجرأة لتعترف لنفسها بأنها أحبتني؛ وإلى قدر هائل من الضعف لتعترف لي بأنها ما زالت تحبني.

(في غربتي فكرتُ بكَ طويلاً، وفي الأشهر الأخيرة
لم أكن أفكر إلا فيكَ)

لا الزمن ولا الجرأة، جعلاها تفكر بالصفح عني؛ أما القوة والضعف فعّززا تصلبها عن قليل من الغفران. لن تسامحني حتى على ما يجوز نعته بثأر، أو دفاع مشروع، أو زلة غير مقصودة، أو غضب جامح مهما كان سببه.

(لا يصح التهاون بكل ما من شأنه المساس بالحياة
بأذى أو ضرر)

ومع أن الشقاء الذي يلازمها تحسه ضئيلاً حيال ألمي من غيابها، فهو يمنعها من مواساتي.

(لن يخفف عني وعنكَ، أن أشاركَكَ خداع الذات،
الضميرُ كما القانون، يَصِفُ الجريمة باسمها)

سعاد، لن أتنصل مما أقدمت عليه، إن كان للضغينة نصيب فيه، فللهوى نصيب أكبر، ولو أن هواي تخلّف لقصرت ضغينتي عن ارتكابه. هل حبكِ انتقامك، واختفاؤكِ تشفّيكِ؟! إن شئت هذا، فلن يردّني عنك انتقامك ولا تشفيك.

أنا لا أجهل ما الذي أملاه عليَّ الهوى، ولا الضغينة، لا أطمع منك بإطراء أو رثاء، ولن أسألكِ أنتِ بالذات صفحاً عن زلة تقصدتها، ولا غفراناً عن جريمة تعمدتها، أو لم أتعمدها.

أضع كتابي هذا، على الضد من القانون والضمير. للحب ضميره، أما القانون، فأيهما، قانوننا أم قانونهم؟!

سعاد، إذا كان حبي لك قد أضاع صوابه، فلم يخطىء طريقه، وكان تعبيره عن نفسه كاملاً وكلياً.

إذ لم أساوم عليك.

المؤلف

صدر له:

موزاييك «دمشق ٣٩»، رواية، دار الأهالي، ط١، ١٩٩١، ط٢، دار التكوين ٢٠٠٧.

تياترو «١٩٤٩»، رواية، إصدار خاص، ط١، ١٩٩٤، ط٢، دار التكوين ٢٠٠٧.

الرسالة الأخيرة، قصص، وزارة الثقافة، ط١، ١٩٩٤، ط٢، دار التكوين ٢٠٠٧.

صورة الروائي، رواية، دار عطية، ط ١، ١٩٩٨، ط٢، دار التكوين ٢٠٠٧.

الولد الجاهل، رواية، دار الكنوز الأدبية، ط١، ٢٠٠٠، ط٢، دار التكوين ٢٠٠٧.

الضغينة والهوى، رواية، دار كنعان، ٢٠٠١ ـ طبعة ثانية، ٢٠٠٤.

مرسال الغرام، رواية، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٤.

مشهد عابر، رواية، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٧.

المترجم الخائن، رواية، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٨.

عزف منفرد على البيانو، رواية، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٩.

الضغينة والهوى

فــواز حداد

بات كل منا إلى جانب، في مكان لم يعد حيادياً على الرغم من التحف الشرقية والتذكارات السوداء أو بسببها. وأيضاً، لسبب آخر، كلانا أخفاه، هو احتفظ بشكوكه ولم يبح بها، أما أنا فقد كان إحساسي بالظلم عظيماً وقاهراً، وأمسى حديثنا على وشك الانتهاء، وعلى الأصح، الانهيار.

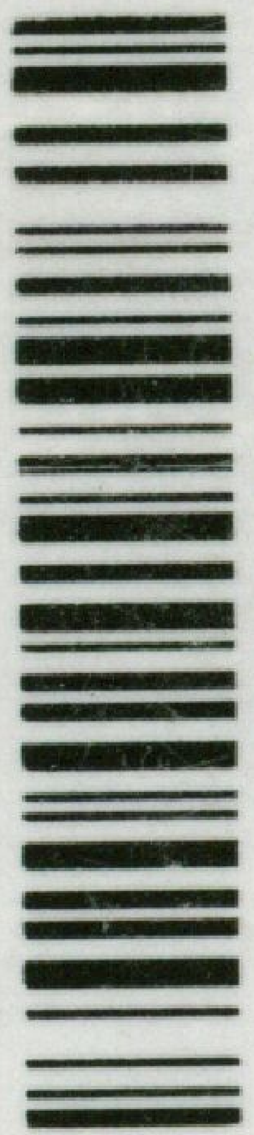
وأجزم أن دولمونت ـ ليس بداعي المجاملة ـ أراد إنقاذه، بوضع خاتمة موفقة نوعاً ما، لحديث طويل، بات جافاً و وعراً. قال:

«لو أن هناك شخصاً ثالثاً يرانا، لأيقن أننا لسنا أكثر من أشباح تتخايل على صفحة زمن مضى.»

وكأنه زمن مضى لمجرد مرور بضع سنوات. قلت له:

«إننا نحمل قدراً من الحقيقة، يتهاوى إزاءه أي وهم.»

مازلنا على الصفحة نفسها، لا نتخايل عليها، قدر ما [illegible] صفحة زمن يستمر، إذ، لا يمكن أن نرتجي النسيان، [illegible] أرواحنا بمقدار كبير من التصميم والسذاجة.






ISBN 9953-21-449-2
9 789953 214498